السيد مجتبى الموسوي اللاري

الإسلام والحضارة الغربية

تعريب

محمد هادي اليوسفي الغروي

بسم الله الرحمن الرحيم



الإسلام والحضارة الغربية

السيد مجتبى الموسوي اللاري

الإسلام والحضارة الغربية



تعريب
محمد هادي اليوسفي

موسوى لارى، مجتبى، ١٩٣٦ -
الاسلام والحضارة الغربية /تاليف مجتبى الموسوى اللارى، تعريب محمد هادى اليوسفى الغروى.- قم: مركز نشر الثقافة الاسلامية في العالم، ١٣٨٥.
٢٦٨ص.
عنوان اصلى: اسلام و سيماى تمدن غرب
ISBN: 964-5817-11-0
١.اسلام و غرب. الف. يوسفى غروى، محمد هادى، ١٣٢٧ - ، مترجم.
ب. عنوان.
٢٩٧/٢٨٩ BP ٢٢٩/٢/م٨الف٥٠٣٣

الاسلام والحضارة الغربية

المؤلف: السيد مجتبى الموسوي اللاري
تعريب: الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي
الناشر: مركز نشر الثقافة الاسلامية في العالم - قم
الطبعة السادسة: ١٣٨٥ - ٢٠٠٦ - ١٤٢٧
المطبعة: الهادي الكمية: ٢٠٠٠ نسخة
رقم الإيداع الدولي: ٠-١١-٥٨١٧-٩٦٤ ISBN



مركز نشر الثقافة الإسلامية في العالم

Sayyed Mojtaba Musavi Lari
Foundation of Islamic C.P.W.
21 Entezam St., Qom, I.R. Iran
Tel: [0251] 6605408 - 6609550
Fax: [0251] 6602335
Website: www.musavilari.org

مُقَدِمَةُ المؤَلِفْ

إنّ العالم المتحضّر اليوم ، بماله من ظاهر جميل ، والذي لا زال كل يوم يعرّف المجتمع البشري بآفاق جديدة . . قد ابتعد عن محور حقائق الحياة بمقياس واسع وهو بمنطقه المبني على أساس أصالة المادة والثروة ، يتنكّر لثبات القيم في المجتمعات الإنسانية . وإن كيفية التربية الفكرية والروحية للناس في كل من المعسكرين العالميين (إن كان لا يزال هناك معسكران) بحيث يجعلهم في غفلة عن المعاني الخالدة . فالإنسان الذي كان دائماً وعلى أساس خصائصه الذاتية الباطنية قد حدّق النظر ليبصر عالم المعنى ، عطف التفاته اليوم إلى العالم المادّي السيّال ، وأخذ يتلقى الجانب المعنوي للطبيعة وحقيقة نفسه الملكوتية وكأنها مزاعم موهومة ، ولهذا فقد أصبح الربح واكتناز الثروة والرفاه المادّي غاية الآمال لكل الرجال تقريباً . ومع هذا الأسلوب من التفكير الذي يسود العلاقات الفردية والإجتماعية وبشتّى الأشكال والصور لا ينبغي لنا أن ننتظر السعادة الحقيقية للبشرية ، إلاّ ان تتكسّر هذه الأصنام المختلقة بيده ، ومع تغيير الجو الفكري يبدأ الإنسان مرة أخرى يبحث عن إلٰهه الحق .

نحن لا ننكر النمو التقني ، وسرعة الإتصالات ، وكل التسهيلات والإمكانات التي أهدتها إلينا هذه الحضارة الحاضرة ، وانّ فوائدها ومزاياها مما لا يمكن لأحد ان يغض عنها النظر والبصر ، ومن هنا آمنت البشرية لنفسها

شروطاً أفضل للحياة . . . ولكننا لا يمكننا أيضاً ان نغضّ النظر عن حقيقة كبرى هي ان روح الإنسان تجد نفسها أمام حقيقة كبرى لا نهاية لها ، وأن تبديل سعادة الإنسان المعنوية إلى صرف رفاه مادي لا يمكنه ان ينسي الإنسان لمدة مديدة حاجته الماسة والعميقة إلى راحة الضمير والطمأنينة وأن ينسى أهمية الدين ورسالته الكبرى وأن يغفل عما هو بحاجة إليه حاجة ذاتية .

إن المدارس الإجتماعية لعصرنا الراهن بالرغم مما لها من دعاوي تقدمية وإنسانية ، بعد أن أشعلت حريق حربين عالميّين وقتلت الملايين بكل قسوة وبلا رحمة . . . لم تجد بعد لدرء خطر مماثل آخر أيّ طريق معقول ، ومن الممكن أن تستعر أوار حرب أُخرى مرة أُخرى بأية محاسبة خاطئة عسكرية أو سياسية ، فتخرج نفس هذه الوسائل الموحشة النارية المشبعة بالقوة السرية الذرية عن الإنضباط بيد المسؤولين عنها ، فتحترق البشرية بنارها التي هي أجّجتها وأشعلتها ، وتنعدم بالكلّية .

ومن المؤسف ان الأمم الشرقية ولسنين طويلة أخذت تشعر أمام النهضة الصناعية والتقدم التقني والتفوق الإقتصادي الغربي بحقارة وانبهار ، بحيث افتقدت كل قواها الروحية المبدعة وأصبحت كمجتمع طفيلي لا روح له ، يخضع ويذعن لكل ما يدخل عليه من أبواب الغرب ، وبعذر جبر التاريخ أو ضرورة العصر . وهو (هذا المجتمع الشرقي) لا معرفة له بهذه الحضارة الحديثة من الناحية الفكرية والثقافية ، فهو لا يدرك تلك الضغوط النّفسية والفراغ الروحي الذي يواجهه الغربيون ، فهو يزعم أنّ عليه أن يسلّم كل ما لديه من حقائق خالدة وأبدية لهذه الموديلات الفكرية والميول العصرية ، مهما كانت هذه الميول غير أُصولية وأُسلوباً غلطاً وغير منطقي في التفكير .

ولا ريب في أن المجتمع الذي يشعر في نفسه بالضعف والمهانة ، فهو وبتأثير من هذه العقدة المميتة لا يبدأ ـ لتجديد حياته وجبر ضعفه وتأخّره ـ بأيّ سعي ومحاولة . ولا سبيل إلىّ احياء الإستقلال الفكري والروحي في الناس سوى احياء القيم الإنسانية وتعبئة كل الإمكانات لهذا الغرض بالذّات .

ومن ناحية أُخرى ، فان أفكار الجيل الحاضر ، التي وقعت في موقع

الصدام بين مختلف الأفكار المعاصرة ، تتسمّم كل يوم بشكل وآخر . وفي هكذا ظروف فان تكليف علماء الإسلام خطير وحياتي جداً ، إذ عليهم أن يفتحوا سبل الهداية على وجوه الجيل الحاضر على أساس علمي ومنطقي دقيق ، وأن يضعوا في متناول أيديهم الثقافة والمعارف الإسلامية الواسعة والشاملة .

وفي هذه الأعوام الأخيرة وان كان قد تحقق نشاط ملفت للنظر من قبل العلماء على هذا الصعيد ، ولكن الإيديولوجية الإسلامية لم تجد طريقها بعدُ إلى أفكار أقشار واسعة من الشباب المثقف ، وقد بقي هذا التراث القيّم والعظيم خفيّاً عن أنظار كثير منهم .

وفي هذا الكتاب تقابلت الأفكار المادية للعالم الغربي مع منطق الإسلام العظيم ، مع مقايسة بينهما بأسلوب جالب وجاذب . فهذه المجموعة تتعهد بتحليل مسائل متنوعة إجتماعية وسياسية وإقتصادية في الحضارة الغربية وفي الإسلام ، وبالإفادة من الأدلة المذكورة في الكتاب بإمكان القارىء أن يدرك بوضوح : أنّ الإسلام وفي سبيل ضمان الأمن والدعة للمجتمع لا يعده لتقبّل الحضارة الشاملة والتقدم بها فقط ، بل هو في تعاليمه القيّمة يُولي عناية خاصة بتفاهم الأمم المختلفة المسلمة من ناحية ، والإبتعاد بهم عن العصبية أمام سائر الأمم من ناحية أُخرى . وهو يقرر بذلك بين الأمم والشعوب أواصر قريبة جدّاً ، ويدعم العوامل الأساسية للتقدم الحضاري ، وهو بالتالي يحتوي على كل العناصر الإيجابية والبنّاءة لبناء ثقافة إنسانية وعالمية ضمن حضارته الشاملة .

لم يحدث في الإسلام ـ خلافاً للمسيحية ـ بين مباحث الدين والعلم نزاع وصِدام ، بل يشهد التاريخ أن هناك علماء كبار تقدموا بخطوات ملفتة للنظر في ظل الإسلام وفي حدود الشرائط الزمانية والمكانية لهم في مختلف العلوم والحقائق التجريبية ، وكانوا بالنظر إلى بحوثهم العلمية واستنباطهم للقواعد الإنسانية روّاد العالم خلال خمسة قرون . والذي يسّر للمسلمين السبيل إلى هذا الرقيّ المادي ومكّنهم من ذلك كان هو الإسلام ، الذي رغّب المسلمين ما أمكن في اقتناء العلوم والفنون حتى شوّقهم إلى ذلك ، ونفث بذلك نعمةً جديدةً

في عصر كان أسيراً بيد العصبيات القومية والدّينية (الباطلة) واستبدل بروح التعاون العلمي والحضاري تلك العصبيات السائدة في العالم القديم .

واليوم كذلك يتمكن الإسلام في هذا العالم المستسلم لسير المادة ، من أن يبدي للبشر رسالته السماوية الخالدة ، فالإسلام يحمل رسالة من صميم الواقع للإنسان الخالد غير الفاني ، ورسالته هي الدعم والتأييد لتلك الحقيقة التي كانت ولا تزال ، ولذلك فان رسالته هذه غضّة طريّة وجديدة ، ويستطيع الإنسان في كل عصر أن يجد فيها معنى حياته وهدفه ، وباتجاهه نحوها واتباعه لها ينجو من أمواج حياته المادية الفاقدة للهدف والروح .

إن المجتمع ـ أيّ مجتمع ما ـ لو سعى وجاهد لتطبيق هذا البرنامج السماوي السامي لانفتحت بوجهه أبواب السعادة الواقعية ، ولحصل بفضله على حياة سليمة ومنتظمة .

وأنا لا أشك في ان قراءة هذه المجموعة سوف تفيد لتنوير الأذهان والتعريف بكيفية الحضارة الغربية والإسلامية ، لتصحيح نظرة الشباب الناشىء والجيل الحاضر في هذا المجال . وآمل من القرّاء الكرام أن يولوا مباحث هذا الكتاب الذي يطبع للمرة الرابعة العناية وان احتفاء مختلف الطبقات بهذا الكتاب لخير شاهد على مجتمعنا المسلم ولا سيّما جيل الشباب أخذ يخطو نحو الحقّ والواقع خطوات جادة إلى حد ما ، وهم يطلبون اليوم ما يعرّفهم بماهية الحضارة الحاضرة وجوانبها المختلفة .

السيد مجتبى الموسوي اللاّري

القِسمُ الأوَّل

سيرُ الحَياةِ وَ الحَضارَةِ الإنسانِيَّةْ

كلما حاول العلماء البحث أكثر في طليعة الحياة على وجه الكرة الأرضية تطاول صعيد البحث مع تاريخ ظهور الحياة إلى أدوار أعمق وأكثر توغلاً في القِدم ، ولهذا السبب فقد أصبحت هذه المسألة تتسم بالأسرار ويُضاف في إبهامها وتعقيدها .

مع أنه لم تمض على ظهور الإنسان في الأرض مدّة طويلة بالنسبة إلى عمر الأرض وتواجد الحياة فيها ، مع ذلك ليس بأيدينا اليوم معلومات واضحة عن تطورات حياة الإنسان والأدوار التي مرّت على البشر ما قبل التاريخ . واستطاع علماء الآثار ببحوثهم في بطون الأتربة بما لديهم من أدوات ووسائل وبما اكتشفوا من آثار باقية من القرون الخالية ، أن يقدموا لنا معلومات قيّمة عن أوضاع حياة الإنسان في مختلف الأدوار . فهم على أساس بحوثهم هذه يقسمون عصور ما قبل التاريخ إلى أدوار عديدة[1] .

فالإنسان في العصر الحجري كان يحاول الصيد لدفع جوعه واستمرار حياته بأسلحة ساذجة كالأخشاب والأحجار ، وهو في اضطراب دائم خوفاً من

(١) يقول علماء الآثار : لقد مرّت على البشرية أدوار مختلفة وتواجدت حضارات متطوّرة سادت ثم بادت ولم يعد بالإمكان إلاّ اكتشاف آثار مبهمة عنها ومن الممكن أن يكون هذا الدور الأخير قد بدأ من آدم عليه السلام .

السباع والوحوش ، فكان يلجأ إلى زوايا الكهوف صيانة لنفسه من ضرّها وشرّها . كانت الانواء الجوية وتحولاتها تخيفه وترعبه ، وكان يخاف من الظلام ويرهبه . فهو في ذلك العهد كان يُعدّ صيّاداً يبحث عن القدرة للإنتصار على صيده ، وكان يستعمل كل إمكاناته في سبيل ظفره بعدوّه ، يصنع لنفسه من الحجر فأساً ومعولاً ورمحاً في أشكالها البدائية الأولى .

وعلى طول هذا الدور استطاع أن يُشعل ناراً فيطبخ بها طعامه ، وينتصر بها على ظلام الليالي . ومرت قرون هكذا حتى خلّف المراحل البدائية للعصر الحجري القديم .

ومع دخوله إلى العصر الحجري الجديد أحدث تغييرات في جوانب مختلفة من حياته . وان كانت أدوات أعماله ووسائل حياته لا تتجاوز الحجر ، إلّا انّها خرجت عن صورها الساذجة السابقة إلى اعتدال أكثر .

فهو من تكديس الأحجار والأخشاب صنع كوخاً لسكناه ، وبالإفادة من الطين المخمّر والشمس والنار صنع لنفسه أواني خزفية . وتوفّق إلى حلّ رموز الزراعة وتأهيل الحيوانات والدواجن الاهلية ، فهو يعرف اليوم كيف يزرع البذور ويربّي الأشجار ، ويصيد بعض الحيوانات بالسهام والأقواس ويصيد السمك بالرماح ، وترك خلف ظهره العصر الحجري تدريجياً ، وترك ذكر مصيره للمستقبل ، ودخل دور الصهر والحديد والمعادن .

وفي هذا الدور بدأت قصة الحضارة تنمو تدريجياً ، وتصوّرت حياة الإنسان بصورة جديدة ، ودخلت مرحلة أخرى .

فلم يَعدْ هو بعد حيواناً جائعاً يسعى وراء طعامه دائماً ، والحوادث المختلفة سببت في ان يعطف نظره عن بطنه إلى العالم من حوله ، وكلما زيد في فتوحاته في حروبه مع الطبيعة ضوعفت بنفس النسبة حوائجه . وبكلمة فان ذلك الموجود الذي انتصب قائماً في ساحة الوحوش اختار طريقاً انتهت به إلى هذه الحضارة الحاضرة اليوم ، وبينما كان محصوراً بين جدران الجهل توفّق إلى ان يجد للخلاص سبيلاً إلى عالم العلم والمعرفة .

إن الذي كان ولا يزال يميّز الإنسان عن الحيوان كان شيئاً روحياً ذاتياً هو

العقل والإدراك الذي هو من أعجب ظواهر الحياة ، فوراء عينيه كان عقله ، وكان يحسّ في باطنه بقوة تجذبه إلى طرق بديعة وجديدة ، وفي كل خطوة يخطوها كان يشعر في باطنه باضطراب من حبّه للاستطلاع إلى جانب ضوء خافت من الاعتماد والثقة بالنفس . وكل ما أحدث التاريخ وغيّر من أسلوب حياة الإنسان كل ذلك من الأعمال العجيبة لهذا الشيء المرموز غير المرئي والذي لا يوصف أي « العقل » فالإنسان في ظل هذه الموهبة يشاهد الأشياء بدقة ويفكر فيها بإمعان ويتعلّم منها بالتجربة ، ثم يدّخر معلوماته في مكان غريب محيّر في المخ باسم القوة الذاكرة ، فينتفع ويفيد منها في الماجريات والحوادث المستجدة .

في الألف الرابع قبل ميلاد المسيح تقدم البشر في مختلف شؤون الحضارة : فظهرت لديه الكتابة بالألف والباء والصناعة والتجارة ، وتأسس المهم من عناصر الحضارة . ففي هذا الدور مدّ يده للبناء بل المعمارية بالأحجار الكبرى المقدّرة ، واستخدم الصفر والنحاس ثم الحديد لصناعة الأدوات ووسائل الحياة . وتأسس الدين الإلهي الكبير ، فظهر إبراهيم عليه السلام في أرض بابل ، وأمره الله أن يتكفّل بهداية المجتمع البابليّ الضال ، والأفكار غير المنطقية . ولذلك فقد قام أصحاب تلك العقائد وذووا تلك الأفكار بالإصطفاف أمامه لمقاومته ، وكانت جبهة نمرود هي الأقوى التي كانت ترى دعوة إبراهيم خطراً جاداً يهدد كيانها ، فقام نمرود بتوظيف كل طاقاته وقدراته لمضادته . ولكن إبراهيم بنشره لدعوته التوحيدية وكفاحه المتتابع ضد الطغاة الظالمين حطّم بالتالي القدرة الشيطانية لنمرود . وبعد أسفار طويلة حيث انتهى به المطاف إلى أرض الحجاز أسّس بيت التوحيد بمساعدة ولده إسماعيل عليهما السلام .

وبعد عهد الحديد نصل إلى الدور التاريخي الأول والمرحلة التاريخية الأولى .

استطاع التاريخ أن يسجّل الحوادث منذ سبعمائة وخمسون سنة قبل ميلاد السيد المسيح . كان قد مضى قرنان على تأسيس السلطة الرومانية إذ بدأ

زرادشت بنشر أفكاره في إيران . وقد نشر كل من لائوتسه وكونفوسيوس في اليابان والصين ، وبوذا في الهند أفكارهم الدينية الفلسفية ، وتربّى أرسطو وأفلاطون في اليونان . وفي حين كانت الروح المادّية قد نفذت إلى كل حياة الناس أمر السيد عيسى المسيح (ع) باصلاح المجتمع ، كي ينقذ البشرية من مخالب مادّية اليهودية ، فقام بتهذيب أخلاق الناس ونفوسهم لنفي الفساد والضلال .

ومن المظاهر الظاهرة لهذه الدورة وسائل الإرتباط والمواصلات ، والبنايات والصناعات ، والطب (اليوناني القديم) والقرون الوسطى تبدأ من سنة ٤٧٦م وهي تحفل بحوادث كثيرة ، فالكنيسة تحكم أفكار المجتمع علاوة على قدرتها الروحانية ، والجهل والتشتت والتوحش وسفك الدماء من سمات هذه الدورة في أوروبا ، وفيها تتأسس الحضارة الإسلامية في الشرق الأوسط ، وسنبحث عنها في القسم الثاني .

وابتدأ دور التجديد من سنة ١٤٥٣م مع دخول السلطان محمّد الفاتح إلى استانبول وسقوط سلطة الرّوم الشرقية ، وقامت دول عظمى كبريطانيا وفي فرنسا والمانيا والنمسا . وباكتشاف البوصلة القطبية قطعوا مياه البحر الاطلنطي واكتشفوا القارة الامريكية . ومن مظاهر هذه الدورة النهضة الفكرية والعلمية ، وتأسيس العلاقات الدولية وتعاظم الدول الكبرى .

وبعد الثورة الفرنسية في سنة ١٧٨٩م أصبح العالم عالم الصناعات ، وتقدمت الإكتشافات والإختراعات بسرعة ، وتجدّد كل شيء ، وبدأ العالم الأوروبي بهذه الثورة الأوروبية فصلاً جديداً في تاريخه .

تقييم الحضارة الغربية القائمة

هذا العالم الذي تربيّنا نحن فيه ونعيش في كنفه ، قد بلغ بقافلة الإنسانية إلى مرحلة محيّرة من مسيرته الاجتماعية . انّ البشر اليوم يعيش مرحلة التطور والثورة الفكرية ، وقد تجهّز بالقوة العلمية العظيمة ، وهو كل يوم يدرس حوائج الحياة في حدود أفكاره ثم يحاول قضاءها ، وعلى أثر انتاج هذه المصنوعات وتقدم العلوم قد ارتفع حظ وافر مما كان يبديه إنسان الأمس أمام المشاكل من عجز وضعف وهوان ، إذ انّ العلم قد رفع قسطاً وافراً من تكاليف الإنسان عن كاهله ووضعه على كاهل الماكنات الصناعية ، وبالتالي فهو يفيد اليوم من مزايا الحياة أسهل وأيسر ، وكذلك فان تواجد الوسائل والأدوات العلمية قد وفّر على البشر إمكاناته للبحث عن أسرار العالم الرحب وزاد في كمية فعالياته ونشاطاته .

وبديهي أن دوران نشاطات الحياة قد اتّخذت سرعة غريبة على أثر تكاثر فرص الأعمال ، فالزمان الذي كان ينقسم إلى الليل واليوم للعمل والنوم ، ولم يكن للوقت قيمة ، يقاس اليوم بمقاييس الدقائق والثواني ، وتتحقق الأعمال العلمية الملفتة للنظر في مدة قليلة .

قبل اكتشاف قوة البخار والبرق كانت السفن تتحرك بالرياح ، أمّا اليوم فان البشر يفيد من السفن البخارية الكبرى على أثر تطوّر المكائن الكهربائية والبخارية ، ويفيد كذلك لأسفاره وحمل أثقاله من السيارات والسكك الحديدية

والطائرات الضخمة بدل الدواب ذوات الأربع ، فيطوي المسافات الكثيرة في مدة قليلة . وأفكار البشر اليوم لم تعد محصورة في الأرض بل تعدّت آفاق الأرض مادّةً ببصرها إلى الكرات الأخرى لتسخيرها ، وبالتالي فقد جعلت آفاق السماء وأعماق البحار ساحة لتجوالها .

مر على البشر عهد لم يكن له عن هذا العالم العظيم من المعلومات سوى شيء ناقص بل لا شيء ، بينما اكتشف اليوم حقائق محيّرة بشأن عالم الوجود ، وقد رفع الستار عن وجه عجائب العالم والاحياء الميكروسكوبية بقدرة العلم والبحث الدراسي ومن خلال المختبرات ، وقد جُهزت المختبرات بأحدث أنواع الوسائل والأدوات ، والميكروسكوبات الالكترونية تبدي الموجودات أكبر من حجمها بآلاف المرّات .

والخلاصة : ان المزايا والنتائج التي قدمها العالم الغربي في العصر الحاضر لشعوب العالم ليست مما يمكن التغاضي عنه ، وليس بإمكان أحد أن ينكر كل وسائل الإنتاج وتوفير منابع الثروات وكل التسهيلات التي ظهرت في هذه الحضارة المعاصرة .

وبالنظر إلى الصحة والطب فان هذا التطور والتقدم ملفت للنظر جدّاً ، فقد كان هذا العلم في السابق يطوي أدوار ضعفه وعجزه ، فلم يكن يجد لكثير من الأدواء أدوية ، وكان الأطفال قبل أن يقدموا إلى ساحة هذه الدنيا هدفاً لمختلف الأمراض الفتاكة ، فكان بعضهم يُسرحون إلى ديار الموت والعدم ، والبعض الآخر ممن أصابه المرض بضربات مؤثرة عليه أن يقضي عمراً مليئاً بالأتعاب والآلام ، ولا نستطيع بعدُ أن ننسى أو نتناسى الخواطر المؤلمة من الأمس القريب .

إن حياة البشر وإن كانت منذ أن قدم إلى هذه الكرة الترابية متغيرة متحوّلةً ، ولا يختصّ هذا التغيير بزمان خاص ، ولكن سرعة الإبتكارات والإبداعات العلمية والفنية له في العصر الحاضر بحيث أصبح لهذا المقطع الزمني ميزة خاصة حتى سُمّي عصر انتصار العلوم والفتوحات العلمية ويلزم أن نضيف هنا نقطة أخرى هي أنه مع كل هذا الرقيّ والتقدم العلمي المحيّر

ومساعي علماء العلوم الطبيعية بهدف التعرف على أسرار هذا العالم ، مع ذلك لم يُقرأ لحدّ الآن من أسرار هذا الكتاب سوى بعض الحروف الهجائية الأولى .

ومع كل الأسف علينا أن نعترف بأن في الحضارة الغربية الحاضرة ـ مع كل ما لها من مظاهر ملفتة للنظر ـ قصوراً ونقاط ضعف كثيرة ليست هي من حيث الكبر والأهمية بأقل من جوانبها الإيجابية ، وكما علينا أن نقدّر العلم والثقافة والحضارة التي وفّرت للمجتمع وسائل الرفاهية والتي فتحت في كتاب البشرية فصلاً جديداً ، كذلك لا نتمكن من أن نغض النظر عن افتقاد الفضائل التي ترتبط بها السعادة الإنسانية ، وعن الإنحطاط الذي أصاب المجتمع المتحضّر نتيجةً لهذه الحضارة بالذات .

إنّ الصناعة الغربية قد ارتقت إلى أوجها ، والإبداعات البشرية تتحقق في هذا المجال بكل شمول وسرعة ، ولكنّ الحياة الروحية للناس قد بلغت حدّ الصفر ، فبنفس النسبة التي تقدم العلم تنزّلت الأفكار ، وتوسّعت عوامل الإختلاف والتنازع .

إنّ الغرب قد ترك القيم الروحية والإنسانية ، وقد تقبّل أن يتكبّل بربقة عبودية الماكنة ، ولا ريب في أن عبيد الماكنة لا يتوصّلون إلى السعادة والراحة الحقيقية . إن العلم الصناعي ينظّم الحياة وهذا النظام يستلزم الرفاه ، ولكنه لا يخلق السعادة ، فالسعادة ليس من صنع العلم بل هو أمر آخر ، إذ العلم الصناعي لا يعرف النافع والضار والحسن والقبيح وإنّما بإمكانه أن يميّز الصحيح عن السقيم . ولو كان نظام الحياة للبشرية نظاماً علمياً فقط لكانت الحياة جحيماً لا يطاق ، وحتى « راسل » كان يقول : يجب أن نحارب هكذا نظاماً .

في حين جاءت الحضارة للبشرية بهدايا قيمة ، جاءت معها كذلك بانفلات من القيود مع آلاف المفاسد والجرائم المهولة والمهلكة ، وأصبحت نيران الأهواء والشهوات اللاّنهائية تهاجم لحمة الأرواح وسداها بلا هوادة ولا رحمة ، وبذلك فقد سلبت الناس الراحة الروحية والفكرية والأمان . فالعلم الصناعي ليس لم يسرج في ساحة الحياة المعنوية سراجاً بل أضافها ظلاماً وعتمةً .

إن هذا الفتح والإنتصار العلمي الصناعي كان كالفتوح الحربية لها خسائر ومصائب لا تُجبر ، وكل زهرة تتفتح في حديقة هذه الحضارة تنبت إلى جانبها أشواك مهلكة أيضاً . السيارات والطائرات والمصانع والمعامل ووسائل العمليات الجراحية وأدوات الراحة والرفاهية هي هدايا قيّمة لهذه الحضارة الحاضرة ، ولكن نفس هذه الحضارة جاءت للبشرية كذلك بالقنابل المدمّرة والغازات السامة القاتلة والطائرات الحربية والصواريخ والأشعة المهلكة ، إلى جانب الجرائم الأخلاقية الجنائية .

في العالم المتحضّر يكون العقل نفعياً يخدم المنفعة ، وكأنه لا يدرك شيئاً سوى النسب المادية ، ولذلك فقد انعدمت الفضيلة المطلقة ، وتناسى الناس كثيراً من المفاهيم الأخلاقية ، وهذه جراحة في روح البشرية لا تلتئم .

مع أن بيئتنا بعيدة عن ساحة الحركات والفعّاليات الصناعية ، إلاّ أن مظاهر الحضارة قد تطرقت إلى مجتمعنا ولا سيّما الشطر الثقافي منه ، وهي تسيل علينا بسرعة وبشدة ، ذلك ان الحدود الدولية منفتحة اليوم بوجه كل الأفكار والأخلاق الأجنبية ، فالعادات والتقاليد تنفذ من دولة إلى دولة . والعلوم والأفكار الصحيحة وان كانت بدورها مشمولة لهذا القانون نفسه ، إلاّ أن المفاسد الأخلاقية والروحية لتناسبها مع الميول الشهوانية والغرائز الطاغية ، فهي تؤثر أثرها أسرع وأعمق ، ولذلك فمع عدم مشابهة مجتمعاتنا مع المجتمعات الغربية بالنظر إلى التقدم العلمي والصناعي ، نرى فيها أتم نماذج المفاسد الغربية وانفلاتها .

إن أكبر هزيمة أخلاقية لمجتمع ما هو أن يفقد قوة تمييز الخير والشر والحسن والقبيح ، فان هكذا مجتمع سوف لا يظفر بالسعادة أبداً .

نأسف أن بعض المنبهرين بحضارة الغرب إنّما انبهروا بظواهرها ، وهم لا يرون مصائب العصر الحاضر والإنحطاط الأخلاقي فيه . إنّ العالم المتحضّر يعرض الجوانب الظاهرية السطحية لحضارته في احتفالاته ، ولذلك فان هؤلاء المنبهرين حينما يذهبون إلى تلك البيئات يفتقدون قوة التفكيك والتمييز بين القضايا والجهات ، فيرون كل أساليبهم غير الحميدة وخصالهم غير الصحيحة

صحيحاً ، ويفتقدون أنفسهم أمام المظاهر الخلّابة والعظيمة صورياً بحيث يشعرون بالنسبة إلى أي اختلاف يرونه بين آدابهم ورسومهم وكلامهم وبين مثل ذلك في الغرب ، يشعرون بنقص في جانبهم مُخجل ، وبدل أن يبحثوا ويحقّقوا عن عوامل تقدمهم وبلوغهم إلى تلك الغايات ، يرجعون وهم يحملون هدايا من مفاسدهم الروحية وجرائمهم اللاّأخلاقية . هذا الإنبهار الذي هو من أبرز العيوب وأكبر الأدلة على فقدان الشخصية والإستقلال الفكري ، والذي يلازم الجهل بجمال الثقافة الوطنية والدينية وبلاغتها ، هذا الإنبهار ، يؤثّر أثره التحريفي بالنسبة إلى العقائد الدينية ، فهم من حيث لا قدرة لهم على أن يحلّلوا القضايا بدراسة عميقة شاملة فيميّزوا الخير والشر والحسن والقبيح من الأعمال والأمور ، لذلك ينكرون كثيراً من الحقائق رأساً .

إنّ الأمم الأوروبية توفّقوا لان يصلوا إلى هذه الحضارة الباهرة من دون أن ينسلخوا عن دينهم وآدابهم ورسومهم ، واليابان أيضاً مع احتفاظها بآدابها ودينها ورسومها ومميّزاتها وخصائصها طارت نحو الحضارة كالبرق الخاطف حتىٰ اصطفّت في عِداد الدول المتقدمة ، تمكنت هذه الدولة من أن تُخرج نفسها من ضمن الدول المتأخرة وتأخذ مكانها إلى جانب أكبر الأمم المتحضرة في غضون ستين سنة ، ولم تصبح مصابة بمرض الإنبهار والهزيمة النفسية أمام الغرب فلم تقلّد الغرب وأوروبا عمياء ، بل جاهدت للإحتفاظ بدينها وقوميتها وآثار أسلافها بتعصّب شديد ، فكما كانت تعمل قبل قرون لا زالت اليوم أيضاً تحترم دينها القديم « البوذي = شنتوا » ذلك الدين الذي لا تخفى سخافته على أي عاقل لبيب .

ولكنّ مثقفينا غير الواقعيّين الذين ليست لديهم قاعدة فكرية صلبة ، وهم عاجزون عن تحليل أوضح المسائل الإجتماعية وادراك أبسط الدساتير الدينية ، يستقبلون أي انتقاد في اعتقادهم الديني بكل فخر وسرور ! كي يثبتوا أنهم مثقّفون تماماً ! إنّ هؤلاء المغفّلين لا يتمكّنون من أن يفكّروا بحرّية بشأن حقائق الأمور وواقعيات الحياة فيدركوا الحقيقة بتجوال أذهانهم وبالبحث والتنقيب . بينما من الملفت للنظر أنّ النشاط الفكريّ للبشر في مختلف شؤون الحياة المادية والتحولات العجيبة والتطور العظيم الذي حدث في ساحة حياة البشر ،

إنما هو نتائج أتعاب علماء منهمكين بالجهاد العلمي في زوايا المختبرات وهم بذلك يسخّرون قوى الطبيعة بقوة العلوم وبأيديها ، وانّ الإنتصار في ساحة الحياة إنّما هو نتيجة سعي دؤوب لا لهذه المظاهر الحضارية . أفهل يمكن أن يكون التقدم في الصناعات والإختراعات من نتائج الإنفلات والإنغماس في الشهوات والأهواء ؟ أضف إلى ذلك أن التطور في العلوم المادية والمعنوية ليس على وتيرة وشاكلة واحدة ، بل هو في جهتين مختلفتين بل من الممكن أن يكون التقدم في جهة منهما متزامناً مع التقهقر في الجهة الأخرى .

أحد أساتذة الجامعات الأوروبية قال في مؤتمر علمي بطهران : « إنّ الغرب يحتاج في المعنويات إلى الشرق ، وإنّ المعنويات في الشرق أغنى من الغرب بكثير ، فلو كان الشرقيون يفيدون من صنائع الغرب فان على الغرب أن يفيد من المعنويات في الشرق كذلك » .

إنّ المجتمع البشري يحتاج لحياته إلى أُصول أُخرى سوى التكنولوجيا والثقافة الصناعية ، ولو أن نظاماً سياسياً إجتماعياً فصل المجتمع البشري عن الفلسفة الأصيلة للحياة ، وأصبحت الحياة تقضي سيراً حثيثاً في سبيل المعاش على وتيرة واحدة عارية عن أهداف مشتركة مقدّسة ، لسادت حياة الجماهير البشرية خشونة ظالمة .

نأسف أنّ دنيا البشرية اليوم تقضّي دور الطفولة ، وهي لم تبلغ حدّ رشدها كي تتمكّن من أن تفيد من الذخائر الثمينة الدفينة في بطن الطبيعة ، ومن رأسمالها الوجودي في سبيل سعادتها ، ولنفس السبب فهي كالأطفال تتأثر بعواطف الطفولة أكثر من أن تتقيّد بالحقائق العقلية في أكثر شؤون حياتها ، فالأحاسيس قد استخلفت العقل والمنطق ، ولا زال العقل البشري في قيد الأوهام ومخالب الخرافات ، أعم من أن تظهر هذه الأوهام والخرافات في صورة عبادة الأصنام ، أو أن تبرز في ساحة حياة الأمم المتقدمة والمتحضرة في صورة التعبّد بالعلوم المادية التجريبية فقط . والبشرية اليوم بعد ما شاهدت من التجارب المرّة في طول الإنحرافات الجديدة ، أدركت أنها إما أن تخضع للهداية إلى الصراط المستقيم أو أن تذهب إلى الفناء والدّمار . يقول العالم

الإجتماعي الشهير « سورو كين » :

« كل من الجوانب المهمة للحياة والحضارة للمجتمع الغربي قد أصبح في اضطراب غير عادي ، فإن هيكل هذه الحضارة وروحها مريضان بشدة ، ولا نتمكن من أن نجد نقطة غير مصابة في هيكل الحضارة الغربية أو عصباً في شبكة أعصابها يؤدي وظيفته تماماً إلاّ بعسر وحرج شديدين . نحن نعيش اليوم في برزخ بين العصرين : بين نهاية عصر الثقافة المادية العظيمة بالأمس المحتضرة اليوم ، وبين طلوع الحضارة المعنوية المبدعة لغد أفضل . نحن من حيث حياة الفكر والعمل نعيش في أواخر دقائق اليوم الطويل للحضارة المادية ، التي كانت تلمع لستة قرون ، ولا زالت الاضوية الخافتة لشمس الأصيل تشعّ على جلال عصر قد آذن بوداع ، ولكن هذه الأضواء ليست ساطعة ، وأنوارها لا تبعث على الأمل . وفي ظلال الغروب التي تتزايد ظلمتها يصعب على سالكي الدروب أن يميّزوا اتجاهاتهم ، وإنّ الامسية الطويلة لغروب الحضارة تتراءى أمامنا بكل ما فيها من كابوس وأشباح وظلال وظلام مرعب مرهب وبما فيما من ارهاب ودهشة مؤلمة . وباحتمال قوي فانّ وراء هذا الليل المهول سيستقبل الناس القادمين صبحٌ صادق لثقافة جديدة ، ثقافة جامعة ومعنوية »[٢] .

بعيد عن النظرة الواقعية جداً أن نقبل بكل تقاليد الآخرين وطقوسهم ونتّبعها بتقليد أعمى ، فالمقلد ما دام هو مقلداً يخضع لنير الحاجة إلى من يقلّده ، والإبداع منبع الإستقلالية كما أن التقليد يسبّب التطفل ويخرّب الإستقلال . نعم لو كان التقليد اقتباساً بحيث إذا أخذ شيئاً بإحدى يديه عرضه بيد أخرى بعد الإصلاح والترميم إلى عالم العلم والصناعة ، كان ذلك اقتباساً حسناً ممدوحاً .

لا شك أننا كلّما أُصبنا في أفكارنا وأخلاقنا بالإضطراب والقلق أو التأخر والتقهقر ، فذلك بعامل اختلاط الأفكار التقليدية والخامدة ، ويشتد هذا الخطر أكثر تبعاً لنسبة ابتعادنا عن الحالة الأخلاقية والتاريخية لأنفسنا .

---

(٢) بالفارسية : خداوند دو كعبه : ١٩ .

يقول أحد المفكرين الإسلاميين الكبار :

« نحن لا نقول ان علينا أن نختار العزلة الإجتماعية والفكرية ، وأن نجتنب مسيرة الحضارة التي تتقدم إلى الأمام لا محالة ، نحن أعضاء هذه القافلة وشركاء هذا الركب ، بل نحن المسلمين الذين قدّمنا رأسمال ضخم من الحضارة الإنسانية للمجتمع الإنساني ، وبأفعالنا الإيجابية ونشاطاتنا الكبرى تأسس هذا البناء العظيم . ولكننا ـ مع الأسف ـ لا نهتم اليوم بهذا الأمر ولا نحتفظ بفخر التقدم ولا نقدّر ذلك من أنفسنا . وانّما يتقيّم هذا التوفيق الذي توفّقنا نحن إليه فيما إذا خلصت قلوبنا وأفكارنا عن الشعور بالاستعمار والرّقيّة واستبدلت عنها أفكار الأحرار ! ولكنّ الويل من عادتنا على التكدّي المذلّ حيث نقف على أعتاب أولئك أيدينا على صدورنا كالعبيد ، ولا نردّ هذه العوارى إلى أصحابها . يا حبّذا لو كنّا نفعل ما هم يتبعونا فيه .

والمحضارة هنا معنيان :

أحدهما : أن لا نفتقد حظّ إسهامنا الممتاز في بناء الحضارة وأن نحتفظ بأسلوبناالثابت الذاتي الذي ينبع من أصول حياتنا ، علاوة على سائر التجارب الإنسانية في مصداقيات الحياة .

والمعني الثاني : أن نختار الظواهر الخلّابة التي قد أعدّها الآخرون لأنفسهم بما لها من مميّزات معينة ، من دون أن نفكّر بشأنها أو ندرسها أو أن ندخل فيها من حضارتنا شيئاً .

فالحضارة الأولى تعني حضارة منسجمة مع الأفكار الإنسانية . ولكن المعنى الثاني لها هي حضارة تليق بالقرود المقلّدة »[٣]

إن الروح المادية وإن كانت قد بلغت بين الأمم المتحضرة إلى حدّ الإفراط ، ولا هدف عملياً للفرد الأوروبي في حياته سوى أن يجعل حياته نفسها بمثابة الهدف النهائي ، ولكن ـ في نفس الوقت ـ هناك كثير من الناس متقيّدون بمعتقداتهم الدينية ، ولهم به ارتباط وعلاقة خاصة ، أعني نفس الدين المحرّف

(٣) بالفارسية : اسلام وديگران : ٤٢ .

المسيحيّ المختلط بأنواع الخرافات فلم يعد يقدر على قضاء حوائج الناس النفسية والمعنوية ، ومن العجيب أن هكذا دين يسود العالم المنحط وهو يشكّل الكادر الروحي والمعنوي للحضارة الغربية .

فأيام الأحد نرى جميع المؤسسات والحوانيت معطّلة ، وتصل إلى الآذان من كل مكان أصوات نواقيس الكنائس التي لها جرس خاص ، ويجتمع في الكنائس مختلف طبقات الناس فيصغون إلى كلام القسيس بكل متانة ، وتعرض من التلفاز برامج دينية خاصة على أنظار المشاهدين . والمتلزمون دينياً يتقيّدون بأن يذهبوا بوليدهم بعد الميلاد إلى الكنيسة ليتم مرسوم تسميته على يد القسس وليقرأ في أذنيه تراتيل دينية خاصة !!

ورجال الدين موضع إكرام الناس فيسمّونهم « الآباء الروحيين » ولتأمين الميزانية الثقيلة للمؤسسات الدينية تأخذ الدولة من الناس ضرائب ، والناس مأخوذون بدفعها إلى الدولة سواء شاؤوا أم أبوا ، والدولة تجعل ما تأخذ لذلك تحت تصرف الكنيسة ، وهكذا يُدار جهاز الروحانية المسيحية بميزانية كافية وتجهيزات تامة .

وتراقب المنشورات برعاية لجنة خاصة باسم « لجنة المنشورات » تلعب الكنيسة فيها الدور الأساس ، وتُبرمج البرامج الدراسية الإبتدائية والثانوية تحت نظارة رجال الكنيسة ، وطلّاب المدارس حتى السنة الدراسية التاسعة يُجبرون على الحضور في الكنيسة يوم الأحد ، وأن يشاركوا في الحضور في البرنامج المعدّ لهم والذي يُعدّ من دروسهم في التعاليم الدينية ، والعجيب أنّ على الأطفال الأبرياء الذين لم يرتكبوا ذنباً أن يذهبوا إلى المحل الخاص بالمذنبين فيعترفوا بالذنب أمام القسّيس !

والأفلام السينمائية تُراقب قبل النشر من قبل لجنة متشكّلة من رجال الكنيسة والأطباء وعلماء النفس وعلماء الإجتماع والإقتصاد ، فتلاحظ من جميع الجوانب الدينية والنفسية والإجتماعية والإقتصادية ، فإذا لم تُرد صدر الاذن بنشرها .

كان ـ مع الأسف ـ كاتب هذه السطور طريح فراش المرض في إحدى

المستشفيات الكاثوليكية في ألمانيا اضطراراً ، وكانوا يباشرون بمراقبتي الطبية والخدمات بصفتي عالم دين إسلامي ، وكان في كل غرفة من غرف المستشفى تمثال من السيد المسيح عليه السلام ونقوش عنه وعن أمّه السيدة مريم العذراء البتول عليها السلام ، وعصر كل يوم كانوا يدعون لشفاء المرضى بانتظام .

وفي بعض الأيام كنت أرى أنهم يوقدون شموعاً عند تمثال السيد المسيح عليه السلام . انظروا : يوقدون شموعاً عند التمثال في وضح النهار وذلك في مركز من مراكز العلم والمعرفة ! ثم قارنوا : لو أوقد رجل من عوام الناس شمعاً في ليل مظلم على مرقد إمام أو ابن إمام في بلادنا كيف يصبح عرضة لاستهزاء الشباب المثقف ! ويتهمونه بالرجعية والتأخر ؟ بينما أولئك يحترمون حتى عقائد الآخرين .

لا أنسى حينما كنت بحاجة إلى تزريق الدم ، سألني رئيس المستشفى : أيّ دم يجوّز الإسلام تزريقه في المسلم ؟ فهل يجوز للمسلمين أن يفيدوا من دم غير مسلم ؟ وعلى أي حال فإنّا سنحضر لكم الدم وفقاً لدستور الإسلام !

وفي المجتمعات المتقدمة يعترف الناس بحدود للحرية ، ولا يسيئون الإفادة من الأدوات الحضارية ، فالتلفزيون مثلاً يبث سلسلة من الدروس أو الألعاب الرياضية أو الأوضاع الطبيعية وأسلوب المعيشة من بلاد بعيدة نائية ، والخلاصة أن أكثر بثه مما يفيد من المعلومات العامة .

لا يحق لأحد عندهم أن يرفع صوت الراديو بحيث يزاحم الجار أو العابرين بحجّة الحرية الشخصية ، ولا يحق لصاحب أي بيت أن يعقد مجالس خاصة للسهرة حتى منتصف الليل فيجعل بذلك مجاوريه تحت الضغط والألم الروحي ، بل لا يُسمع صوت الراديو من أي ناحية من المدينة .

ولا زلت أتذكّر أنه وفي يوم من الأيام أخذ يرن في الفضاء قرب الفندق الذي كنت أُقيم به هناك صوت من راديو ، وكان لأول مرّة أسمع صوت الراديو في ذلك المحيط أو تلك البيئة ، وكان ذلك صوت موسيقى إيرانية ! وحيث كان الموضع لي جديداً تماماً كنت أنتظر كي أبحث عن ذلك في فرصة مناسبة فاطّلع على الأمر . واتّفق أن زارني أحد الإيرانيين الساكنين بتلك النقطة المجاورة بعد

ذلك بيوم ، فاغتنمت الفرصة وطارحته الموضوع ، فسكت المواطن العزيز لحظة ثم اعترف ـ ولا تعجبوا من ذلك ـ بتبسّم ممتزج بخجل أنه هو الذي فعل تلك البدعة يوم أمس !

حقاً من المؤسف أن الإفادة من هذه الأدوات والوسائل قد انحرفت عن مجاريها الصحيحة والأصولية وأصبحت بوضعية فاضحة(٤) فالجميع يعلمون أن المناظر التي تشاهد من التلفزيون كيف وكم تؤثر في الإنحطاط الخلقي للمجتمع وتترك آثاراً غير محمودة ، علينا أن نعترف أن النتيجة الوحيدة لمشاهدي هذه البرامج الخاطئة وغير الصحيحة إنّما هي الخسارة المعنوية والضياع والضلال فقط . وأصوات الراديوات أيضاً تسمع من كل زاوية وجانب ، فهي في كل لحظة تعذّب الأعصاب والروح الإنسانية .

إن المخترعين والمكتشفين لم يحدّدوا أي ضمان لكيفية الإفادة من أدواتهم ، بل لم يكن ذلك من الممكن لهم ، ولم يصدّق أولئك أن هذه الأدوات التي من الممكن أن يفاد منها إفادة صحيحة تستعمل يوماً في بلادنا مثلاً في سبيل إيذاء الناس واختلاق الآلام لهم .

إنّ جميع الظواهر الصناعية وكل الوسائل والأدوات العلمية داخلة تحت هذا الأمر ، وعليه فالذي ينبغي بل يجب أن يلاحظ بعناية هو كيفية الإفادة من هكذا وسائل ، وذلك يرتبط بنوع وكيفية تربية تلك الشخصية التي تتصرف في هذه الأدوات ، فان لكثيرٍ من الناس أسلوباً خاطئاً في التفكير بل كثير منهم بلا منطق ولا تفكير أو ظالمون فيه أصولاً ! ومن سوء الحظّ والتعاسة أن سلوكاً كهذا يسري إلى الأفراد الآخرين ممن لهم أمزجة مستعدة تماماً كالأمراض المسرية المُعدية ، ثم هم يتسابقون في الافادة الخاطئة من هذه الوسائل ، وكأنّ كلا منهم يريد أن يكون له الحظّ الأكثر والسهم الأوفر من هذه المسابقة في تعذيب الآخرين . أجل هذه هي كيفية الإفادة في مجتمعاتنا من تطور وسائل الحياة المادية . وعلينا أن نبحث عن أصول هكذا نماذج مؤسفة في إنعدام العلم

(٤) يلاحظ القارىء الكريم أن هذا الكلام إنما هو عن الواقع السيىء قبل انتصار الثورة الاسلامية في إيران.

والمعرفة الواقعية بينهم ، فهل بالإمكان أن نقول : لا دخل لجهل الناس في ايجاد هكذا وضعية ؟ أفليس عاراً على مسلم أن يبتعد إلى هذا الحدّ عن مراسيم الإنسانية وآدابها والأصول الأخلاقية فلا يعرف أي حدّ لحريته ؟! هذه هي نوعية خاصة من حبّ الذات المفرط واللاّحدّية يُعمل بها هنا باسم الحرية ! ولا نريد أن نقول بأن الحياة الأوروبية تخلو من هذه النقائص والنواقص ، على العكس من ذلك ، ففيها نقائص ونواقص كثيرة سنبحث بشأنها بتفصيل ، ولكنهم يراعون هذه الأمور على الأقل[٥] .

(٥) يلاحظ القارىء الكريم أن هذا الكلام إنما هو عن الواقع السيىء قبل انتصار الثورة الاسلامية في إيران.

عَوَامِلُ انْتِشَارِ المَسِيحِيَّة

ليس للمذاهب والأديان الموجودة في العالم في هذا العصر الحاضر أعم من كونها سماوية أم لا أيّ نموّ أو تقدم ، لما حدث فيها من تحريفات ونواقص مختلفة ، بل هي تتقدم يوماً بعد يوم نحو الإنحطاط والسقوط ! نعم للمسيحية بين الأديان محاولات ومساعي في كل العالم ملفتة للنظر ، ويقابلها الإسلام ، بحيث أصبح في العصر الحاضر الإسلام والمسيحية يتقابلان في جميع العالم .

وتقدم المسيحية ليس وليد عامل خاص ، بل هناك عوامل عديدة تعاضدت فأوجدت للمسيحية موقعية حسّاسة . إن سعة دائرة التبليغ والدعاية عامل قوي لتقدم أيّ دين بحيث يصبح بالإمكان أن تسيطر تلك الدعايات على أفكار المجتمع فتجرّها إلى هدف شاخص ، فالإنسان يتأثّر بالتلقين طبعاً ويؤثر التبليغ في روحيته وحياته أثراً عميقاً .

وعلى أثر النهضة العلمية والإجتماعية الأوروبية « رونسانس » في هذه القرون الأخيرة ، التفت رجال المسيحية إلى هذا الأمر بصفته أمراً حيوياً ، فبادروا إلى تبليغ ممتد وواسع ، وهم بالإفادة من عناصرهم المنتظمة يسعون بكل قواهم إلى أن ينشروا دينهم في جميع نقاط العالم .

فمن ناحية شملت مساعيهم الشاملة وأمواج دعاياتهم الدينية جميع الأمم المتحضرة ، ومن ناحية أُخرى : فان اتّجاه الناس المفرط إلى الماديات قد حدّد

من نفاذ أفكارهم وسلبهم قوة الغور والتحقيق في الأمور المعنوية ، فان الظواهر الخلّابة للماديات قد غطّت كالستائر القاتمة السوداء على أفكار الناس فلم تدع لهم مجالاً للبحث عن الحقيقة ، وليستطلعوا ويفحصوا عن الدين والأمور الروحية . ومن ناحية ثالثة : فان نشاطنا التبليغي محدود جداً ، ونحن فاقدون لما هو ضروري من وسائل وأدوات التبليغ والدعاية ، فمع وضعنا القائم هذا لا نستطيع أن نعرض الإسلام وتعاليمه المقدّسة وصورته المشرقة إلى العالم المتقدم اليوم ، ولا نتمكن من أن نبيّن ما فيه من مميزات وخصائص .

منذ قرون لم يقم المسلمون بمساعي مهمة لنشر الإسلام ، والنهضة التي حدثت في القرون الأولى توقّفت تدريجيّاً على أثر عدم صلاحية عدد من الزعماء ومُدراء الأمور في الحكومات الإسلامية ، حتى حدث انشقاق عظيم في الجبهة الإسلامية الواحدة ، فافتقدت الدول الإسلامية لنفوذها العالمي بسبب الهزائم السياسية التي مُنيت بها ، بل تقطّعت إلى قطع متناثرة تحت مخالب الإستعمار الغربي قطعة قطعة !

نِظامُ قِيَادَةِ الكَنَائِس وَ مَا فِيها مِن فَجائِعْ !

حيث لم يكن للمسيحية أُصول وقوانين وأُسلوب خاص لإدارة الأمور الإجتماعية وكانت من هذه الجهة مصابة بالفقر والحرمان لذلك كان النظام الروحاني المسيحي لا يتدخل في الأمور الإجتماعية والسياسية والحكومية .

دام هذا الوضع حتى القرن السادس الميلادي . ولكن منذ سنة ٧٥٦ ميلادية حيث اقطع ملك فرنسا قسماً من الأراضي تحت تصرفه إلى البابا ، بدأ عهد السلطان والجلال المادّي للروحانية المسيحية ، وقوي جهازهم الدينيّ مالياً واقتصادياً ، وبرزت مصادمات بين رجال السياسة والقادة الدينيين من أجل بسط النفوذ سواء شاؤوا أم أبوا ، واشتدت الحروب بين البابوات والأمبراطور على الحكومة المطلقة على أوروبا .

والناس كانوا يرون الكنيسة مظهر روحانية المسيح ولذلك أصبحوا من هواة رجالها وأنصارها ، وكذلك زادت قدرة الكنيسة ونفوذها يوماً فيوماً حتى بلغ بها الأمر أن أثبتت حكومتها على أوروبا بلا منازع .

كان يحكم كل مدينة من المدن المسيحية أحد « الأساقفة » حتى قبل بروز الخلافات الدينية المذهبية الواسعة والممتدة بينهم ، ومن عدة مدن تتشكل ولاية كان رعايتها بعهدة خليفة البابا ، ويتعهد البابا بالرئاسة العظمى للنصرانية ، فكان يتدخّل في كل الأمور الدينية ونصب الخلفاء والأساقفة وعزلهم . إلى أن

فكّر خلفاء قسطنطينية في أن يخرجوا من تحت نفوذ البابا ويؤسّسوا لأنفسهم حوزة حكومة مستقلة ومنفصلة .

وبعد عدة حروب شديدة بين البابا وخلفاء قسطنطينية تحقق الفصل الكامل في سنة ١٠٥٢ ميلادية ، فانقسمت المسيحية إلى قسمين : تبعت أوروبا الشرقية خلفاء قسطنطينية وسمّوا أنفسهم بأرثوذوكس ، وبقيت أوروبا الغربية من بولندا إلى إسبانيا في طاعة البابا وسمّوا أنفسهم بالكاثوليك ، وكان هذان المذهبان يكفّر أحدهما الآخر لما بينهما من أساليب متباينة .

ومن أوائل القرن السادس عشر الميلادي قام « لوثر » ومتابعوه ونشروا لواء الإعتراض بشأن بيع الجنة وصكوك الغفران ، ويريدون تصفية الكنيسة ونفي المفاسد والمعايب عنها . ولاقى إقدام « لوثر » بالغاء أصول القُسس وضد البابا في أوروبا أنصاراً كثيرين ، ونتيجةً لهذه التطورات فقد انقسم دين السيد المسيح عليه السلام إلى ثلاثة أقسام متباينة ، كان المذهب الثالث باسم « البروتستانت » .

وقبل القرن السادس عشر وبالذات في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين زادت البدع بين المسيحيين الكاثوليك في أوروبا ، وأحدث تقدم وانتشار العقائد التي كانت مردودة بنظر البابا تشويشاً واضطراباً للبابا والآباء الكاثوليك ، وللمنع عن تقدم وانتشار هذه العقائد صدر عن البابا في سنة ١٢١٥م مرسوم ، تشكّلت بموجبه دائرة باسم « انگيزسيون = محكمة تفتيش العقائد » في كل مدن الممالك الفرنسية : إيطاليا وإسبانيا والألمان وبولندا ، وسائر الدول المسيحية ، كان يدعى إليها المتهمون منهم بالبدعة فيحاكمون ويعاقبون .

كانت هذه الدائرة الملعونة بمالها من قدرة شيطانية تمنع عن أي تفكير متحرّر ، وأحدثت اختناقاً غريباً للأفكار العامة بحيث لو كان يتهم أحد بأنّ له نظرات وعقائد تخالف نظرات وعقائد الكنيسة ، كان يُجرى بشأنه أنواع التعذيب الجهنّمي ، بل قد كان يُتهم بعض الأموات بعد موتهم بالكفر والإلحاد فكانوا يحاكمون صناديق عظامهم بتشريفات خاصة يشرح « ويل دورانت » خصائص

محاكم التفتيش فيقول :

« كان لمحكمة تفتيش العقائد نظام خاص للمحاكمة : فقبل أن يتشكّل ديوان المحاكمات في أيّة مدينة كانوا يبلّغون الناس « مرسوم الإيمان » من على منابر الكنائس ، فكانوا يريدون منهم : أن من كان له علم بملحد لا دين له أو مبتدع في الدين فليبلّغ ذلك إلى سمع محكمة التفتيش ، فكانوا في الواقع يرغّبونهم في النميمة واتهام الجيران والأصدقاء والأقرباء . وكانوا يعدون السُعاة والوشاة بالسرّية التامة والحماية منهم . أما من كان يعرف ملحداً ولا يُفشي سرّه أو كان يأويه ويتستر عليه كان يُبتلى بالتكفير واللعن !

وقد كان الأموات أحياناً يتّهمون بالكفر والإلحاد فكانوا يحاكمونهم بتشريفات خاصة ، فيصادرون أموالهم ويحرمونها عن ورّاثهم ، والذين يخبرون عن إلحاد الأموات كانوا يعطونهم من ثلاثين إلى خمسين بالمئة من أموال الأموات !

وكانت طرائق التعذيب تختلف من مكان إلى مكان وزمان إلى زمان ، فكانوا أحياناً يشدّون أيدي المتهم بالحبال إلى خلف ظهره ثم يشنقونه بها ، وأحياناً يشدّونه بحيث لا يقدر على الحركة ثم يقطّرون في فمه ماءً حتى يختنق ، وأحياناً يشدّون عضديه وساقيه بحبال ثم يحكّمونها أو يشدونها بحيث تنبت في لحمه وتدخل فتصل إلى عظامه »[1] .

وفي سنة ١١٤٠م كفّر البابا « أنيوسان » الثاني ملك فرنسا : لويس السابع .

وفي سنة ١٢٠٥م وقع خلاف بين « ژان » ملك بريطانيا والبابا « أنيوسان » الثالث ، حيث هاجم « ژان » على « الأساقفة » فأصدر البابا حكم تكفيره ، فلم يمض شيء حتى اضطّر ژان أن يصدر مرسوماً يقول فيه : « أخبرنا الهاتف الغيبي أن نمد يد الحاجة والتضرّع من دولة بريطانيا وإيرلندا إلى عيسى

---

(١) نقلا عن الترجمة الفارسية لتاريخ التمدّن من ويل دورانت ، ١٨ : ١٥٣ .

والحواريين وأولياء النعمة علينا البابا اينوسان وخلفائه الكاثوليك ، فنحن منذ الآن نمتلك هذه الممالك المذكورة من جانب البابا والمقام الروحاني وبصفتنا نائبين عنهم في السلطة .

وقد تقرّر رأينا أن تأخذ منّا روحانية الرّوم كل سنة بقسطين ألف ليرة إنجليزية من فضة . ولو خالفنا نحن أو احد أعقابنا مدلول هذا الكتاب كنّا محرومين عن حق السلطان على هذه الممالك »[٢] .

وكتب مارسل كاش يقول : « في هذا العهد شنقوا خمسة ملايين شخصاً بجرم التفكير بخلاف حكم البابا ، أو أودعوهم سجوناً مظلمة مرطوبة حتى الموت . ومن سنة ١٤٨١ حتى سنة ١٤٩٩م أي في ثماني عشرة سنة أحرقوا بحكم « محكمة التفتيش » ألفاً وعشرين شخصاً حيّاً ، وشقوا نصفين ٦٨٦٠ شخصاً ، وعذّبوا ٩٧٠٢٣ شخصاً حتى الموت »[٣] .

« وفي القرون الوسطى وبحكم محكمة تفتيش العقائد ومن العلماء والمفكّرين فقط أحرقوا ثلاثمائة وخمسين ألفاً أحياءً »[٤] .

« فيكتور هوگو » الكاتب والشاعر الفرنسي يسخر من أرباب الكنائس ومحاكم تفتيش العقائد فيقول :

« ليست حياة الكنيسة من تاريخ التقدم الإنساني بل ان حياتها خلف صفحات التاريخ ، فهي التي جرحت « برنيلي » بضربات السياط لقوله بأن النجوم لا تقع من مواقعها ! وهي التي حكمت على « كاميلاند » بالسجن مع الأعمال الشاقة سبعاً وعشرين مرّة ، لقوله : بأن هناك غير عالمنا هذا عوالم عديدة لا تُعد ، ولإشارته إلى الهدف من الخلقة في كلماته . وهي التي عذّبت « هاروى » لانه أثبت أن في عروق البدن مادةً سيّالةً باسم الدم تجري فيها ، وليس في العروق دم ساكن لا حركة له . وهي التي سجنت « كريستوف

(٢) بالفارسية : تاريخ تحولات اجتماعى ٢ : ٣٤١ .
(٣) بالفارسية : تاريخ تحولات اجتماعى ٢ : ١٤٣ .
(٤) دائرة معارف القرن العشرين ٦ : ٥٩٨ .

كلمب » لاكتشافه أرضاً لم تتنبأ بها التوراة والإنجيل ، فان اكتشاف أرض غير متنبأ بها في كتب العهدين كان يُعد عداءً لدين الكنيسة . وهي التي كفّرت « پاسكال » باسم الأصول الدينية « ومونتي » باسم الأصول الأخلاقية « ومولر » باسم الأصول الدينية والأخلاقية »(٥) .

وقد أفادت الكنيسة من قدرتها ونفوذها ضدّ المسلمين فأحدثت مذبحة موحشة بحجة إنقاذ بيت المقدس من يد المسلمين ، وهي الحروب التي تسمّى بالحروب الصليبية والتي بدأت من سنة ١٠٩٥ وبعد ثمانية حروب انتهت في سنة ١٢٧٠م .

وكان العامل الأصلي في هذه الحروب حقد البابا والقُسس معه وتعصّباتهم العمياء ، وبأنواع الحيل والخداع أثاروا شعوب أوروبا ضد المسلمين .

وقبل بدء الحرب أقام البابا « اوربون الثاني » مؤتمراً من القُسس والقادة الدينيين المسيحيين ، وفي ذلك المؤتمر اتُخذ القرار النهائي للحرب مع المسلمين ، وأمر البابا كل الأساقفة والقسس بأن يسيّروا الناس للحرب ضدّ المسلمين ، وكان هو بنفسه أيضاً يحرّض الناس على الحرب في فرنسا .

وتحرّك أول جيش عظيم قوامه مليون شخصاً لإنقاذ بيت المقدس من المسلمين ! وكان هذا السيل البشري العظيم وكأنّ كل أوروبا قد تحرّكت نحو آسيا ينهب كل من لقيه في طريقه من غير النصارى ، ويحرق ، ويغرق ، ويمثّل بالقتلى ، ويقتل المقاتلين وغير المقاتلين وحتى النساء والصبيان . ودخلوا بيت المقدس بعد ثلاث سنين سنة ١٠٩٩م في حين لم يبق من ذلك الجيش العظيم سوى عشرين ألفاً . وهكذا استولى النصارى على بيت المقدس في هذه الحروب بعد قتل أكثر من مليون شخصاً بالحروب الداخلية والأمراض والطاعون والمقاتلات الشديدة مع القبائل المسلمة وغير المسلمة في الطريق .

ومن أجل أن يتعرّف القرّاء الكرام جيداً على وحشية هذا الجيش الديني

(٥) بالفارسية : تاريخ آزادى فكرى : ١٤٧ .

نتقل هنا لكم كلمات « غوستاف لوبون » المؤرّخ الفرنسي الشهير ، فقد كتب هذا يقول : « انّ قبائح أعمال المجاهدين الصليبيين وسلوكهم في كل هذه الحالات ، قد جعلتهم حقاً في عِداد أفتك وحوش الأرض وأشدهم حمقاً ، فقد كان سلوكهم على وتيرة واحدة تماماً مع المعاهدين معهم وأعدائهم والرعايا الأبرياء والمقاتلين والنساء والأطفال والشيوخ والشباب ! أي كانوا ينهبونهم جميعاً ويقتلونهم بلا أيّ تفريق » .

ثم ينقل عن الراهب « روبرت » الذي كان حاضراً بشخصه في هذه الوقائع يقول : « إن جيشنا كان يتحرك في الطرق والميادين والسطوح ، وكان كاللبوة إذا قُتل شبلها يلتذّ من المجازر العامة ، كان يمزّق الأطفال قطعة قطعة ، ويقتل الشيخ والشاب في صف واحد ، ويشنق عدة أفراد بحبل واحد لا لشيء إلاّ للتسريع في العمل . كان جيشنا ينهب كل ما يجد في طريقه ، ويشقّ بطون الموتى ليستخرجوا من بطونهم النقود والمجوهرات . وذات مرّة أحضر أحد أمراء العسكر « بو آمون» كل من اجتمع في القصر (؟) فقتل النساء والرجال الشيوخ والعجزة والعملة الأبرياء ، وبعث بالشباب للبيع بأنطاكية »[٦] .

وكتب قائد هذا الجيش الدموي « جود فرو آدوبويون » في تقرير له إلى البابا : « إذا أردتم أن تعلموا ماذا عملنا بالأعداء (المسلمين) الذين وقعوا بأيدينا في بيت المقدس فيكفيكم أن تعلموا أن أفرادنا كانوا يحملون عليهم في معبد سليمان ورواقه في لجّة من الدماء ، وكان الدم يبلغ ركبة الفرس »[٧] .

هذه نماذج من سلسلة من الفجائع التي ارتكبها المسيحيون بالنسبة إلى المفكرين والعلماء الأوروبيين في القرون الوسطى وكذلك بالنسبة إلى المسلمين في الحروب الصليبية .

وبالتالي فقد فجّر هذا الضغط والتعذيب في محاكم التفتيش في الدول الأوروبية العلماء والمفكرين ، فبدأوا بثورة ممتدة ضد الكنيسة للنجاة من هذا

---

(٦) بالفارسية : تاريخ تمدن اسلام وعرب : ٤٠٧ .

(٧) بالفارسية : تاريخ البر ماله ٣ : ٢٢٦ .

الاختناق والظلم الموحش .

وتدريجياً بلغ النضال بين العلماء وأرباب الكنيسة إلى أوج شدته ، وكانت العلوم الطبيعية ـ مع كل الاختناق الفكري وتفتيش العقائد والأفكار الذي أحدثه رجال الدين للمفكّرين ـ تتقدم يوماً فيوماً ، وبالتالي فقد اضطرّ أرباب الكنيسة إلى التأخّر والتقهقر عن مواقعهم ، وخلا الجوّ للأحرار والعلماء وهواة العلوم والمعارف .

وسبّب هذا الضغط وتلك الجرائم المخجلة لرجال الدين في أن يبرأ جمع من العلماء من الأديان بصورة عامة ، وأن يتوهّموا أن الدين يدافع عن الجهل والأوهام وأنه يحارب العلم ويكافح المعرفة !

وبالتالي ـ ومهما كان ـ فقد أوردت تلك الفجائع المخجلة والسلوك الوحشيّ لمحاكم التفتيش ، أوردت ضربة مهولة على هيكل الأديان السماوية ، وأحدثت شعوراً سيئاً ومنافرة في الأفراد الجاهلين بحقائق الدين بالنسبة إلى كل الأديان .

وكذلك فان سلوك الكنيسة مع الناس التُعساء البؤساء والمحرومين ، من أجل الحصول عى الثروة والقدرة ، أحدث ردّ فعل عنيف في روسيا ضدّ الدين ، وساعد كثيراً لإنتصار الحركة الماركسية هناك ، وسبب في أن يبدأ قادة الشيوعية كفاحاً ممتداً وطويلاً ضدّ الدين ، وأن يصفوا الدين بأنه مستمسك للمستثمر لاستثمار الطبقة العاملة .

كتب منهم « فرد أُوف » بهذا الصدد يقول : « إن الكنيسة في روسيا القيصريّة كانت تمتلك أموالاً منقولة وغير منقولة لا تعد ولا تحصى ، كانت أملاكها الخصوصية تصل إلى ملايين الهكتارات وودائعها في البنوك تصل إلى مئات الملايين من الروبل الذهبي ، وكانت الكنيسة والمعابد تنتفع من المراتع الواسعة والغابات ، وكان لها أرباح طائلة من صيد الأسماك والتجارة والصناعة وغيرها .

وكانت الكنيسة ـ وهي أكبر الرأسماليين وأكبر المالكين للأراضي وأكبر

أصحاب البنوك في روسيا - تستثمر الفلاحين وتستغلهم بلا رحمة ، وكانت تعاقب على كل الإقدامات العمالية التي كانوا يقومون بها لإصلاح أوضاع العمل لديهم ، وهكذا ولّدت حقداً حقاً في العمال والفلاحين ضد رجال الدين والذين كانوا يسمّونهم « أنصار الرقيّة في زيّ القسس »[٨] .

هذه هي المسيحية التي كانت في يوم من الأيام الحامي المدافع عن الآداب والسنن البالية ومظهراً من مظاهر الرجعية ، ومع كل سوابقها التاريخية المشرقة ! هي اليوم تستفيد من كل الإمكانات العلمية والحضارية من أجل تحكيم قواعدها .

نحن غافلون أو نتغافل أن هناك للكنيسة الكاثوليكية أربعة آلاف بهيئة تبشير ! تنتشر في مختلف النقاط ، وتبذل هذه الجمعيات التبشيرية مساعيها ومحاولاتها الدعائية لنشر المسيحية حتى في النقاط المجهولة من الكونغو والتّبت والمناطق التي يقطنها الوحوش في أفريقيا ، بما لديها من مؤونة كافية . وإن ميزانية كنيسة بريطانيا في السنة مبلغ يعادل تسعمائة مليون توماناً !! ولو قارنّا هذا الرقم فقط مع كل ما نصرف نحن من المبالغ على التبليغ لاستولى علينا الأسف الشديد .

انّهم ترجموا أناجيلهم إلى أكثر من ألف لغة ، وفي سنة ١٩٣٧م فقط نشرت ثلاثة من دور نشرهم فقط ما يقرب من أربع وعشرين مليون نسخة من الإنجيل في أمريكا فقط !

وللفاتيكان جريدة باسم « اوسر فاتوري رومانو » تنتشر في اليوم بتعداد ثلاثمائة ألف نسخة يومياً بالإضافة إلى ما يقرب من خمسين نشرية ومجلة شهرية تطبع وتنشر شهرياً في عدة ملايين نسخة وقد أسسوا لحد الآن (قبل عشرين عاماً تقريباً) ٣٢ ألف مدرسة ابتدائية وثانوية وجامعة ومستشفى . ولهم في العالم أربع دور إذاعية قوية خاصة بالتبشير المسيحي أحدها في مركز الفاتيكان وأخيراً افتتح الرابع في أديس أبابا . فهم يبشّرون بثلاثة طرق رئيسية : ترجمة

---

(٨) بالفارسية : مذهب در اتحاد جماهير شوروى : ٧ .

الأناجيل ونشرها ، بناء الكنائس ، وإرسال الجمعيّات التبشيرية إلى مختلف النقاط في العالم .

وكتبت جريدة « رودرز دايجست » تقول : « إن تجديد النشاط بشأن دفع الزكاة « العشر » التي هي من السنن الكنائسية القديمة ، أوجد تطوراً في إحياء الكنيسة البروتستانية الأمريكية روحيّاً وماديّاً .

بدأوا منذ سنة ١٩٥٠م فيما لا يقل عن عشرة حوزات دينية بهذا الأمر وتوصّلوا منه إلى نتائج عجيبة ، فقد بلغت النشاطات والفعاليات في كثير من الجمعيات التبشيرية إلى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه ، فقد بنيت بها مئات المباني للكنيسة وحصل بها الدعم المادي للهيئات التبشيرية المهاجرة في داخل البلاد وخارجها ، والأهم من كل ذلك أن أفراد الجمعيات المسيحية أيضاً أدركوا أن العمل بهذه السنة القديمة كم له من الآثار الدنيوية والأجر الأخروي » !

إنّ الجهاز الديني المسيحي لا يخاف اليهود ولا الهنود ولا البوذيين ، إذ يعلم أن هذه الأديان بسبب ارتباطها بأقوام معيّنة لا تقدر على النفوذ إلى خارج محيطها . وإنّما هم يشعرون بالخطر من ناحية الإسلام الذي عرف الصديق والعدوّ أن أسلوب تفكيره وآيديولوجيته حيّ وكفوء . حتى قال البابا الأعظم في كلمته الافتتاحية لمجلس الأساقفة في الفاتيكان : « ان الخطر الذي يهدد المسيحية والغرب في أفريقيا من ناحية الإسلام أكثر من خطر الشيوعية للغرب في أفريقيا »[٩] .

ومع أن تبليغات المسلمين لا تتجاوز الصفر في الخارج أي في الدول

---

(٩) إن المجلس المذكور يعقد تقريباً في كل قرن مرة من رجال المسيحية قسمها في قارات العالم الخمس ، والغرض من عقد هذا المؤتمر حلّ مشاكل عالم المسيحية . وقد اجتمع أخيراً في هذا المجلس سبعة آلاف رجل من القادة الدينيين الكنائسيين في العالم ، في الفاتيكان مقر سلطة البابا وتباحثوا حول المشاكل التي تواجهها الكنيسة . عقد هذا المؤتمر في خلال سنة في ثلاث دورات كل دورة في مدة شهرين ! وقد أعلنت المصادر الرسمية للكنيسة الفاتيكانية أن ميزانية هذا المؤتمر ما يقرب من ستمائة وخمسين مليون ليرة إيطالية !!

الأجنبية ، فان الإسلام بما فيه من معارف واسعة وبما له من قدرة حركية هي من امتيـازات الإسلام ، يتقـدم في بعض نقاط العـالم وخصوصـاً أفريقيـا ، إذ أن الإسلام خير ملجأ للسود المظلوسين ولا تتغاضى الكنيسة عن هذا الخطر عليها .

وقد نشرت مؤسّستان بلجيكيّتان تحقيقاً تقول فيه : « في بدايـة العشرين الميلادي كان في ناحية من الكـونغو أربعـة آلاف مسلم فقط ، وقد بلغ اليـوم عددهم في كل من : « مانية » و« كيوو » و« استانلي ويـل » إلى مائتين وست وثلاثين ألف شخص » !

مجلة « پـرو » الپاريسية كتبت نقـلاً عن قـول « مـارسـل كـاردر » أحـد الأوروبيين المتخصّصين بدراسة الإسـلام في أفريقيـا ، تقول : « إنّ الإسـلام الذي كان في أفـريقيا سـابقاً دين الأمـراء وأبناء الملوك أصبـح اليوم دين عـامة الناس ، الذين يتحرّكون دائماً يبحثون عن حياة أفضل وأهدأ وأهنأ . والذي لا ريب فيه هو أن الإسلام يطّرد سريعاً من أفريقيا الشمالية إلى طرف جنوب أفريقيا بسـرعـة واستمـرار ، وإن الاحصـائيـات والـوقـائـع التي لا تنكـر تؤيـد هـــذا الموضوع » .

ومجلة « ريبودو پاريس » بعد أن ذكرت احصائية عن المسلمين والـوثنيين والمسيحيين في أفريقيا وأبدت تفوّق عدد المسلمين ، كتبت تقول : « علينا أن نحسب نصف السود الأفريقيين مسلمين بصورة عامة ، فالإسلام يتقدّم بسـرعة عجيبة ، حتى أنه يُسلم في كل عام خمسمـائة ألف شخص حسب المعـدّل . وليس هذا امتداداً لنفـوذ الإسلام من قـديم ، بل إن ازديـاد هذه الأرقـام يرتبط بأوضاع العصر الحاضر منذ بداية القرن الأخير .

وفي سنة ١٩٥٠م افتتح أربعة من خرّيجي الأزهر مدرسة إسلامية بمدينة « مـاباكـو » وكان لهـا تقدم سـريع ولكن الحكـومة الفـرنسية أغلقت المـدرسة سريعاً » .

وكتـب الدكتور « واكيسا واگليري » أُستاذ جامعـة ناپـل يقول : « مـا هي العلة في أنه مع وجود الحريات الكثيرة المسموحة في البلاد الإسلامية للأقليات غير المسلمين ، ومع أنه لا وجود في العهد الحاضر بالمعنى الواقعي لأيّ نظام

تبليغي للإسلام ، ومع ما هو محسوس من آثار وعلائم ضعف الـدين وانكساره في السنين الأخيرة . . . مع ذلك نرى الإسلام يتقدّم في آسيا وأفريقيـا بصورة مستمرة لا تنقطع ؟ لا نقدر أن نقول اليوم بأن سيوف الفاتحين تفتح الطريق لنشر الإسلام ، بل الأمر بالعكس ، ففي مناطق كانت تحكمها يوماً حكومات إسلامية تحكمها اليوم دول جديدة من سائر الأديان (كاليهودية في فلسطين والمسيحية في لبنان وغيرها) ولهم أجهزة تبشيرية قوية بين المسلمين وهي نشيطة لعدة سنين ، ومع ذلك لم يقدروا على فصل الإسلام عن حياة الناس : فما هي القوة المعجزة المودعة في هذا الـدين ؟! وأيّ قوة ذاتيـة من الاقناع ممتـزجة بهـذا الـدين ؟ وما هي تلك الأعمـاق والزوايـا في روح البشر التي تستقبـل الإسلام بهكذا حرارة وحرقة وتلبّي هذه الدعوة بجواب : لبّيك ؟! » .

والمسيحيون يعملون كل عمل لتضليل المسلمين . كتب الأستاذ محمّد قطب يقول : « كان لإحدى الشركات البحـرية الإنجليـزية في جنـوب أفريقيـا مؤسسـة وإدارة ، وكـان يعمـل في سفن هـذه الشـركـة عـدد من المسلمين الأفريقيين ، ولكن الشركـة حيث كانت مسيحيـة لم تتحمل أن تـرى عدداً من عمّالها مسلمين ، ولتضليلهم عملت شيئاً عجيباً ، هو أنها أصبحت تـدفع لهم بدل شطر من أجورهم قناني من المشـروبات الكحـولية ، وحيث يحـرم شرب الكحـول في الإسلام وكـذلك لا يجـوز شراؤهـا وبيعها ، لـذلك كـان العمال المسلمون يخسرون شطراً مهماً من أجورهم هدراً إذ كانوا يكسرون تلك القناني الكحـولية . وأدرك أحـد الحقوقيين المسلمين وضـع أولئك العمـال المسلمين فأوصاهم أن يمتنعوا من استلام تلك القناني الكحولية كقسط من أجورهم مما لا نـظير لـه في العـالم وإذا لم تصـغ الشـركـة لشكـواهم يـرفعـوا شكـواهم إلى المحاكم .

ولكن هل تعلمون ماذا كانت النتائج ؟ بمحض ما علمت الشركة بذلـك أخرجتهم جميعاً » .

أجل ، هذا هو مفهوم الإنسانية !

والآن توجد آفاق واسعة لمساعي المبلّغين المسلمين في أفريقيـا ، ولو

عملت أجهزة التبليغ الإسلامي سريعة وجادة لتقبّل الإسلام جماهير واسعة في أفريقيا بكل رحابة صدر . فأن أفريقيا تبحث عن دين يوفّق بين الجوانب المادية والمعنوية ، ويقرّر المساواة والمواساة في محيط المجتمع ، ويدعو الناس إلى السلام والوئام واقعاً وحقيقة . ولا شك أن المسيحية الحاضرة لا تقدر على أن تؤمّن هذه المطاليب اليوم ، بل هي فقيرة من هذه الناحية جداً ، بل الكنيسة هي من عوامل الإختلاف والتفرقة والتمييز ، ففي أفريقيا لا تسمح الكنيسة بعدُ أن يتعبّد الأسود والأبيض في معبد واحد ! وبصورة عامة فان سلوك المسيحيين مع السود ليس سلوكاً إنسانياً .

كتب « لومومبا » القائد الأسبق للكونغو في إحدى جرائد پاريس يقول : « لم أفهم قطّ أنهم لماذا كانوا يعلّموننا في المدارس أن علينا أن نحترم أُصول الديانة المسيحية في حين أن الأوروبيين في خارج المدرسة كانوا يرتكبون كل جريمة ويسحقون كل أُصول الحضارة والإنسانية . إن التعاليم التي كانوا يعلّموننا إيّاها في المدارس كانت في تناقض بارز مع ما كان يعامل به الأوروپيون السود » .

ليست المسيحية قلقة من تقدّم الإسلام في القارة الأفريقية فقط بل المبشّرون المسيحيون في أمريكا أيضاً متألّمون لمشاهدتهم أن المسيحيين الأمريكيين السود يُسلمون . فهم يفيدون من كل وسيلة لتبديد تجمّعاتهم ، فقلّما تجد جريدة أمريكية لا تنشر دعايات ضدّ السود ، وحتى أن بعض أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي طلبوا من رئيس الجمهورية الأمر بانحلال المؤسسات للسود المسلمين والإعلان عن أنها غير قانونية .

ولكن على الرغم من كل المساعي التي تُبذل للمنع من أعمال السود المسلمين لا زال يلتحق بهم عدد أكثر وبذلك تتأيد تجمّعاتهم وتتنشّط فعّاليّاتهم ، فاليوم يوجد لمنظّمتهم سبعون فرعاً في سبع وعشرين ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك لهم في شيكاغو وديترويت مركزان ثقافيان إسلاميان ، وقد بنوا مراكز ومساجد متعددة وينشرون جريدة باسم « كلمات محمّد (ص) » وفي بعض المدن الأمريكية حينما يخرجون في مسيرة يحملون

معهم شعائر دينية فترى في مقدّمة الجماعة لافتة كُتب عليها : لا إله إلّا الله ، محمّد رسول الله » .

إن المسلمين السود يعملون بتكاليفهم الدينية بكل اشتياق ، فنساؤهم ملتزمات بالحجاب الإسلامي ، وفي شراء اللحوم وسائر المعاملات يحاولون أن يشتروا من الملحمات المُعلّمات بعلامة الهلال والنجمة ، وهم مشتاقون كثيراً لتعلّم اللغة العربية ويوصون أبناءهم أن يتعلّموا لغة القرآن في المدارس والكليات . ولا يتواجد بينهم قتل أو سرقات أو انحراف ، ويعترف أعداؤهم أن حياة المسلمين الجُدد تتغيّر في ظل الإسلام بحيث يتركون عاداتهم القبيحة وتلوّثاتهم السابقة .

إن المبشّرين المسيحيين المشتغلين بالتبشير في أفريقيا لا يريدون أن يتقدّموا بالسود ويربوهم كأنفسهم ، بل هم يريدون أن يربّوا أناساً يستسلمون للكنيسة وللدولة التي أتى هؤلاء منها ، وهذه حقيقة بيّنها الأستاذ « وسترمان » إذ كتب يقول :

« حينما يسلم الأسود يصبح عضواً في المجتمع المسلم ويجد ثقة بنفسه ويدرك موقعه بأنه عضو في عالم الإسلام ، ولا يرتبط مع الأوروبيين إلّا بحدود معينة ، فالأسود الذي كان قبل هذا يعيش في التراب والأرض بكل احتقار يجد بإسلامه مقاماً يحترمه به حتى الأوروبيين .

حينما ينتقل الأسود الوثني إلى المسيحية يجد وضعه يختلف عن وضع المسلمين السود ، إذ أنّ أوضاعنا نحن (المسيحيين) مبنية على أساس الإنفصال عن هؤلاء السود ، فحينما يواجهون حضارتنا لا يدركونها ولا يفهمونها ، نحن لم نعلّم السود بعد وهم لم يدركوا بعد أنّ لهم خصائص ممتازة ، ذلك أننا لم نَر أنفسنا مكلّفين بأن نولي حضارة السود عناية أو رعاية ، فنتقدم بهم أيضاً معنا ونوفّق بين أوضاعهم وبين حضارتنا ، بل نحن حينما نريد أن نصوّر الأسود نصوره لأوروبا بأوضاع غير محدودة فلا نراه إلّا أوروبياً قبيح الصورة والملاح . بينما يعرفه الإسلام أنه أسود أفريقي محترم في نفسه وبين الآخرين . وعلى فرض أن أسوداً أوروبياً لا نرى له ما وهبه الإسلام من المساواة

الإجتماعية أبداً .

هنـاك عدد من الأوروبيين لا يستـطيعون أن يغضّـوا النـظر عن الحقيقـة التالية : السود المسيحيون في نظر هؤلاء السادة من حيث القيمة الفردية بحيث لا فرق بينهم وبين ذلك الأسود الوثني والذي لا دين له ويعيش في التراب وعلى الأرض .

هؤلاء هم الـذين ينتهزون الفـرص لاظهار تفـوّق السـود المسلمين على السـود المسيحيين . ولهـذا نـرى أن الأفـريقيين الـذين تلقّـوا أخيـراً التعـاليم المسيحية أصبحوا يبلّغون للإسلام ! ذلك أن السود الأفريقيين لا أمـل لهم في التسـاوي مـع إخـوتهم المسيحيين الأوروبيين ، لـذلـك فهم يستعـدّون لتقبّـل الإسلام ، إذ أنهم يفهمون أن الدين الوحيد لأفريقيا هو الإسلام »[١٠] .

---

(١٠) التبشير والإستعمار لعمر فروخ .

دَعَايَاتُ النَصارَي ضِدُّ الاسلامْ

إن أصحاب الكنائس قلقون مضطربـون من النفوذ المعنـوي للإسـلام ، فهم لتشويه السُمعة العالمية للإسلام يبثون ضدّه دعايات مستمرة ، ولا يتركون أحياناً التشبّث بالتهم والإفتراءات بالنسبة إلى سـاحة الـدين الإسلامي الحنيف والمقدس ، فهم يريدون ان يستروا شمس الحقيقة من أيّة طريقة ، وأن لا يسمع الناس صوت حقانية الإسلام .

وكنموذج أقول : ذات ليلة بثّـوا من تلفاز الالمـان استطلاعـاً مصوّراً عن البلد الإسلامي اليمن ، ومنه عن أوضاع المساجد وأسلوب الصّلاة والعبـادات الإسلامية . وتحدّث المتحدث التلفزيوني حول حرمـان النّاس في تلك البـلاد بالتفصيل ، ثم وجّه بحملته الدعائية ضدّ الإسلام واستمر يقول : إن الإسلام قد أوجد دون تقدم هذه الأمة مشاكل كثيرة ، فأخّرهم عن قافلة الحضـارة أكثر من قرنين من الزمن ، فالتوقف والركود والجمـود في المراحـل البدائيـة والضعف والتأخر في الأوضاع الراهنة مظهر من مظاهر البرامج الإسلاميـة ! وان حرمـان هذه الأمة عن التطور الذي حدث في مختلف شؤون الناس في العالم إنما هو مسبّب عن العقائد الدينية وتبعيتهم لأحكامه » .

تصوّروا كيف تؤثر هذه الدعايات المسمـومة والمؤامـرات المدبّـرة والتي يبثّونها من وراء الحجب والأستار ، في روحية الشعوب الأوروبية الذين لا بصيرة لهم في المسـائل المرتبطة بعقائد المسـلمين ، ولو كانت لهم معلومات في ذلك

فهي قليلة جداً . . ثم انظروا كيف تكون تحكم إذن بشأن الإسلام ؟! فهل هذه المحاولات لإخماد صوت الحقّ إلاّ خيانة لنوع الإنسانية ؟!

يجب أن يقال لهؤلاء الدّعائيين : لو كان علينا أن نبحث عن علة عدم التقدّم لشعب اليمن في حياته المادية ، في دينه ، فلماذا الناس في جنوب إيطاليا حيث يحكم البابا هناك لا حظّ لهم من ثمار الحضارة الراهنة ، فالناس هناك يعيشون في منتهى الفقر والفاقة والتعاسة والشقاء ، ولذلك فهم يهجمون على الدول المجاورة ليؤمّنوا بذلك حاجاتهم ، فهم هناك يعملون في البناء ؟!

ولماذا دولة اليونان وهي دولة أوروبية وغير مسلمة أكثر تأخراً من أكثر الدول الإسلامية ؟! في حين أنّ اليونان قبل انتشار النصرانية فيها كانت تتقدم في سبيل الرقي والتكامل ، ولكنّها منذ تقبّلت دين السيد المسيح عليه السّلام كأنها سلكت سبيل الإنحطاط والسقوط ، حتى استقرّت تحت راية السلطة العثمانية .

ولماذا بعض الدول الآسيوية غير المسلمة يعيشون أوضاعاً تبعث على الأسف أكثر من الدول الإسلامية بمراتب ؟

في حين أن المسلمين في بعض النقاط مثل « بوسنه » يفضلون على المسيحيين الكاثوليك أو الأورثوذوكس في كثير من الجهات ، وليس أكثر المسلمين الروس بأقل ممن يجاورونهم من النصارى وهم في الصين أيضاً يفضلون على البوذيين ومتقدمون بالنسبة إليهم وحتى أنه يقال : ان المسلمين الذين يرجعون إلى أصول عربية الساكنين في جزيرة سنغافورة متقدمون مادياً على سُكان تلك الجزيرة الأصليين وحتى الإنجليز .

إن الأجهزة الدعائية في الدول الغربية تقلب الحقائق وتلقّن الناس مواضيع لا أساس لها من الصحة ، وذلك لناس لا علم لهم بألف باء الإسلام وُصوله الأولى وهي مساعي معمولة من قبل المنتسبين إلى الأجهزة الروحانية للكنائس بشأن الإسلام .

يقول المفكّر والكاتب الكبير الإسلامي محمّد قطب : « تحدّثت مع أحد

مبعوثي الأمم المتحدة في مصر في خصوص البرامج الإسلامية لعدة ساعات ، وبالتالي قال هذا المثقّف الغربي : أراك أحياناً تتحدث عن الإسلام بحقائق ، ولكن ماذا أصنع فاني لا أقدر على أن أبقى محروماً عن ثمار الحضارة الراهنة ، فاني أشتاق كثيراً إلى أن أسافر بالطائرات المحلقة في الفضاء !!

وبعجب قلت له : وما الذي يمنعك عن التمتّع بلذائذ الحضارة العصرية ؟!

وقال في جوابي : أليس من مقتضى إسلامكم أن أعود إلى حياة الخيم في الصحراء وأن أعيش بتلك الوسائل الوحشية لعيشة البداوة الصحراوية ؟! »[1] .

كنت بألمانيا أُقيم في فندق كان مديره خرّيج الدراسات العليا من بريطانيا وفرنسا ، وكان يعرف العربية أو يُلمّ بها . هذا كان يقول : أنا رجل موحّد أعرف ربّي الواحد جيّداً وأؤمن به إيماناً تامّاً ، أما الله الذي تعرّفه المدارس الدينية لاتباعها ويدعون الناس إلى العبادة لديه فانّي لا أستطيع أن أقبل به ، إذ أني لا أراه منسجماً مع منطق العقل ، وأرى أن الفكر يدرك جليّاً أن ما يقولون هو سير بخلاف الفطرة البشرية . ثم قال وهو يبدو على وجهه الحزن والأسى : يجب أن يؤسّس أساس التوحيد في العالم ، ثم تبدّل المسيرة المنحرفة للأفكار المظلمة والمنحرفة لمختلف فئات البشر ، ليرتقي مستوى المعارف الإنسانية نحو التوحيد الخالص . هذا ولم يكن لدى هذا الشخص أي اطّلاع عن التوحيد الخالص في الإسلام وعن الإختلاف العميق بين القرآن الكريم وبين التوراة والإنجيل المحرّفتين ، فكان يتصوّر أن القرآن أيضاً قد عرّف الله كما في كتب العهدين وفيه أيضاً ما فيهما من اتحاد أو حلول !! فناولته كرّاسة في أُصول الدين الإسلامي باللغة الألمانية ليقرأها .

ونأسف أن بعض مواطنينا كمسلمين يرتكبون في الدول الأجنبية أعمالاً يسبّب سوء نظرة بعض الغربيين إلى الإسلام . هذا الشخص مدير الفندق المذكور لانه شاهد بعض الأعمال من بعض الإيرانيين كان لا يقبلهم في

(١) بالفارسية : اسلام ونابسامانيهاى روشنفكران : ٢٩٨ .

فندقه . وانّما قبلني عنده بإصرار أحد الأصدقـاء على حسب سابق معـرفته بـه ولأبقى عنده مدة وجيـزة فقط ، ولكنه حصـل على الثقة بي بفضـل تلك الأيام القلائل ، وانّما كانت منه هذه الثقة بي بفضل أنه لم يشاهـد مني خلافـاً ينكره وليس لانـه رأى مني عمـلاً جبّاراً أو كبيـراً قمت بـه ، فكـان يثني عليّ كثيـراً (ويبالغ ، ولذلك لا أذكر ما كان يقول فيّ) وحتى أنه كان يُبدي عطفه نحوي بتقديم بعض الهدايا ، وكان إذا دخل عليه ضيف من معاريفه يقـدّم له غـرفتي ويرجو منّي أن أبات تلك الليلة عنده وفي غرفته الخاصة ، الغرفة التي كان كثير من الأوراق والاسناد الثمينة مهملة هكذا على منضدته .

ومضت فترة واقتضت الضرورة أن أنتقـل إلى مكان آخـر ، فأخـذ مديـر الفنـدق عنواني الجـديد ، فكـان إذا راجعه بعض الإيـرانيين يتصل بي هـاتفياً ويسألني : فيما لو تضمنهم أخلاقياً حتى أقبلهم . وانا من أجل أن لا يقع هؤلاء المواطنون في زحمة كنت أضمنهم ، ذلك أن البحث عن مكان للمسافرين في بدء وصولهم كان صعباً جداً .

وذات ليلة حوّلت عليه عـدداً من المسافـرين الإيرانيين الـذين لم يجدوا مكـاناً حتى ذلـك الوقت ، وضمنت حسب العـادة حُسن أخلاقهم وسلوكهم . ولكنّ مدير الفندق المذكور اتصل بي صباح غد هاتفياً فعاتبني بلحن يقطر ألماً وتأثّراً وقال : هؤلاء الذين بعثتهم البارحة كانوا سيّئين جداً وقد آلموني وآذوني كثيراً ! اعتذرت منه على خجل ! ثم صمّمت على أن لا أبعث إليه أحداً !

والآن قد حصلت فرصة مناسبة جداً لتبليغ الإسلام في هذه الموقعية التي يمر فيها العالم بلحظات حسّاسة نستطيع فيها أن نسخّر قلوب الأمم المتحضّرة بثقافة الإسلام ، فالعصر الحاضر مُعد بل مساعد إلى حد كبيـر لإعلان بـرامج الإسـلام ومواده الممـدّة بالحيـاة الـروحيـة وللتعـريف بخصـائص هـذا الـدين الحنيف . صحيح أن انسجام الإسلام مع الفـطرة الإنسانيـة يسبّب في انتشاره بسرعة ، ولكن التوفيق لنشره وبسطه في العالم مع الالتفات إلى مناسبة الأوضاع العالمية بحاجة إلى كادر تبليغي جديد وبرامج مُعدة صحيحة . ولكن نأسف أن التبليغ لم يجد بعد في محيطنا قيمته الواقعية . ولم تعد اليوم الحركات الفردية

والنشاطات الناقصة والفاقدة لأي برنامج مخطّط وأجهزة صحيحة . . . لم تعد اليوم هذه تصل إلى نتائج مثمرة ، ولو كانت مؤثرة أحياناً كان أثرها قليلاً جداً ، ولا مقاومة لها أمام الصفوف المتراصّة والقوى المركّزة المخالفة .

إن خطأنا الكبير هو عدم الإلتفات إلى الأهمية العظمى للتبليغ المنظّم ، ومع وجود القوة الغريبة المودعة في المعارف الإسلامية تلك القوة الباعثة على التقدّم والتطوّر ، مع ذلك نرى أن تلك الخاصيّة للمعارف الإسلامية قد انعدم أثرها بيننا على أثر عوامل لسنا الآن بصدد ذكرها ، فنحن مع ما لدينا من أيديولوجية وقوانين صحيحة مصابون بجمود غريب ، وهذا الموضوع بالذات سبّب في أن تُترك ميادين واسعة تحت اختيار عوامل مضادّة للإسلام .

الأخلاق في عالم الغرب

إنّ حياة الغربيين حياة تقنية بلا روح ولا حرارة حياة ، فمع أن الإنسان المتحضّر بفضل تقدمه في مختلف شؤون الحياة المادية قد حلّ كثيراً من مشاكله السابقة وخطى خطوات كبرى نحو الرفاه والراحة ، إلّا أنّ تمادي الروح المادية في جميع مظاهر الحياة حال دون الناس ومعرفة كثير من الحقائق وسبّب في تناسيهم كثيراً من الجهات الأخلاقية والمعنوية .

لا يمكن التغاضي عن الإضطرابات الجديدة التي جاءت بها الحضارة الراهنة ، ولحدّ الآن لم تقدر الإكتشافات والإختراعات المتواجدة لتسهيل الحياة وتقدم الحضارة لم تقدر أن تقلل من القلق والإضطراب الفكري للبشر ، وأن تمنح السعادة للمجتمع البشري برفع مشاكله واضطراباته الإجتماعية الخطرة .

وللإنسان اضافة على حاجاته المختلفة الجسدية عطش روحي معنوي ، فكما هو مفتون بلذائذه الجسدية كذلك يبحث عن ملتجأ فكري من أجل أن يؤمّن حوائجه المعنوية ، ولا بدّ أن نبحث عن مفتاح قضاء هذه الحاجات في ما وراء المادة . إن تحديد الأفكار الإنسانية في إطار المادية خطأ لا يغتفر وهو مما لا ينسجم مع خلقته الخاصة .

إن أول فصل من السعادة في حياة البشر والتي هي أكبر آمال البشرية إنّما يبدأ حينما يتجاوز الفكر في مسيرته التكاملية من مرحلة الحضارة المادية ،

وحينما تتحرك استعداداته الباطنية وقواه الروحية ويبدأ الإفادة بصورة صحيحة من منبع الكمالات الإنسانية . ذلك أن السعادة الإنسانية لا تحصل مئة بالمئة على صعيد الحضارة من دون الموازنة بين هذين الجانبين .

من مشاهدة العيوب الأخلاقية والإجتماعية نلتفت إلى أن عوامل التكامل البشري لم تتوسع في كل أبعادها كما ينبغي ، وأنّ البشر اليوم قد ابتلى بالأخطاء في معرفة عوامل السعادة .

ولا نعثر على قوم في التاريخ قد نفذ الفساد إلى كل زوايا حياتهم حتى لم تبق لهم أيّة نقطة سالمة فيها ، فكذلك في محيط الغرب اليوم مع كل هذه المفاسد الأخلاقية هناك فضائل لا زالت باقية ، فأكثر الناس ملتزمون بالأمانة وصحة العمل والصدق ، ولكن هذه الفضائل لا تجبر رذائلهم وسيّئاتهم !

أضف إلى ذلك أن هذه الأوصاف وإن كانت كلها تعد من الفضائل الأخلاقية ولكن بالإمكان أن يعمل بها وعلى أسس متفاوتة ، وقد ابتلت هذه الأخلاقيات في الغرب بالفصل عن الدين وعن البرامج السماوية رأساً ، ولذلك فهي فاقدة لكل قيمتها ومزاياها المعنوية .

هذا حبّ جلب المنافع الذي دفعهم إلى صحة العمل والتزامهم بذلك ، فالناس ينظرون إلى هذه الأخلاقيات من نافذة المنافع المادية ويرونها وسائل وأدوات لتقدمهم في أعمالهم ، فإذا لم تشتمل هذه المكارم والصفات الأخلاقية على منافع مادية لهم فلا اعتبار لها عندهم . إذن فالأخلاق تتبادل بينهم . بصفتها أداة لجلب المنافع في كل مكان تقريباً .

أما بشأن العفّة الجنسية : فان الغرب قد تجاوز فيها عن حريم الأخلاق ، وقد بلغ بهم الضلال بهذا الخصوص إلى أوج شدته . لم يكن هناك شك لأحد في بداية الأمر في أن العفّة الجنسية قيمة أخلاقية ، وأن خلافها ضلال وانحراف عن الأخلاق الفاضلة ولكنّهم نسوا هذه الحقيقة تدريجيّاً أو جاءهم من المُضلّين من أنساهم ذلك .

حكى لي صديق : أن فتاة كانت تطرح مشكلتها في البرنامج الخاص بهن

في الإذاعة الألمانية وتطلب إرشاداً من مُرشد البرنامج ، قالت : أنا فتاة صادقت فتىً لعدة سنين ، ولكني وبمرور الزمن وكثرة المعاشرة المتوالية قلّت عواطفي ومحبّتي بالنسبة إليه ، ولذلك فقد صمّمت على أن أفتح طريق الإرتباط والمعاشرة على شاب آخر غيره . فهل لي أن أعمل بإرادتي مع احتفاظي بصديقي السابق ؟ أم أكتفي بهذا الصديق السابق وأصرف النظر عن الصديق الجديد ؟!

وقال مرشد البرنامج في جوابها : إذا كان سنّك أقل من الثامنة والعشرين فلك حريتك من دون أي شرط أو قيد في أن تصادقي صديقاً واحداً أو أكثر ، ولا تقلقي ولا تضطربي ولا تتردّدي من هذه الناحية أبداً !!

وهذه نقطة مهمة ملفتة للإنتباه أن هذا التشويق إلى الفساد يصدر من أُناس موظّفين بإنقاذ مجتمعهم من الإنحطاط الأخلاقي ! فبدل أن يصلحوا النفوس ويهذّبوها ويسوقوها نحو العفة والتقوى والفضيلة ، يصدرون أوامر بكسر القيود الأخلاقية ، ويحرّفون المفهوم الحقيقي للفحشاء بعنوان العلاقات الشخصية الخاصة قبل الزواج ، أو بعنوان الصداقة القانونية ! وبعنوان الدفاع عن الحرية المطلقة يستثنون هذا العمل عن دائرة خلاف العفة ، بل يشوّقون الناس إلى ارتكاب ما يخالف الشرف والتقوى !

كتب « ويل دورانت » العالم الإجتماعي الشهير يقول : « إن العيش في المدن المتحضّرة أصبح بحيث يحول دون الإنسان والتفكير في الزواج ، في حين أن دوافع الشهوة الجنسية تحرّض الناس كل وقت على إيجاد العلاقات الجنسية ، بل تزيّن وتحسّن تنفيذ هذا الميل الطبيعي بالطرق غير المشروعة .

هذه الحضارة التي أخّرت سن الزواج حتى للرجال ، حتى أنّ الشباب يصلون إلى سنّ الثلاثين وهم بعد يفتقدون الحياة العائلية . . . وحينئذٍ فلا مناص من أن يصبح جسد الشابّ تحت رحمة الهيجانات والإضطرابات ، وتضعف قوته على حفظ نفسه وصيانتها عن المحرّمات ، وبالتالي أصبح أمر العفّة التي كانت تُعد فضيلة يوماً ما مورداً للسخرية والإستهزاء ! وفي هكذا أجواء كذلك اختفى الحياء الذي كان يوماً ما يُضيف جمالاً إلى محسّنات

الإنسان ، بل أصبح الرجال يتباهون بتعداد ذنوبهم ، وأصبحت النساء بدعوى المساواة مع الرجال يدخلن في قصص غرام غير محدودة ، وأصبحت العلاقة المحرّمة بينهما قبل عقد الزواج عملاً عادياً .

نعم تخلو الشوارع عن النساء الفواحش ، لكن لا خوفاً من البوليس ، بل انّ النساء المتبذّلات كسّرْن سوق الفواحش »[1] .

إنّ الفطرة الإنسانية تتطلّب أن تنتظم قواه وتنضبط ولا تصرف إلاّ بصورة معتدلة ، وان للسير على خلاف مسير الفطرة نتائج غير مرضية ، ولا تعود على الإنسان تلك السعادة والراحة والطمأنينة التي يبحث عنها في ظلال الحرية بينما هو يسحق قوانين الفطرة .

إنّ الغرب قد أعدّ المجال للشهوات لعموم الناس ، فهل شبع أصحاب الشهوات بهذا الإنحلال والحرية المطلقة وارتووا من عطشهم ؟ أليس كل هذه الجرائم والإضطرابات والجنون واختلال الأعصاب والإنتحار من نتائج هذه الحرية والإنحلال الجنسي ؟!

بعد عشرين سنة من الحرية الجنسية التامّة بين الشباب في السويد ، ظهرت بينهم فجائع موحشة ، بحيث أوحشت العلماء والمسؤولين في السويد ، حتى أن هذه الظاهرة الموحشة والطغيان الإجتماعي الخطر بُحث في البرلمان السويدي وقال رئيس الوزراء هناك بكل صراحة تامة : « لجبران الخطأ الذي كان مستمراً عشرين عاماً نحتاج إلى أربعين عاماً من الزمن » .

إن الناس تورّطوا في لجّة الميول الجنسية متأثرين بالأصول المضللة لفرويد ، التي تفسّر كل شؤون الإنسان وكل سلوكه بالدوافع الجنسية ! وهكذا انفصلت أمور الجنس عن الأخلاق ، وحينما انحدرت العفّة إلى منحدر الضلال لم يتصوّر لها أحد حدّاً . وإنّ الاحصائيات التالية ثمار هذه التعاليم :

« وفقاً للاحصاءات المنشورة من قبل دولة ألمانيا الغربية : على أثر

---

(١) لذات الفلسفة ـ بالفارسية .

معاشرة جنود الدول المنتصرة مع النساء الألمانيات ولد مائتا ألف طفل غير شرعي في ألمانيا . . . وهذا العدد عُشر عدد المواليد غير الشرعيين ، سلم عن الاسقاط أو القتل بيد الأمهات ، فهم الآن تحت رعاية الحكومة الألمانية . خمسة آلاف منهم من السود !

وليعلم أن هذا العدد انّما هو من ألمانيا الغربية ، أما ألمانيا الشرقية فليس بأيدينا احصائيات صحيحة من هناك ، ولكن بالإمكان أن نخمّن تخميناً قريباً إلى اليقين بأن ألمانيا الشرقية لو لم تكن أسوأ حالاً فهي ليست بأسعد حالاً من الغربية »[٢] .

وليس سائر الدول الغربية بأقل حظاً من ألمانيا . وإن أكثر شيء ألماً هو التقرير الذي قُدم إلى مجلس الأمور الأخلاقية « نوتهامپتون » في مركز بريطانيا ، كشف الستار فيه عن أنّ عدد الأطفال غير الشرعيين في « نوتهامپتون » أكثر من خمسين بالمئة من معدل كل الأطفال في هذه الناحية ! وأعلن فيه أن ازدياد الأولاد غير الشرعيين انّما بدأ منذ أن خرجت هذه الناحية عن الحالة الزراعية واتّجهت نحو الصناعة والمعامل »[٣] .

وكتب « دايل كارينجي » عالم النفس والإجتماع يقول : « أعدّت إحدى التجمعات العلمية الأمريكية احصائية عن خيانة الأزواج بزوجاتهم ، لوحظ فيها أنواع الخيانات ، وقد حاولوا في إعدادها أن ينوّعوا فيمن يسألونه ليكونوا من مختلف الطبقات والسنين .

وأثبتت هذه الإحصائيات أن خمسين بالمئة من الأزواج تقريباً يخونون بزوجاتهم ، ومنهم من يفعل ذلك بشكل رتيب دائماً . وأمّا النصف الآخر من الأزواج فهم لا يخونون زوجاتهم امّا لعدم سنوح الفرصة لهم وامّا من خوف الفضيحة أو هم يضطرون إلى رعاية الأمانة الزوجية . وقبل عدّة سنين روقبت المكالمات الهاتفية في نيويورك فلوحظ أن كثيراً من النساء أيضاً يخنّ

---

(٢) بالفارسية : مجلة : خواندنيها/١٥/١١ .

(٣) بالفارسية : طلاق وتجدّد : ٣٤ .

بأزواجهن »[٤]

« وقد خصصت ستمائة وخمسون مستشفى في الولايات المتحدة الأمريكية للأمراض الجنسية فحسب ، في حين أن ما يعادل المائة والخمسين بالمائة أي الضعف ونصف الضعف من هذا العدد يراجعون طبيب عوائلهم أو الأطباء الإختصاصيين »[٥] .

« يموت في أمريكا في كل سنة ثلاثون إلى أربعون ألف طفل على أثر الأمراض الجنسية من أحد أبويهم ، وان مقياس الخسائر التي تقع من هذه الأمراض أكثر من خسائر مختلف الأمراض سوى السل »[٦] .

وكما كتبت مجلة « سكسولوژي في مقالتها الإفتتاحية في ديسمبر ١٩٦٠م تقول : « إن موضوع زيادة الأطفال غير الشرعيين بالنسبة إلى السنين السابقة أورث مشكلة كبرى للحكومة الأمريكية ، فوفقاً للاحصائيات المنشورة سنة ١٩٧٥م كان في أمريكا يومئذٍ مائتا ألف طفل غير شرعي ، وتضاعف هذا العدد في طول عشرين سنة كل سنة خمسة بالمئة »[٧] .

« إنّ ميزان الكورتاج لسنة واحدة في الولايات المتحدة الأمريكية يبلغ مليون مورداً ، خمسة وستون بالمئة منها من العلاقات الحرة غير الشرعية ، وخمسون بالمئة منها من البنات الباكرات أو العزبات غير المتزوّجات »[٨] .

وكتب الدكتور مولنز ، وهو طبيب كان يشتغل في الناحية الجنوبية من لندن ، يقول :

« بنت واحدة من كل خمس بنات يحضرن الكنائس هي حُبلى بلا زوج ! وفي كل سنة في لندن يقع خمسون ألف مورد من سقط الجنين بجريمة . وواحد

---

(٤) عن الترجمة الفارسية : آئين كاميابى .
(٥) عن الترجمة الفارسية لدائرة المعارف البريطانية ٢٣ : ٤٥ .
(٦) بالفارسية : قوانين جنسى : ٣٠٤ .
(٧) عن جريدة : إطلاعات الإيرانية ، العدد : ١٠٤١٤ .
(٨) عن مجلة : سپيد وسياه ، العدد : ٣٧٠ ـ الفارسية .

من كل عشرين طفلاً يولد غير شرعي ، ومع تحسّن شرائط الحياة ترى كل سنة يزداد هؤلاء الأطفال غير الشرعيين . ويرى الدكتور مولنز : أنّ أكثر الأولاد غير الشرعيين يولـدون في الأسر الثـرية ، وأنّ البنـات المتربيـات في الأسر الثـرية يحملن أولاداً غير شرعيين أكثر من غيرهن »[٩] .

إنّ هذه النماذج اشارات من حقيقة هي أن البشر المتحضّر قد حوصر اليوم في الساحة المظلمة لغريزته الجنسية (وهو يزعم أنها ساحة الحرية) وقد بلغ هو سهم الشهواني إلى حد تنسى كثيراً من القيم الأخلاقية والإنسانية في العلاقات العائلية ، فهم لا يعرفون أي حدّ لذلك .

قبل عدة سنين كتبت جرائد طهران حادثـة تقول : في ولايـة « ايداهـو » الأمريكية تبادل جماعة نساءهم فيما بينهم لمدة ثلاثة أسابيع وأن كل واحد منهم قدّم زوجته للثاني كهدية ، وقد أقامت هذه القضية ضجة في أمريكا ، واجتلبتهم المحكمة الأمريكية للمحاكمة بتهمة الإخلال بالعفة العامة وإشاعة الفحشاء !

هـذا نموذج من الإضـطرابات التي ظهـرت في ناحيـة واحـدة من حيـاة الناس ، أي الأمور الجنسية . انّ لأفكار المربّين وسلوك زعماء القوم أثراً مباشراً في تكوين أسلوب تفكير النـاس وعقائـدهم ولا شك في أن هؤلاء لـو أشاعـوا المفاسد وهم زعماء قيادة المجتمع ، فان آثار ذلك في إفسـاد الأخلاق العـامة أكثر من أي شيء آخر ، وبما أنّ نفس كل أحد ميّالة للشهوات حسب الجاذبة الطبيعية فانّ لإيحاءاتهم السيّئة تأثيراً أسرع من أي دستور أخلاقي لا محـالة ، وإن من يتربّى وينمو في أحضان مدرسة الإنحلال وفي هكذا محيط وبيئة ، فلا ريب في انه يشعر في قرارة نفسه بحرية مطلقة وبلا حساب ، وسوف لا يكون للعفـة والنزاهـة فيه أي معنى أو مفهـوم ، وسوف لا يجـول فكره إلاّ في دائـرة شهوات النفس الأمارة فحسب .

إنّ الذين يدافعون عن الرذائل الأخلاقية سوف يـربّون في الـواقع جيـلاً عاصياً وشهوانياً ، ذليلاً عاجزاً على أعتاب أهوائه النفسية ، يتخلّى عن القيام بما

---

(٩) عن الجريدة الإيرانية : كيهان ، العدد : ٥٣٥٦ .

تريده منهم ضمائرهم وعقولهم بكل سهولة .

وقد أعلن « جونسون كندي » رئيس الولايات المتّحدة الأمريكية في سنة ١٩٦٢ يقول : « ان لأمريكا مستقبلاً مؤلماً ، إذ الشباب انحلاليون وغارقون في الشهوات ، وغير مستعدين لان يقوموا بما يحوّل عليهم من تكاليف . فمثلاً من كل سبعة من الشباب يدخلون في الجندية يخرج ستة منهم ضعفاء غير لائقين ، ذلك أن إفراطهم في شهواتهم قد استنفد منهم استعدادتهم النفسية والجسدية » .

وكذلك أعلن « خورشوف » القائد الروسي في سنة ١٩٦٢ يقول : « إن مستقبل روسيا في خطر ، وليس للشباب مستقبل مؤمّل ، إذ أصبحوا انحلاليّين اباحيّين عبيداً لشهواتهم » !

عجيب أنّ إنسان القرن العشرين ـ قرن التقدّم العلمي والصناعي ـ يعجز أمام هذه المشكلة ، مشكلة حيرة جيل الشباب ، وكل يوم تتولد ظاهرة غريبة من هذه الحضارة الصناعية المملّة والتي لا روح لها :

فيوماً تظهر فئة « الخنافس » بحركاتهم غير المنتظمة واللاّموزونة ، ويوماً آخر ينبت بين المجتمع « الهيبيّون » كما تنبت الأعشاب غير المفيدة ويقيمون ثورة ضدّ الحضارة المادية الجافّة ، فيرون القيم المعنوية والأخلاقية والمقدّسات موهومة لا أساس لها من الصحة ، ويسخرون بالحياة المعقولة ، وبعد كسر القيود والحدود والإعراض عن الحضارة الراهنة يبقون في حيرتهم يتردّدون ، ولا يجدون لأنفسهم أي مستند معنويّ أو ملتجأ روحي .

هذه الظواهر الإجتماعية ومدى تأثر الشباب بعوامل التحريف وحساسيّتهم أمام مظاهر الفساد والتلوّث ، مما يثبت حقيقة هي : أن الحضارة الراهنة بكل قيودها ، والتي جعلت أفراد المجتمع كالماكنة وهم أجزاؤها ، لا تستطيع أن تُشبع الحاجات الفطرية والروحية للبشر ، ولا تقدر على الإجابة الصحيحة على عواطفه الإنسانية وشعوره المعنوي .

وإنّ ازدياد الإنتحار أيضاً من نتائج هذه الأوضاع الحاضرة ، فمع أن

الناس يصبحون من حيث الحياة المادية في راحة ورفاهية مع ذلك يزداد عدد الإنتحارات يوماً فيوماً :

« حسب تقرير البوليس في سنة ١٩٧٦م انتحر في ألمانيا أكثر من عشرة آلاف شخص ، أما الذين انتحروا فأنقذوا في نفس السنة وفي نفس ألمانيا : فقد انتحر أكثر من ستة آلاف من الرجال وأكثر من سبعة آلاف من النساء فأنقذوا من القتل »[١٠] .

« وانتشر استعمال المواد المخدّرة بين الشباب الأمريكي بصورة موحشة ، وقد وجد بوليس نيويورك أخيراً أجساد سبعة وثلاثين شاباً من السادسة عشرة حتى الخامسة والثلاثين من العمر ، قد ماتوا على أثر إفراطهم في إدمان المخدّرات ، وبعضهم لم يجد فرصة ليخرج المصل المخدّر عن عضده أو عضلته ! وفي الدرجة الأولى منهم المعتادون على مادة « الهروين » وفي الحال الراهن يعتاد عليها في نيويورك فقط مائة ألف شخص ، أي من كل ثمانين رجلاً واحد ! .

وللفنانين في طبقة الأغنياء الدرجة الأولى ، حتى قال أحد أطباء نيويورك : إن أحد مشاهير الفنانين الأمريكيين كان قد زرّق نفسه بالمواد المخدّرة عشر مرات في الأربع وعشرين ساعة ! كل مرة تعادل ستين دولاراً . وأضاف الطبيب الأمريكي : إن كثيراً من مشاهير الشخصيات الذين ماتوا بالسكتة القلبية كان موتهم من المواد المخدّرة »[١١] .

« في بلد متحضّر كأمريكا : تقع في كل خمس وعشرين دقيقة جريمة كبرى ، وفي كل أربع وعشرين دقيقة ثلاثة موارد من القتل العمدي ، وخمس اعتداءات على الأعراض بعنف ، وثلاثون سرقة كبرى ، وثلاثة آلاف سرقة صغرى ! وفي نفس البلد المتحضّر قد خصّصوا ميزانية ضخمة تعادل أربعة بلايين دولاراً لمكافحة المجرمين وتنفيذ القوانين بشأنهم ، ويُصرف زهاء مائة مليون دولاراً للوقاية من وقوع الجرائم في نيويورك »[١٢] .

---

(١٠) عن المجلة الطبية الفارسية : تندرست .

(١١) عن الجريدة الإيرانية : اطلاعات ، العدد : ١٣٠١٥ .

(١٢) بالفارسيه : روح بشر : ٣٢ .

هذه هي أوضاع حياة يدعو إليها أُناس انبهروا بها وهم يتشدّقون بالفكـر والثقافة بل ويفخرون بدعوتهم هذه !

العِبادَةُ في الكَنَائِسْ

وإن كانت الكنيسة بما لها من قدرة دعائية وقوة بشرية عظيمة تتدخل في الشؤون الإجتماعية والثقافية للمجتمعات الغربية ، مع ذلك لم تؤثر هذه التعاليم الدينية في تصفية أخلاقهم وطهارة قلوبهم أثراً ملحوظاً ، ولم تقدر على أن تجبر هزيمتهم الروحية وتحدد من الأهواء اللاّمحدودة للإنسان المتحلّل ، فالدين الذي ترك أتباعه أحراراً في ارتكاب الأعمال غير الحميدة ، كيف يمكن له أن ينقذهم من مخالب المعاصي والتلوّثات ؟ وأن يقتلع عروق الأخلاق الفاسدة السائدة ؟ وأن يزيل آثار الإنحطاط الخُلقي القائم ؟!

وحتى العبادة عندهم وتزكية النفس والوصول إلى المدارج الإنسانية السامية ، والتي يجب أن يعمل بها للتقرب إلى الله وعن طريق نيّة خالصة له ، قد انحرفت عن مجاريها الصحيحة وتلوّثت بكثير من الملوّثات .

إن النصرانية لم تُبتل بالخرافات في عقائدها فقط ، بل ان مفهوم العبادة لدى ساحة الربّ قد فقدت حقيقتها ، إذ تعجبون أنهم يبنون في الكنيسة صالوناً للرقص كي يجتذبوا الشباب المهوس إلى العبادة ؟! وهكذا يصطادوا جيل الشباب للكنيسة ! فالمعبد الذي يجب أن يكون حريم التقوى والعفاف ومهداً لتربية الصفات الحميدة ، قد وقع اليوم بهذا الوضع المؤسف للغاية !

والقادة الدينيّون الذين يجب أن يقفوا كسدّ قائم أمام سيول الفساد ، هم

وقعوا تحت تأثير الإنحطاط الأخلاقي لجوّهم ومحيطهم وبيئتهم ! ومع هكذا وضعية بإمكاننا أن ندرك أن المسيحية عاجزة عن إيجاد أي تحوّل أخلاقي في العالم الغربي ، ولا يقدر هٰذا جهاز على أن يسلّح البشر بأفكار نزيهة بشأن معرفة الله تعالى لتكون رصيداً لإنقاذ العالم من القلق اللاّأخلاقي . والخبر التالي يبيّن سلوك مديري الأجهزة الدينية المسيحية :

« إن الأب الروحي : « فرانسيس هيوز » الذي له خمس وثلاثون سنة ، والذي هو في مونتريال في كندا ، موسيقار ماهر ، وله مهارة خاصة في تصنيف الأنغام ، وله لحد الآن ألف وخمسمائة تصنيف . وهو يشتغل بالنشاطات الدينية والغنائية بصورة ممتزجة »[1] .

أليس القيام بهذه الأعمال في المعبد استهزاء بالدين ؟! فالعبادة من سمى الدساتير التربوية للأنبياء ، ولا يقدر أحد أن يبقى بمعزل عن مفاسد العالم المادي المضطرب وعن التلوّثات التي تنشأ من العلاقة غير المعقولة بالمادّيات من دون الإلتفات والتّوجه إلى الله تعالى إذ المعرفة بذات الله تعالى هي نقطة المحور الأصلي لحياة الإنسان ، وبدونها لا تتّجه أيّ بناء في نظام حياة الإنسان نحو الصدق والصلاح .

فالعبادة هي التي تحرّر الإنسان عن قيود الشهوات ، وتصل به إلى السعادة المعنوية ومقام القرب الإلٰهي . والآن لاحظوا كيف أن هذه الحقيقة القيّمة والثمينة أصبحت لدى أصحاب الأهواء ألعوبة لميولهم النفسانية (بحجج واهية يزعمونها دينية) .

إنّ كشف حُجب الغفلة وأستارها وإيجاد الثورة الروحية والمعنوية العظيمة هي إحدى الفلسفات الكبرى للعبادة في الإسلام . ومن المستحسن أن تسمعوا إلى قضاء عادل عن لسان عالم مسيحي باسم « استانورد كوب » بشأن المقارنة بين عبادة المسلمين والنصارى يقول :

« ووجدت فرصة لأشهد المراسيم الدينية والصّلاة في مسجد « أياصوفية »

---

(١) عن المجلة الإيرانية : إطلاعات ، الاسبوعية ، العدد : ١٠٨٩ .

وكان الشطر المهم من هذه المراسيم عبارة عن « الرّكـوع » و« السّجود » كـان على المصلين أن يـركعوا في كـل صلاة عـدّة مرات ثم يسجـدوا ، وفي ذلك يكرّرون كلمات مقدّسة في الثناء على الله تعالى .

كان لعظمة الخشوع والخضوع لهؤلاء المصلين في حين الصّلاة أثر بالغ في نفسي . . . وفي الحقيقة لم أكن أجد كل هذا الخلوص في العبادة والعمق في التسليم لله تعالى في أيّ كنيسة من الكنائس المسيحية .

وبعد مدة كان لي فخر الحضور مع عدد من الأجانب الآخرين لأشاهد من جناح بناية مراسيم الاحياء في ليلة القدر ، التي يقولون : أن القرآن قد نزل في تلك الليلة على نبيّ الإسلام . وكانت ساحة « أياصوفية » مملوءة بجمع أكثر من خمسـة آلاف من المصلين ، كان يتم ركـوعهم وسجودهـم في حـركة وانتـظام مطلق .

كانت أمواج أصواتهم الخفيفة ، وانحناؤهم لحالـة الركـوع ، استقبالهم الأرض بأيديهم في حالة السّجود ، ثم قيامهم الجمعي وتكبيرهم معاً وحركتهم الخفيفة والعميقة تتجلّى مناظر عظيمة لا نظير لها مهابة مهولة ، بالإضـافة إلى عمق العبادة والخضوع المتواجد في مـراسيم عبادة المسلمين ، وهكـذا كانت هذه المراسيم تتمتّع بروح متحرّرة مطلقة ديموقراطية متساوية لا تمييز فيها .

شاهدت بنفسي حمّالاً دوّاراً واقفاً على السّجاد الثمين والنظيف جنباً إلى جنب بجـوار أحد « البـاشوات » بمـلابسه الفـاخرة ، فـارغ البال عن كـل قلق واضـطراب ورعايـة ، يركـع معه ويسجـد بانسجـام وبكل حـرية . وكنت أرى « سوداً » ضخاماً قباح الوجوه مشتغلين بالمراسيم الدينية إلى جانب أكثر أتـراك المدينة تأنّقاً وجمالاً .

كان الإسلام منذ ظهوره يُعدّ دين الأخوة ، وهـو بعد في هـذا العصر لم يفتقد روحه وامتيازه هذا »[٢] .

إنّ أكبر الأخطاء التي ارتكبها الغرب بشأن الدين والإيمان هو أنه زعم أن

---

(٢) بالفارسية : خداوند دو كعبه : ٢٢٧ .

الدين أمر باطني وشخصي لا يرتبط بواقع الحياة بأيّة رابطة أو علاقة ! إنّ هـذه التحريفة في العقيـدة قد أظلّت على كـل مجالات حيـاتهم بظلالهـا المشؤومة فلوّثت كل سلوكهم وأعمالهم .

إن الجوّ الذي يبدو فيه هـذا القلق العقائـدي تبدو هنـاك انحرافـات في صميم الحياة أيضاً ، وتقع الحقيقة ضحيّة فريسة على أعتاب الميول والشهوات النفسانية ، بالتالي فانّ الفساد والضلال يغمر كل مكان وكل مجال .

أضف إلى ذلـك أنـه مـع هكـذا أسلوب من التفكيـر سيتـأجّـج النـزاع والتخـاصم في ضمير الإنسـان بين المـادة والقيـم المعنـويـة ، أي يكـون على الإنســان أن يـرى الشيء شيئـاً مـطروداً بلحـاظ المنـطق الـديني والبـرنــامج الروحاني ، ولكنّه يرى نفسه ذلك الشيء لازماً وضرورياً في حياته العملية .

إن كل عمل وفكر يتّخذ صبغة خاصة في ظلال العقيدة ، وليست الحياة سـوء العقيدة ، وإن فصـل الدين عن العـالم الخـارجي أو فصـل العقيـدة عن الأحكام خطأ كبير لا يغتفر . ويحكي عن هـذا الخطأ « دوبيـر » الأمريكي في كتابه « النزاع بين العلم والدين » فيقول :

« إن قسطنطين الذي فرض دين المسيحية رسمياً في امبـراطوريـة الرّوم خلط كثيراً من مفاهيم الوثنية ، محاولة لاجتذاب الوثنّيين إلى الدين الجديد .

والذي يجب التذكير به هنا أنّه في أوروبا المسيحية في القرون الوسطى أو القرون الجديدة ، كانت هذه الأسطورة شائعة تقول : ان الدين علاقة بين العبد وربّه ثم لا دور له في صميم الحياة . وبتعبير آخر فانّهم يزعمون أن العقيدة مهما كانت فانّها ترتبط بقلب الإنسان ، أما محيط الحياة فهو بعيد عن العقيدة » .

الإنتشارُ المُذهِلُ للكَحُولْ

إن صرف المشروبات الكحولية واستعمالها المتزايد يوماً فيوماً يلعب دوراً مهماً في التسافل الروحي للمجتمع ، ولهذا فانّ آثارها المشؤومة التي تنشـرها في الأخلاق والدين والنفس والصحة في الأفراد والمجتمعات البشرية ليست مما يمكن إنكاره ، فلا أحد من العقلاء يقدر على أن يغضّ النظر عن هذه الحقيقة الواقعة ، فلا تمر سنة من السنين إلاّ ويُرسل هذا السّم المهلك جمعاً كثيراً من المجانين الكحوليين إلى المصحّات العقلية ، ويبعث آلاف الأفراد على القتل أو الإنتحار أو الخيانة والسرقة والفضيحة والفسق والفجور و . . .

إن أكثر الأفراد يريدون أن يتخلّصوا بشرب المواد الكحوليـة من مخالب المصائب والهموم ، ولكنهم في الواقع يوقّعون بذلك سند هزيمتهم وعجـزهم أمام الشدائد ومشكلات الحياة ، فهم بدلاً من استقبال مشاكل الحياة ومواجهتها يخضعون أمامها لضغطها ويركعـون ، فكلما يـرنّ الصدى المـوحش لمشاكـل الحياة في آذانهم يلجأون إلى شرب الخمرة ، لكي يرسموا في عوالم أوهامهم لنجاة أنفسهم من الأفكار المؤلمـة والمملّة في الحياة ، عـالماً خـالياً من هـذه الشدائد والمشاكل فينشغلون به في أوهامهم لمدة فقط .

إن هذه الحجج والذرائع التي تدفع البشر إلى شرب الخمرة ليست مبرّراً لهم لذلك ، إن نفس وجود الخمرة دليل على وجود مرض في ذلك المجتمع ،

ومن الممكن علاج هذا المرض المُهلك بالتربية الفكرية والروحية .

إنّ الإنسان العاقل يسعى ليسكر من خمر العلم والمعرفة لا الخمر الذي يخمّر العقل ويستره ، ويأتي بالجنون وينشره ، وينزّل بالإنسان من منزلة المعرفة إلى درجة البهائم !

زار كاتب هذه السطور يوماً معبداً من معابد اليهود ، وكان كيفية البناء وعظمته يجتذب الناظر ، وزرت أقسامه المختلفة بدلالة مدير المعبد . والذي حيّرني حينذاك في الأثناء زيارة صالون كان قد خُصّص لشرب المشروبات الكحولية !! استولت علينا الحيرة والألم للحظات ثم سألته : وهل يشربون المشروبات الكحولية في المعبد ؟! أجاب بصورة جدّية : نعم ، ولكن ليس للجميع بل يحضرها هنا أفراد مخصوصون لا شغل لهم هنا سوى شرب الخمرة !

إن انتشار الكحول أكثر يوماً فيوماً قد أوحش القادة والعلماء ومختلف المجامع الصحية والطبية في الغرب ، فأسّسوا لمكافحتها مؤسّسات مثل « منظمة مكافحة الكحول » ولكن هذه المؤسّسات عاجزة وقاصرة عن المكافحة ضدّ هذه الظواهر الإجتماعية الفاسدة ، إذ مع وجود هذه المؤسّسات يزداد مصرف هذا السمّ المهلك والمُدمّر يوماً فيوماً ، ويخاف أن تتبدّل الطبقات النشطة من جيل الشباب اليوم إلى عدد من الأفراد الكحوليين العاجزين . والإحصائية التالية إحدى نتائج المفاسد والتعاسة الناتجة من الكحول :

في المؤتمر العالميّ الرابع والعشرين لمكافحة الكحول المنعقد في فرنسا أُعلنت الإحصائيات التالية من دراسات الأطباء في آثار الكحول في العقل والروح البشري :

« عشرون بالمئة من النساء ، وستون بالمئة من الرجال الذين راجعوا المستشفيات كانوا مدمنين للخمرة معتادين عليها ، وأربعون بالمئة من مرضى الأمراض الجنسية وسبعون بالمئة من المجانين كانوا يعانون من نتائج استعمال الكحول وشربها .

أما في بريطانيا فقد ثبت بدراسات العلماء أن خمسة وتسعين بالمئة من

المجانين تقريباً كانوا يعانون الجنون من أثر المشروبات الكحولية »[1] .

« نشر وزير الصحة الفرنسي إحصائية عن الخسائر الناتجة من الكحول في فرنسا ، وصفتها جرائد فرنسا أنها إحصائية مُقلقة .

ذكر الوزير في هذه الإحصائية : أن عدد الخسائر من الإفراط في شرب الكحول في سنة ١٩٥ كان أكثر من عشرين ألفاً ، وأعلن السكرتير العام للجنة الدولية لمكافحة الكحول : أن خمساً وعشرين بالمئة من سوانح الأعمال وأخطارها ، وخمسة وسبعين بالمئة من اصطدامات السيارات في فرنسا كانت من استعمال الكحول »[2] .

وكتب « يوانكاره » رئيس جمهورية فرنسا ورئيس جمعية مكافحة الكحول ، في أيام الحرب العالمية ضمن بيان نشره قال فيه : « يا أبناء فرنسا ، انّ أكبر أعدائكم المشروبات الكحولية ، فحاربوها قبل أن تقاتلوا الألمان . إن الخسائر في النفوس والأموال التي أصابت فرنسا في سنة ١٨٧٠ من نتائج المشروبات الكحولية كانت أكثر بكثير من الخسائر التي حصلت لفرنسا من الحرب الحاضرة ! إن المشروبات التي تتلذّذون بها هي سمّ قاتل لكم ، تصل بكم إلى شيخوخة سريعة فتحبط نصف أعماركم ، وتجعل أبدانكم هدفاً لهجمات الأمراض والعجز المتوالي » .

« إن ما يشكّل أربعين بالمئة من الأمراض في مستشفيات فرنسا هي الأمراض الناتجة من الكحول ، وإن خمسين بالمئة من المجانين في دور المجانين إنّما أُصيبوا بالجنون نتيجة لاستعمال المواد الكحولية . وفي مستشفيات الأطفال في فرنسا أيضاً كانت أمراض خمسين بالمئة منهم من نتائج إدمان والديهم . .

إنّ ستين بالمئة من مصاريف المحاكم ترتبط بالكحول ، بحيث أن خزينة الحكومة الفرنسية تدفع كخسائر لاستعمال الكحول كل سنة ثلاثمائة وخمسة وثلاثين مليارد فرنك فرنسي لمصارف المستشفيات ودور المجانين والمصحّات

(١ -٢) عن المجلة الإيرانية : تندرست /٥/ ١٢ .

العقلية وأمثال ذلك . . .

إن الكحول تسبب زيادة عدد الوفيات في البشر ، بحيث أنّ خمسين بالمئة من موت الرجال وثلاثين بالمئة من موت النساء ناتج من الكحول ، وإنّ خمساً وتسعين من قاتلي الأطفال من الكحوليين ، وستين بالمئة من الشباب الفاسد متولّدون من والدين كحوليّين »[٣] .

دُعي في سنة واحدة إلى المحاكم القانونية في ألمانيا ما يقرب من مئة وخمسين ألفاً من المجرمين من جرّاء استعمال المسكرات . وصدرت في سنة ١٨٧٨م من محاكم ألمانيا ٥٤٣٤٨ حكماً قطعياً بشأن النساء المجرمات من جرّاء استعمال الكحول ، وبلغ هذا الرقم الموحش في سنة ١٩١٤م إلى ٦٠٠٣١ حكماً » .

وقال أحد وزراء أتادونيه في خطابه : « إن أمريكا صرفت في مدة عشر سنين ثمانية عشر مليوناً على المشروبات الكحولية ، ومن نتائج ذلك أن بعثت بمائة ألف شاب إلى دار المساكين وألقت في السجن مائة وخمسين ألف مجرم ، وقتلت خمسمائة شخص ، وحملت ألفي شخص على الإنتحار ، وأرملت مائتي ألف امرأة ، وتركت مليون طفل يتيماً بلا أب » .

وأعلن المؤتمر الدولي لمكافحة الكحول :

« ان خسائر الكحول الإقتصادية أيضاً ملفتة للنظر والإنتباه ، انّ مصرف الكحول حسب الدراسة الدقيقة تحمّل خزانة الدولة مائة وثمانية وعشرين ملياراً من الفرنكات ما عدا الخسائر الشخصية ، هكذا : عشرة مليارات لمصارف المستشفيات . وأربعون ملياراً للمصارف العامة والتعاون والأمور الخيرية . سبعة عشر ملياراً لمصارف الأمن الإجتماعي ، وستون ملياراً مصارف المحاكم والسجون ، وعلاوة على ذلك فان ما يقرب من أحد عشر ملياراً آخر يلحق بخزينة الدولة من جرّاء تقليل العنب في أول نضجه . بينما لا ينفع بيع الكحول الدولة الفرنسية سوى ثلاثة وخمسين ملياراً من الفرانكات . وهكذا نلاحظ كم

---

(٣) المجلة الإيرانية : خواندنيها /٧/ ٢٦ .

أن شرب الخمور تضرّ النظام الحكومي في فرنسا اقتصادياً ؟! »[٤] .

بدأت منذ أمس إقدامات شديدة ضدّ الإدمان والسكر في روسيا ، وهـذه المكافحة ضدّ الكحول لإزالة آثارها السيّئة على الإقتصاد السوفياتي .

قبل أسبوعين كان رئيس وزراء روسيا قد قال : سنبدأ سريعـاً بإقـدامات ضدّ الكحول : وكتبت جريدة پرافدا تقول : إن شرب الكحول في روسيا قد زاد في عـدد الجرائم ونقص الإنضبـاط في المعامـل والمصانـع وكثـرة الغيبـة عن الأعمال .

ومن المترقب في المستقبل أن تتحقق إقدامات أقوى وأشد ضـدّ الشرب المفرط »[٥] !

وفقاً للدراسات الإحصائية فانّ كثيراً من السوانح الجوّيّة وسقوط الطائرات كان نتيجة لسكر الطيّار :

فقـد أعدّ الـدكتـور « كلمنت كـورن گـولـدن » الاخصـائي بعلم النفس الصنـاعي إحصائيـة من خلال الـدراسات التي قـام بهـا ، تُبـدي علل سقـوط الطائرات من دون ترديد ، وهو من خلال هـذه الإحصائيـة يعلن لنا : أن أكثـر السوانح والحوادث الجوية التي تحدث في الخطوط الجوية الأمريكية من جرّاء شرب الكحول . وإن الخسائر الجويّة بين أصحاب الطائـرات والهيلوكوبتـرات الخاصة أيضاً كثيرة . إن الـدكتور گـولدن بعـد الدراسـات اللازمـة في تقاريـر المـوظّفين الفنّيين ، والبحث والتنقيب في علل سقـوط الـطائـرات التجـاريـة والرحلات المدنية ، توصّل إلى نتيجة هي : أن أكثر الطائرات التي تسقط إمّـا هي على أثر عطل فنّيّ مفاجيء أو سكر الطيّار ومساعده .

وهذه النظرية تصدق بالخصوص على الطيّارين الأمريكيين أكثر من سائر نقاط العالم ، إذ أنّ أكثر الطائرات التي سقطت لحد الآن على أثر سكر الطيّار

---

(٤) عن المجلة الإيرانية : تندرست /٥/١٢ .

(٥) عن الجريدة الإيرانية : إطلاعات ، العدد : ١٣١٠٨ .

كان بها طيارون أمريكيين .

وإن العمليات الجراحية الإكتشافية التي أُجريت على أجساد الطيارين في الطائرات المتساقطة تُبدي في الأكثر : أن الطيارين الموصى إليهم قد شربوا عند إقلاعهم أو في أثناء الرحلة المشروبات الكحولية .

بدأ المسؤولون يفكّرون في الكشف عن أسباب الخسائر الجوية وبالتالي توصّلوا إلى هذا السبب الموحش وهو أن علّة العلل في سقوط كثير من الطائرات التي سقطت في السنين الأخيرة هي سكر الطيّار أو مغازلته مع بعض المضيّفات في الطائرة .

وعلى هذا فانّ الفجائع الجويّة في السنين الأخيرة ناتجة من الكحول وإغراء النساء ! فالكحول بعد أن أضرّت على الأرض كثيراً طارت إلى الجوّ مع شاربها لتحطّم عدداً من الأبرياء الذين لعلّهم لم يذوقوها في كل أعمارهم ولا مرة واحدة ، وكأنها تنتقم منهم لذلك »[٦] .

---

(٦) عن المجلة الإيرانية : خواندنيها ، العدد ٣ لسنة ٢٦ .

تناقضاتُ الحَيَاةِ في عالَمِنا المعَاصِر

إن الثورة الصناعية وتوسعة الرأسمالية أحدثتا شرخاً عميقاً في كثير من الشؤون ولا سيما حياة الناس المادية ، فانّ تقدم الصناعات والتقنية شكّلت الرساميل الكبرى بأشكال : الشركات الكبرى والكارتلات والتراستات ، فأصبح جمع من الناس لهم حياة خيالية وجمالية لهم كل شيء ، بل أعدّوا لكلابهم وقططهم وسائل الحياة بصورة لا تكاد تُصدّق . وفي المقابل جماعة لا يكفيهم واردهم لمعيشتهم الإعتيادية وهم محرومون حتى من وسائل الحياة الأولية .

انّ هذا الظلم العظيم الذي هو من نتاج المؤسّسات الإجتماعية لعالمنا المعاصر ، مؤلم جدّاً لذوي الضمائر الحيّة من المفكّرين .

إن أكثر الشقاء الذي كان في الماضي يصيب البشر في دائرة صغرى ، يصيبه اليوم في مقياس عالميّ واسع . إنّ كثيراً من المسائل في عالمنا المعاصر تتبدى بوضع مؤذٍ من حيث التناقض الفاحش بين الإفراط والتفريط ومن مختلف الجهات والجوانب .

إنّ السعي للتقدم الإقتصادي في الدول النامية ليس لا يتحقق بمقياس عالميّ ولعموم الناس فحسب ، بل إنّها تفكّر في تقدّم إقتصادها فقط ، حتى لو تم ذلك على حساب انحطاط سائر الشعوب والدول الأخرى وأورث ذلك توسعاً في الفواصل الطبقية .

إن الجوع والفقر اليوم يثيران المشاكل في كثير من نقاط العالم .

قالت الإحصائيات : « إن كيفية المعيشة العالمية تبدو في نقطتين :

١ ـ من الألفين والخمسمائة مليون إنساناً في الدول غير النامية ، يتألم خمسمائة مليون نفراً منهم من قلة الغذاء ، فلا يكفيهم ما يصلهم منه .

٢ ـ ألف وخمسمائة مليون نفراً منهم يتغذّون غذاءً ناقصاً غير كامل .

والنتيجة المباشرة أو غير المباشرة لهذه الوضعية أن هناك أكثر من ثمانية مليون شخصاً يموتون سنوياً من سوء التغذية وقلّتها ، أي الجوع .

وفي البرازيل بالخصوص يموت سنوياً مائتان وخمسون ألف طفل من سوء التغذية ، ويتضاعف هذا الرقم في الهند ، حتى أن المتبقي من مائدة عائلة أمريكية متوسطة الحال يكفي لتغذية أسرة هندية أربعة أيام ! »[1] .

وفي هكذا وضعية ، يقوم عدد من السفهاء المصابين بالغرور ومن أجل ضبط الأسعار وإيجاد الشحّة المصطنعة ، يقومون بكل قسوة وبلا رحمة بإعدام ملايين الأطنان من المواد الغذائية ، بإمكانها أن تنقذ ملايين الجائعين من خطر الموت المحتوم ، ولو منع هذا التبذير والإسراف والأعمال اللاّإنسانية لما بقي جائع في العالم ، وتشهد لذلك الإحصائيات المؤلمة التي انتشرت في الجرائد :

في سنة ١٩٦٠ انعدم مائة وخمس وعشرون مليون طناً من الخبز في المخازن الأمريكية وكان هذا القلم من الغذاء يكفي من أجل إشباع أكثر من خمسمائة مليون من الهنود لسنة واحدة . وفي كل عام تعدم أمريكا كميات كبيرة جداً من المواد الغذائية ، لا لشيء إلاّ للاحتفاظ بذخائرها وقدرتها . وقد زاد في السنين الأخيرة ضغط الأجهزة الامبريالية الغربية لاستمرار القحط والجوع الموجودين في العالم .

حينما تدّخر أمريكا المواد الغذائية في المخازن حتى الفساد ، لا تنشر

---

(١) عن المجلة الإيرانية : فردوسي ، العدد الصادر بتاريخ ٤٨/٧/٢٨هـ . ش .

وتوسّع الجوع فقط بل تجبر سائر الدول على أن تشتري وتبيع الأغذية بأسعار باهظة ، ومن خلال ذلك تضر باقتصادياتهم أضراراً بالغة . هذه الثروات التالفة التي تسرق من مختلف نقاط الأرض من قبل القوى المسيطرة على العالم ، هي أسلحة مؤثرة تستعمل لقتل ملايين البشر الأبرياء »[٢] .

كتب الفيلسوف الشهير « برتراند راسل » يقول : « بذلت أمريكا خلال أربع عشرة سنة أربع مليارات من الدولارات لشراء فاضل الحنطة من الفلاحين ، وقد بقيت ملايين الأطنان من الحنطة والشعير والذره والجبن والزبد في مخازن الحكومة الأمريكية حتى فسدت ، وذلك من أجل أن يحتفظوا بالأسعار في الأسواق العالمية على ما هي عليه . والآن هم يلوّثون جبالاً كبيرة من الزبد والجبن كي لا تتنزّل أسعار المنتجات اللّبنيّة » .

إن لاستمرار هذا الوضع مستقبلاً موحشاً ، إلاّ أن تتغير كيفية الحياة لهؤلاء الناس ، وليس الباعث الأصلي على هذه الأعمال المخجلة الشيطانية شيء سوى الإنحطاط الأخلاقي والفقر الشديد في ذلك ، فالحضارة الصناعية من دون الإيمان والأخلاق يورث وضعاً كهذا .

كتب العالم الإجتماعي والفيلسوف الشهير « سوروكين » يقول :

« مع التوسّع في الوسائل والأدوات الفنية والصناعية والتقنية ، نشعر نحن أكثر من أي زمان آخر أننا نعيش فقراً وإعوازاً أخلاقيّاً وإنسانيّاً ، والمجتمعات الصناعية المتقدمة لا تقدر على دعوى التفوّق الأخلاقي بالنسبة إلى المجتمعات الفقيرة والمتأخرة . إن الحضارة المادية اليوم مليئة بالتناقضات بين الأقوال والأفعال ، وبين الأفكار والإقرار ، وبين العقل والعاطفة .

فالثقافة المادية قد أعلنت في مختلف إعلاناتها عن حقوق الإنسان ، أعلنت عن مساواة كل البشر بصورة قطعية ، ولكنّها عمليّاً تحمل في طيّاتها أنواع التمييز والظلم اللاّأخلاقي والفكري والديني والإقتصادي والسياسي والنفسي والإجتماعي والعائلي ، لا على نفسها وفي جوّها ومحيطها وبيئتها فحسب بل تعمل بكل ذلك في كل مجال ، فهي تدّعي الديموقراطية ، وتجعل شعارها

---

(٢) المجلة الإيرانية : روشنفكر : ٧١٩ .

السياسي : حكم الشعب بالشعب ، ولكنّها عمليّاً تفسح المجال لحكومة المستكبرين والطغاة إلى أعلى مستويات الديكتاتورية الفردية والاستبدادية .

هي في الكلام تطالب بسعادة الجميع ، ولكنها عمليّاً توسّع من الشعور بالهزائم والقلق والإضطراب والبؤس والتعاسة والشقاء . إن الحضارة المادية تطرد في تعاليمها حبّ الذات إلى درجة الرضى عن النفس ، وترغّب في حبّ الخير للغير والروح الجماعية ، في حين أن كثيراً من أنواع الرضى عن النفس وإهمال مصائر الآخرين والقسوة الفردية والجماعية ، والإستثمار النفعي والسلطويّ ، قد تبدّي أكثر من أيّ زمان آخر »[٣] .

« مع أنّ الدول النامية لا تشكلّ إلاّ خمسة وعشرين بالمئة من نفوس العالم مع ذلك تمتلك خمسة وثمانين بالمئة من ثروات العالم ، والدول غير النامية مع أنهم خمسة وسبعون بالمئة من نفوس العالم مع ذلك لا يمتلكون سوى خمس عشرة بالمئة من ثروات العالم ، ومع مرور الزمن تزداد هذه النسبة . وفي نفس هذه الدول الثريّة ترى الثروات الضخمة في أيدي عدّة معدودة : ففي أمريكا أثبتت لجنة تحقيق لمجلس الشيوخ الأمريكي في سنة ١٩٤٦ أن : « خمسة بالمئة من الشركات الأمريكية العظيمة تمتلك أكثر من ثمانين بالمئة من رساميل المصنوعات ، وأكثر من ستين بالمئة من كل العمال في الصناعات لهم ، ولهم أربع وثمانون بالمئة من الأرباح الخالصة لجميع المصانع والمعامل »[٤] .

وكتب رئيس المنظمة العالمية للتغذية والزراعة في الأمم المتحدة ، يقول : « لا زال يعيش ما يقرب من ثلث سكان العالم في حال جوع دائم ، ولا يحصل المليار ونصف المليار من البشر معاشاً كافياً لنجاتهم من براثن هذا البلاء الذي هو أوحش المصائب الإجتماعية »[٥] .

---

(٣) بالفارسية : خداوند دو كعبه : ١٤٦ ـ ١٤٥ .

(٤) بالفارسية : جامعه شناسى ساموئيل كينگ : ١٥٧ .

(٥) بالفارسية : انسان گرسنه : ژوزوئه دو كاسترو : ٢٦٨ .

وفي خلال بيانه لعلل جوع الملايين من البشر المحرومين في العالم قال كاسترو :

« تككّمت مرّة مع « ترومن » الرئيس الأمريكي الأسبق وطلبت منه ليتخذ قراراً يقضي بأن يجعل الفاضل من الإنتاج الزراعي والغذائي الأمريكي تحت تصرّف مركز دولي يختص بتوزيع هذه المواد بين المحرومين في العالم . فقال الرئيس الأمريكي : انّه لا يتمكن من الموافقة على هذا الإقتراح بصفته رئيس الجمهور الأمريكي ، ذلك أنّ هذه المساعدات لا تنفك عن الأهداف والمقاصد السياسية » .

اَلتَوَحُّشُ في عَهدِ التَمَدُّن !

وان كان بعض علماء الإجتماع يرون أن الحرب لا تنفك عن حياة البشر ، وأن حياة البشر منذ البداية كانت توأماً مع المصادمات والحروب وسفك الدماء . . . ولكن المحققين من علماء الإجتماع وعلماء النفس يردّون هذه النظرية ويقولون : ليست الحروب من الظواهر التي لا خلاص للمجتمعات البشرية عنها ، بل هذه هي الإنحرافات الأخلاقية والإضطرابات الإجتماعية والإقتصادية (المالية) التي تجرّ إلى الحروب الدموية . إذن فيجب أن نبحث عن علل الحرب خارج إطار الطبيعة البشرية ، وبالإمكان أن نزيل عللها وموجباتها بالتعليم والتربية الصحيحة وتنظيم الأوضاع الإجتماعية وترتيبها ، وبذلك نجنّب البشرية عن الصدمات العظيمة التي تصيبها من هذه الناحية .

على الرغم مما حصل للناس في عهدنا هذا من الإنتصارات المشرقة والتي لا مثيل لها من قبل في العلوم والصناعات ، فانّ الحروب الدموية والمحطّمة التي تقوم في القرن العشرين للتوسّع والمطامع المادية وإشباع الميول الطاغية لجمع من الأفراد ، من أبعد حروب التاريخ عن الإنسانية . فلو ألقينا نظرة قصيرة على صحيفة الأعمال السوداء لهذه الحروب والحوادث التي وقعت في مدة هذه السبعين سنة التي مرّت من القرن العشرين[1] ، لظهر لنا أن

---

(١) بالنسبة إلى عهد تأليف الكتاب لا تعريبه .

الجرائم التي صدرت في هذه المدة القصيرة من الإنسان المتحضّر لعلها أكثر من كل الجرائم التي وقعت في تاريخ البشرية المليء بالمجريات والحوادث .

إن العالم الغربي بما له من وسائل صناعية وقنابل ذريّة تدمّر البشرية بقوّتها العلمية ، وتبدّل المناطق العامرة من وجه الأرض إلى خراب ودمار ، وان ضجيج المظلومين يصك سمع السماء من خلال ما للغرب من ضعف فكري وسقوط أخلاقي .

إن الحربين العالميتين الناتجتين من تناقض المنافع المادية للدول الإستعمارية الكبرى انتجتا للبشرية نتائج مشؤومة ومؤسفة لا يمكن غسل عار القسوة والجريمة فيهما عن حجر مؤجّجي نيرانها أبداً . أرقام الإجرام فيهما كما يلي :

استمرت الحرب العالمية الأولى ١٥٦٥ يوماً ، والذين قتلوا في ميادين الحرب يبلغون أكثر من تسعة ملايين نفراً . وعدد الجرحى المعوّقين فيها حدود العشرين مليوناً . وعدد المفقودين فيها أكثر من خمسة ملايين . وخسائر المدن أكثر من مجموع الخسائر في النفوس والأرواح في سوح القتال . وقد خمّنوا مصاريف هذه الحرب بأربعمائة مليون دولاراً ، ووفقاً لمحاسبة « مؤسسة الأوقاف للسلام العالمي لدايل كارنيجي » كان من الممكن أن يُبنى بهذه المصاريف لكل من عوائل بريطانيا وإيرلندا واسكتلندا وأمريكا وروسيا وألمانيا وكندا وأستراليا والبلجيك دوراً محترمة مع تجهيزها بما يكفيها من أثاث المنزل ![٢] .

وانتهت الحرب العالمية الأولى بما كان فيها من تلفات وخسائر جسيمة عظيمة . وما كان الصُراخ والعويل والأنين منقطعاً من الباقين على الماضين ، ولا أصبح الخراب والدمار معموراً حتى كشّرت الحرب العالمية الثانية أنيابها وكشفت النقاب عن وجهها الكالح الموحش ! وفي فترة قليلة لوّثت العالم بنيرانها ودمائها .

---

(٢) بالفارسية : جهان در قرن بيستم .

وفي هذه الحرب العالمية الثانية كان القتلى خمس وثلاثين مليوناً ، وحُرم عشرون مليوناً من الأيدي والأرجل ، وسفك على الأرض سبعة عشر مليون ليترا من الدماء ، وأصيبتْ عوائل البشرية باثني عشر مليوناً من سقط الجنين . وتهدّم في هذه الحرب ثلاثة عشر مليون مدرسة ابتدائية وثانوية وستة آلاف مختبر علمي ! وانفجر ثلاثمائة وتسعون ملياراً من القذائف والقنابل في الفضاء !

وفي سنة ١٩٤٥م قُذفت قنبلتان صغيرتان من قبل الأمريكان في حربها مع اليابان إحداهما على مدينة « هيروشيما » والأخرى بعد ثلاثة أيام على مدينة « ناكازاكي » فانعدم في هيروشيما سبعون ألف نفر رأساً وجُرح سبعون ألفاً آخرون ، وفي مدينة ناكازاكي قتل أربعون ألف نفر وجرح نفس العدد . تهدّمت الدور وذهب كثير من الأطفال والبهائم ضحايا لهذه الفاجعة . وبعد خمسة أيام استسلمت اليابان أمام الأمريكان بلا أي شرط .

وفي أواخر الحرب العالمية الثانية انتشر خبر في الجرائد بهذا المضمون : « طلبت الحكومة الروسية من مصانع أمريكا أن تصنع لروسيا أربعة ملايين رِجْلاً صناعيّاً للجنود الروس المعوّقين من ناحية أرجلهم في الحرب ! ومن هذا الخبر الموحش يُعلم مقياس سائر ما فقد من الأعضاء في هذه الحرب . ولا سيّما إذا علمنا أن هذه الطلبية الروسية من أمريكا كانت بعد ما قامت به المصانع الروسية نفسها من صنع الأرجل الصناعية ، ولكنها إذ لم تقدر على تأمين كل ما تحتاجه توسّلت بأمريكا في ذلك . وأيضاً بالإمكان أن نخمّن من هذه الطلبة الروسية من أمريكا بمقياس خسائر النفوس ونقص الأعضاء في جنود الممالك الأوروبية ما عدا روسيا ، فنعلم بذلك أن أيّ وضع جنوني تبدّى على أثر هذه الحرب » .

وإن القنبلة التي أُسقطت في سنة ١٩٤٥م على هيروشيما وناكازاكي كان فيها ٢٣٥ وحدة يورانيوم و٢٢٣ وحدة پلوتونيوم و٣٣٥ ألف من المواد المتفجّرة « تي ان تي = T.N.T » بينما القنبلة الذّريّة العادية اليوم أقوى من القنبلة التي أُسقطت على هيروشيما بخمسة آلاف مرّة ! والقنبلة الهايدروجينية أقوى من القنبلة الذّريّة بخمسة ملايين مرّة ! وان قنبلة ذرية واحدة تكفي لتجعل مدن

نيويورك وباريس ولندن وموسكو متساوية مع التراب . ولا حاجة لنقل القنبلة أن يعبر بالطائرة الحاملة لها جنديٌ فدائيّ من الخطوط الدفاعية للعدوّ ، بل من الممكن أن يقذفوا بالقنبلة بالصواريخ الأتوماتيكية حتى ألفي ميل ! وكل تجربة نووية تؤثر في مسافة تقرب من سبعة آلاف ميل .

ووفقاً لدراسات الدكتور « لينوس پولينگ » العالم الكيماوي الأمريكي الشهير ، فانّ خطر القنابل « اليگاتينية » بحيث يفني بعشرة آلاف منها في الساعات الأولى مِن الحرب مائة وخمسة وسبعون مليوناً من ساكني الدول المكتظة بالسكان .

وبقي أن نذكّر بأن أمريكا تمتلك في الحال الحاضر مائتين وأربعين والإتحاد السوفياتي يمتلك ثمانين ألفاً وبريطانيا ما يقرب من خمسة عشر ألفاً من القنبلة المگاتينية !!

وكتب أحد الأعضاء السابقين للجنة الجيش الأمريكي باسم « نيومان » يقول بشأن الحرب الآتية :

لا تختص خسائر الحرب الآتية بالجنود المحاربين ، بل لا تنتهي تلك الحرب إلّا بانتهاء جميع الأمم والشعوب حتى النساء والأطفال ، ذلك أن عقول علماء التكنولوجيا والفيزياء قد وضعت تكاليف الحروب عن كاهل الإنسان وفوّضتها إلى الآلات الحربية والتراكيب والتشكيلات الفيزياوية ، ولا تفرّق هذه الأسلحة الحربية غير ذات الشعور بين الأفراد المحاربين وغيرهم .

واليوم لا يتقابل الأعداء في ميادين الحروب أو القلاع أو سوح القتال ، بل إن سوح القتال توسّعت حتى شملت المدن والقرى ، ذلك أن النظريات الحديثة تقول : ليست القوة الأصلية للعدو في جيوشه ، بل في مدنه العامرة وأسواقه التجارية ومصانعه ومعامله . فإذا اتّفقت حرب فلا بدّ أن تُقصف هذه الأماكن بالقوة الجوية وبالقنابل الحاملة للمواد المتفجّرة والغازات السامّة والميكروبات المولّدة لجراثيم الأمراض .

كل هذا البؤس والتعاسة والشقاء الذي ضلّل على رؤوس الناس على أثر

هذين الحربين وأغرق العالم في لجج البلاء والويلات ، لم يكن لها أي أثر في أخلاق الشعوب الغربية ، التي كانت ولا تزال سكرى من سكر الثروة والمشروبات الكحولية ، ولم تعتبر من هاتين التجربتين المرّتين والمؤلمتين الماضيتين . وفي العصر الحاضر تستعر أوار الحروب كل يوم في زاوية من زوايا العالم ويخاف أن تتبدّل هذه الحروب الاقليمية إلى حرب كبيرة عالمية ، فتؤدي بالحضارة والإنسانية رأساً .

إن الأمم المتحضّرة اليوم تصرف قسماً عظيماً من الذخائر الفكرية والقوى البدنية والرساميل التي يجب أن تصرف في سبيل راحة الجميع ورفاهيتهم . . . تصرفها في إعداد أخطر وسائل الفناء والدمار ، ولم يدّخروا كل هذه الأسلحة الخطيرة التي تبتلع كل يوم مبلغاً لا يُستهان به من ميزانيّتهم من أجل التسلية واللعب .

يقول الفيلسوف الإنجليزي « برتراند راسل » : « هذه الدول التي تتسابق اليوم لإطلاق الصواريخ وإرسال الأقمار الصناعية إلى القمر وحول القمر ، ستكون عاقبة هذه المسابقة لإفناء العالم . ولو كانت الحرب والنهب والقتل في القديم من ضروريات المجتمع فانّها اليوم عائق من عوائق تقدم المجتمع ، وهي تعد اليوم العُدة وأسباب الشقاء ووسائل الاضمحلال وبالتالي انقراض البشرية للمستقبل القريب جداً ! بل حتى إن المسابقات الشائعة اليوم في الإنتاج الإقتصادي بنفسها هي إحدى عوامل انعدام المجتمع البشري في المستقبل الآتي » .

وجاء في المجلة الإيرانية : « تحقيقات اقتصادي » : صرف العالم في النصف الأول من القرن العشرين أربعة مليارات دولار على الأسلحة والحروب ، وكان من الممكن بهذه الأموال أن تؤمّن مصاريف الأطعمة لكل الأفراد على وجه الأرض مجّاناً في طيّ هذه الخمسين عاماً ، وأن يُبنى بها لخمسمائة مليون عائلة أي ثلثيّ سكان العالم دورٌ مريحة .

هذا ونحن نعيش في عالم لا زال يواجه ثلثا أهله مشكلة الجوع أو سوء التغذية ، ولا زال ثلثاه أميّين ، في هذا العالم يُصرف سنوياً مائة وعشرون ملياراً

من الدولارات على المصاريف العسكرية . وبتعبير آخر : يصرف في كل يوم وليلة ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين مليوناً من الدولار على المصاريف التخريبية . وحسب تصديق كبار الإخصّائيين في الإقتصاد العالمي يعادل هذا المبلغ ثلثي دخل الدول غير النامية .

وهذه المبالغ كذلك تعادل قيمة كل البضائع الصادرة في العالم ، وهي نصف كل الرساميل التي ترصد سنوياً في العالم .

ووفقاً للمعلومات التي حصلت من قبل الإتحاد العالمي للعمال « فانّ سبعين بالمئة من الكادر العلمي يعملون في الأعمال أو للأعمال الحربية أو العسكرية » .

ان الأسلحة التخريبية والمهلكة موحشة جدّاً بحيث لو اندلعت حرب ثالثة ، لما بقي هناك أيّ معنى للإنتصار ، إذ لا يبقى في تلك الحرب مغلوب ولا غالب بل علينا أن نقرأ الفاتحة على البشرية في مدة قصيرة جدّاً !

يقول العالم الروسي الشهير « بي تريم آسوروكين » : « إن المسألة الأساسية في زماننا هذا ليست في الحقيقة هي أن « الرأسمالية » هي الأفضل أم « الشيوعية » أو « القومية » أفضل أم « الاممية واللاّقومية » بل ان المسألة الواقعية لعصرنا الحاضر هي أن تستخلف مرحلة أخرى من الثقافة الإنسانية في مقام الثقافة المادية الراهنة . ولقد ذكّرت بهذا كراراً : أن زماننا هذا هو عصر النقلة الحضارية والثقافية نقلة وتطوراً لا يمكن الإجتناب عنه فهو واقع لا محالة ولا جَرمَ .

لقد سمعنا في طوال الحرب العالمية الأولى والثانية أنّ كل فرقة كانت تدّعي أن لو انعدمت الفرقة الأخرى لاستقرّ الصلح والسلام ، وفي الحرب الأولى كان كثير منّا يظنون أن لو انعدم كل من امپراطور ألمانيا أو ملكة بريطانيا لانتهت الحرب . وفي الحرب الثانية كذلك كانوا يتصوّرون أن لو لم يكن « هتلر » أو كان يستقيل أو يُقتل ، أو كان يموت « چرچيل = تشرشل » بسكتة قلبية ، أو لم يكن يولد « موسوليني » أو كان « هيرو هيتو » يتنزّل عن مقام الألوهية في اليابان ، أو كان « تروتسكي » بدل « ستالين » يمسك بزمام أمور

روسيا ، لكانت الأمور تجري على وفق المراد ولما كانت الحرب تبدأ أبداً !

بينما انعدم الآن كلهم وشبح الحرب لا زال مخيفاً مرعباً مرهباً وسخونة الحرب لا زالت ملتهبة ، والبشرية لا زالت قلقة مضطربة للحرب أكثر من ذي قبل ، ذلك أنه في الحقيقة لم يكن قيصر ويلهلم وهتلر وموسوليني وتشرشل وستالين الذين أشعلوا فتيل القلق في القرن العشرين ، بل هم أيضاً كانوا أولاد القلق وأدواته ، ولو لم يكن أولئك لكان يبدو بدلهم هتلر وموسوليني وستالين وروزفلت وتشرشل آخرون أو أخشن منهم بكثير .

إنّ هؤلاء كانوا بمثابة بثورات متقيّحة في جسد قد توسّخ دمه ، فمن الممكن أن نضغط عليها ونزيلها ولكن سرعان ما تنبثق بمكانها بثور أخرى ، اللّهمّ إلّا أن نقوم بعلاج المريض علاجاً أساسياً لإصلاح الدم فيه »[٣] .

هذا العالم الذي يشكّل « جمعية حماية الحيوانات » للمنع عن الظلم بالحيوان ، والعالم الذي يفيد من قلوب الموتى والقلب الصناعي لإنقاذ المرضى المتألمين ، هذا العالم يلقي القنابل المحرقة على رؤوس الناس العُزّل ليل نهار ، ويبعث بالأسلحة المتطورة إلى فم الموت والفناء جماعات وجماعات . . .

هذا العالم الذي بتأسيسه للأمم المتّحدة والمجتمع الأوروبي لحقوق الإنسان يصف نفسه بعداوة الظالم وحماية المظلوم ، يشهد كل يوم موت ألوف العجزة الذين تُقبض أرواحهم من شدة الجوع وقلّة الغذاء أو قلة سوء التغذية ، أو من يحترق بنيران الحروب نتيجةً للسياسات المتناقضة .

أليس أهل هذه المجالس والجمعيات المختلفة التي تشكلت بعنوان الدفاع عن حقوق الإنسان ، هم ممن يشعلون نيران الحروب ؟! أليس هؤلاء الذين يقولون علينا أن نحلّ خلافاتنا بالطرق « الديبلوماسية » ويتحدّثون دائماً عن السلام العالمي يحمّلون الآخرين ضغوطاً غير منصفة ولا إنسانية تحت تلك العناوين ؟!

---

(٣) بالفارسية : خداوند دو كعبه : ١٥١ ـ ١٥٠ .

والقادة الدينيون المسيحيون يتشبّثون بكل ما لذّ وطاب لشعوب العالم ويجعلون ذلك وسيلة لتبشيرهم الديني ، ألا وهو إرادة السلام وتقبيح الحرب ! إنّ هذا الشعار الذي يهتف به قادة دين السيد المسيح عليه السلام لا أساس له من الصحة ! فلا معنى للسلام بنفسه ، فلو كان من المقرّر أن نحارب الحرب وسفك الدماء فلا بدّ أن نكافح عوامله وأسبابه ثم إن شيوخ أوروبا لم ينسوا بعد الذكرى المُرّة من الإنسجام المخزي بين الكنيسة الرومية مع المجرمين النازيين والفاشيّين !!

التَميِيزُ العُنصُرِي

إنّ فـرضية « التمييـز العنصري » المستنـد إلى فكـرة أحـد الكتّـاب بـل المفكّرين بل الفلاسفة الذين لا رأي لهم في مساواة الشعوب . . . وإنّ مروّجي دعاية « التفوّق العنصري » يطالبون بانتصار أفضل وأقوى العناصر في العالم ، وعلى العناصر الضعيفة والدنيئة أن تتّبع وتطيع من أولئك السابقين الأوّلين !

فضلاً عن أن هكذا تفكير لا ينسجم مطلقاً مع فلسفـة الحياة الإنسـانية وأصول الحرية الفردية والإجتماعية ، وأنها هي بنفسها توجب الإنحطاط في نموّ الأمم الضعيفـة . . . فإن كثيـراً من المحققين والفلاسفـة المعاصـرين لا يرون التفوّق العنصري بالنظرة العلمية والتاريخية إلاّ أمراً موهوماً مختلقاً لا أساس له من الصحة اطلاقاً .

« وليُعلم أن بعض الباحثين بناءً على أساس أنه لم يوجد إلى الآن عنصر خالص ، وأن البحوث العلمية لم تبيّن ولم تسلّم بأمر العنصر أبداً . . . يرون أن قصة العنصر الآريّ ليست أكثر من أسطورة ، وليس من المسلّم به بأي وجه في التاريخ أنه كان هناك عنصر بـاسم العنصر الآري واقعـاً ، وانّما المسلّم بـه أن هناك لغات أو لغة تُسمّى باللغة الآرية ، وفي الغالب كانت عناصر مختلفة تتكلم بلغة واحدة »[1] .

---

(١) بالفارسية : تاريخ أديان : ٢١٩ .

كـان من علل الحرب الـدّموية العالميـة الثانيـة شيوع فكـرة « القـوميـة الإشتـراكية » في ألمـانيا الهتلريـة التي كانت قـد تأسّست على أسـاس التفوّق العنصريّ ، كان هدف هتلر توسعة رقعة أراضي ألمانيا وإيجاد دولة قوية مقتدرة « جرمنية » في مركز أوروبا . هذا النظام جذب إلى نفسه القوى الوطنية والقومية من خلال تشكيل الإجتماعات والـدعايـات الواسعـة والممتدة ، واستفـاد منها لصالح مقاصده التوسّعية الجائرة .

يقول الدكتور « غوستاف لوبون » : « إن إحدى المبادىء التي لعبت دوراً مهمّاً في المجتمعات هو المبدأ العنصريّ ، وكان السيـاسيّون القـدماء يـولونـه أهمية كبرى حتى أنهم كانوا يجعلونه محور سياساتهم ، وكان مبدأ المنـازعات والمخاصمات الدموية ، وبالتالي فرض صلحاً مسلّحاً ، وفي العاقبة انجرّ إلى دمار لا نهاية له .

والذي بعث على انتشار هذا المبدأ هـو وهم أنّ أقوى وأبعـد الدول عن المخاطر هي الدولة والأمة التي تمتلك أراضي أوسع ونفوساً أكثر بينما هكـذا شعوب أقرب إلى أن تُغلب على أمرها »(٢) .

ولا يـزال لطريقـة التفكير القـائلة بامتيـاز الأبيض على الأسود وبـالتقييم بالمقاييس العنصرية البالية نفوذ قويّ حتى في أكثر دول العالم تقدماً وحضارة ، فاللون الأسود في مهد الحضارة الأوروبية جريمة ، ويُحرم السـود من كثير من أنواع الحريات والحقوق الإنسانية . وفي بعض الـولايات المتحـدة الأمريكيـة ليس يمنـع زواج الأسـود بـالبيضـاء فقط بـل إن مـدارس البيض وجـامعـاتهم ومستشفيـاتهم تختلف عن مدارس السـود وجامعـاتهم ومستشفيـاتهم ، ويمنـع دخول السود إلى المجامع العامة والمـطاعم للبيض ، ولا يحق لهم أن يقعدوا في البـاصات ووسـائط النقل العـامـة إلى جـانب البيض على مقعـد واحـد . والمخجل أكثر من ذلك أن السود لا يحق لهم الدخول إلى بعض الكنائس لاداء المراسيم الدينية والإشتراك في العبادة !

---

(٢) بالفارسية : مبانى روحى تطور ملل : ١٩٤ .

وقد أعلن الرئيس الأمريكي الأسبق في المجلس الأمريكي في سنة ١٩٦٣م يقول : « إن كل طفل يولد في أمريكا من السود ، فله نصف حظ الأبيض في أن يدخل إلى الثانوية ، وثلث حظّ الأبيض في أن يجد الدرب إلى الجامعة ، وثلث حظ التوفيق للأبيض في أن يصبح فنّياً أخصائيّاً ، بينما له ضعف حظّ الأبيض في أن يبقى عاطلاً بلا عمل من دون اختصاص ذلك بولاية خاصة من الولايات المتّحدة الأمريكية !

وعلى أساس معلومات المجلة الإيرانية « أخبار وگزارشهاى جهان » يُحرم السود في إحدى عشر ولاية أمريكية من حق الرأي وحق اختيار محل السكن ، ونوع المطعم ، والعمل ، وبكلمة من جميع شؤون الحياة . وفي كل مدارس الأباما ، وميسيسيبي ، وكارولينا الجنوبية لا يوجد أسود واحد كنموذج !

ومنذ سنة ١٩٥٤ حيث ارتأى مجلس القضاء الأعلى الأمريكي إمكان إفادة السود من المدارس متساويين مع البيض ! انما سُجّل ٤٪ من السود في مدارس البيض ، وفي كثير من الموارد لم يتم تسجيل اسم أسود واحد إلّا بالمجادلة ومداخلة القوى البوليسية »[٣] .

إن البيض في نضالهم ضدّ السود يرتكبون أوحش الفجائع وأنواع الظلم ، وتصدر منهم أعمال تذكّر الإنسان بجرائم القرون الوسطى وجناياتها وضلالاتها .

ولم يكن بإمكان الإعلان عن حقوق الإنسان أن ينهي هذا الظلم ، فنرى العالم على عهد تسخير الفضاء يغوص في العصبيات القومية والعنصرية ، وان اختلاف الألوان كيف استطاع أن يفصل بين بني الإنسان بعيداً بعضهم عن البعض الآخر كل البعد البعيد !

يقول الفيلسوف الشهير « سوروكين » : « أنا لا أتفق مع الشعر القائل : الشرق شرق والغرب غرب ! ولا يصل أحد هذين إلى الآخر ! . ولماذا لا

---

(٣) عن المجلة الإيرانية : تهران مصوّر ، العدد : ١١٧٤ .

يصل ؟ أي فرق بين بني البشر ؟ بعد ألفي سنة من دعوة السيد المسيح إذ قال : إن الفضيلة والإنسانية إنّما هما بالنية والعمل الصالح . نأتي نحن البشر المتحضّرين أبناء القرن العشرين نرى أن فضيلة الإنسان وتفوّقه منوط بنوع دمه ولون جلده وبشرته ؟!

كانوا يقولون : إنّ هتلر كان مذموماً لأنه كان يرى التفوّق العنصريّ ، ونحن الآن أينما ننظر نرى الجوّ مليئاً بصغار من نوع هتلر ، لو تصل أيديهم لفعلوا ما يبيّضون به وجه آلهة النازيين اللعين : أنظروا إلى جنوب أفريقيا ! أنظروا إلى نفس أمريكا : فكل مكان مليء من التمييز العنصريّ ! أنا أرى أن حربنا في فيتنام حرب عنصرية اندلعت على أثر شعور تفوّق العنصر الغربي بالنسبة إلى العنصر الأصفر الآسيوي »[٤] .

في أفريقيا الجنوبية يشكلّ السود ثلاثة أرباع نفوس هذه البلاد ، وفي نفس الوقت يستمر البيض في سياسة التمييز العنصري بكل شدة وخشونة ، وتبتني سياسة التمييز العنصري في هذه الدولة على قانون باسم « الاپارتايد » يميّز بين السود والبيض تمييزاً جسدياً تامّاً .

بموجب هذا القانون يعيش البيض منفصلين كلياً عن السود وكذلك أيضاً عن الهنود المهاجرين الملوّنين ، وهذا كلّه مقيّد في سجلّات هوياتهم وجنسياتهم ، فجنسية الأفريقي الجنوبي بإضافة تعيينها لهويّة صاحبها تعيّن عنصره أيضاً ، والعناصر المختلفة لا تسافر إلاّ في باصات وقطارات مختلفة ، ولا يذهبون إلاّ إلى كنائس ومطاعم منفصلة ، ولا يستعملون ولا يفيدون إلاّ من مواقف للسيارات والهاتف يختلف بعضها عن بعض ، ويرقدون في مستشفيات متفاوتة ويُدفنون في قبور منفصلة !

ويُمنع في هذا البلد زواج السود من البيض ويؤدّب المتخلّفون بطريقة وحشية . وليس لغير البيض أن يعملوا في مناطق البيض عملاً فنيّاً بل يوظّفون بأعمال حقيرة وبأجور زهيدة !

---

(٤) بالفارسية : خداوند دو كعبه : ١٩٨ .

يهمّ أفريقيا الجنوبية التفصيل الطبقي العنصريّ جدّاً ، حيث أن ذلك مما يعيّن حدود اختياراته وحرياته : فأين ؟ وكيف يعيش ؟ ومع من يتزوج ؟ وماذا يعمل ؟ وبأي نوع من التعليم والتربية يتمتّع ؟ ولذلك قد يصل عدد السجناء في هذا البلد إلى رقم نصف مليون سجين أسود .

وبالنظر إلى القضاء : فإنّ مصير السود بيد القضاة البيض من دون أن يحميهم أيّ قانون ! حتى أن الجرائد نشرت خبراً بشأن رأي إحدى المحاكم في هذه البلاد ، بهذا المضمون :

ولدت بنت سوداء في عائلة بيض في إحدى مدن أفريقيا الجنوبية ، وبما أنّه لا يحق قانونياً هناك لأسود أن يكون عضواً في عائلة بيض لذلك أصدرت محكمة عنصرية بأفريقيا الجنوبية رأياً يقول : يجب أن تطرد هذه البنت من هذه العائلة ، وعليها أن تترك حيّ البيض وتذهب إلى حيّ السود في « جوهانس بورك » نعم لها أن تُستخدم في بيت أبيها كخادمة !!

وبقي والدا هذه البنت متحيّرين لهذه الجريمة الكبرى ، وقال أبوها : إذا واجهت محاولتي ـ لإثبات حق بنتي في بيتي ـ الفشل ، ولم ينقذني أعلى مرجع قانوني في أفريقيا الجنوبية عن هذا الرأي اللاإنساني ، فسأودع ابنتي عند من يقبلها خارج هذه البلاد »[٥] .

وإنّ حادثة « شارپ ويل » نموذج من جرائم البيض بالنسبة إلى السود بأفريقيا الجنوبية :

« حدثت مظاهرات في يوم ٢١ مارس ١٩٦٠ في عدة مدن من أفريقيا الجنوبية لغرض الإعتراض والإحتجاج على الزامهم بحمل جنسياتهم معهم . « وفي « شارب ويل » عبر عدد من الأفريقيين من أمام مخفر الشرطة بكل هدوء حتى لا يوقفهم الپوليس بجريمة عدم حملهم لجنسياتهم ، ولكن الپوليس بدل أن يوقّفهم أصابهم بوابل من الرصاص ، فقتل تسعة وستون وجُرح مئة وثمانون

---

(٥) عن الجريدة الإيرانية : كيهان ، العدد : ٧٠١٣ .

شخصاً »[٦] .

فما اسم كل هذا السلوك اللاّإنساني والوحشي ؟ وماذا يستلهم من العواطف البشرية ؟ أفهل لهم من وراء كل هذه الجرائم والأعمال الخشنة غرض آخر سوى رقّيّة هذا الشعب ؟! أفليس إجبار شعب على أن يتّبع جمعية خاصة من حقيقة العبودية ؟! فأيّ عبودية ورقّيّة هذه التي أُلغيت في العالم إذن ؟ وأيّة يد عادلة تلك التي شطبت على صفحة قانون الرقّيّة ؟!

كتب الكاتب الأمريكي الشهير « هاري هاريود » في كتابه : « حرية الزنوج » يقول :

صحيح أن الرقّيّة كما كانت في القرون الوسطى قد انتهت ، ولكنّها باقية على شكل نظام الطبقات في أنظمتنا الإجتماعية ، ويجهدون ليبقى السود في المستويات النازلة .

قد تسحق حقوقهم في طيّ القوانين الظالمة ، وقد يُحكم عليهم ويقتلون من دون إذن الدولة ولا رعاية ظواهر آدابها ونظامها » .

(٦) عن الجريدة الإيرانية : إطلاعات : ١٣١٤٩ .

تضعضعُ نظامِ الأُسرة

إن الحياة العائلية التي هي شطر صغير من الحياة الإجتماعية ، بل هي أساس المجتمعات الكبرى وجذورها ، هي بحاجة إلى المحبة والعواطف أكثر من أي شيء آخر . إنّ مختلف فصول حياة الإنسان تبدأ من محيط المنزل وتنتهي إليه ، وإنّما يتّصف محيط المنزل بأنه عُشّ السعادة والراحة والدّعة فيما إذا دارت حياتهم حول محور العلاقة القلبية والإعتماد المتبادل والطمأنينة المتقابلة ، وظلّل الإخلاص على كل سلوكهم ومعاشراتهم . وبكلمة : كلّما كانت الأواصر الروحية والأخلاقية بين أعضاء الأسرة أقوى كانت السعادة أكثر بنفس النسبة في ذلك المحيط ، إذ الإنسان بحاجة ماسّة في الساحة الصاخبة للحياة إلى فراغ البال وراحة الفكر والخيال .

كان لمحيط الأسرة في الغرب قبل ثورتهم الصناعية حيث كانوا يعيشون مراحل الحياة البسيطة والساذجة ، صفاؤه ولطفه الخاص ، كان الرجال يزاولون الأعمال خارج الدار لتأمين المعاش ، والنساء يفضّلن إدارة البيت وتربية أولادهن على كل شيء آخر ، ولم يكن نشاطهنّ يتجاوز محيط الأسرة .

إن نمو الصناعات ألزم الحاجة إلى أيدٍ عاملة كثيرة ، فكان من ثماره الأولى أن اجتذب الرجل والمرأة والكبير والصغير إلى مراكز الصناعات والتجارات والإدارات وسائر المؤسسات العامة والحكومية ، وقلب الأوضاع

المعيشية المدنية ، وأوجب فعّالية ونشاطاً أكثر للعيش الأفضل ولتجميل ظواهر الحياة .

ونتيجةً لهذا التطوّر والتفرقة التي حدثت بين أعضاء الأسرة وهنت العلاقة الزوجية ، وقلّت المحبة والعواطف العشائرية والرحمية بصورة كبيرة ، وأورث للمرأة شكاً وتردّداً في ارتباطها بمحيط الأسرة وعلاقتها بأولادها ، فالنساء اللواتي كنّ إلى ذلك الحين ينوّرن قلوبهنّ بتربيتهنّ لأولادهنّ فقدن تلك العلاقة وأصبح توقّع ذلك منهنّ في غير محلّه ومن غير المعمول !

فالنساء اليوم بما أنهنّ يصرفن قواهنّ في أعمالهن خارج المنزل فلا قدرة لهن على أن يصرفن مثل ذلك من مساعيهن لمنازلهن أيضاً ، فالمرأة اليوم أصبح لها شغلان :

أحدهما : بصفتها موظّفة أو عاملة في الدوائر أو المراكز الصناعية .

والثاني : بصفتها زوجة وأمّاً في عائلة وأسرة وبيت ، فليس لها ذلك الوقت اللازم والفرصة الكافية وفراغة البال للقيام بمهامّ المنزل وتنظيم أموره . والمرأة التي تتفرق قواها وتكون مضطرة للحضور على رأس الساعة في المعمل أو الدائرة ، لا يمكن أن يكون حاصل ذلك في محيط المنزل سوى الملل والسأم والتساهل بل الإهمال .

ومن ناحية أخرى : فإنّ حرية العمل المطلقة بلا أيّ حدّ أو حصر كان بلاءً مُحدقاً ، أطلّ بظلاله المشؤومة والثقيلة على المجتمع البشري ، فاقتلع أساس العفّة والنزاهة من بين كثير من الأسر والعوائل ، ولم ينتج لهم سوى الشقاء والتشتّت والضياع والتفرقة ، وذهب بها كثير من الأصول الأخلاقية والشؤون الإجتماعية التي تبتني على مبادىء الدين والفضيلة .

وبدى التزايد في أرقام الطلاق في الإحصائيات وطيّه القوس الصعوديّ في ذلك في شكل مشكلة إجتماعية كبرى للشعوب المتحضّرة ، جعلتهم في زاوية حادّة لا تخرّج ، فهم لا يقدرون على أن يجدوا تعديلاً أو حلاً .

أقل خلاف في وجهة نظر بين الرجل والمرأة يُحدث أرضية نزاع وجدال

محتدم بينهما ، ويحتدم الخلاف الممتد بينهما طويلاً طويلاً . . . ولأمور مضحكة لا تكاد تُصدّق يضمحلّ أساس الأسر بصورة تستدعي العاطفة والرقة . ومن البديهي أنه حينما تتلبّد في أفق الحياة الزوجية سحب الأهواء ، تنعدم بمرور الزمن تلك الوحدة فيما بين الزوجين ، ثم يصبح ذلك الأمر المقدّس ضحيةً لمهزلة مُضحكة !

إنّ الباعث على الطلاق في بعض الموارد مسألة صغرى لا تهمّ شيئاً ويمكن حلّها بكل سهولة ويُسر ، فقليل من التفادي والتضحية والتنازل يذهب بما حصل من شقاق ويطفيء ما حدث من احتراق . إن العفو والصفح لو يحصل من أيّ من الزوجين المرأة أو الرجل يؤثّر ذلك تماماً في تحكيم أواصر الزوجية بينهما ، ويعمّق بينهما أصل الوداد والمحبة جدّاً .

قال لي مسلم إيراني يقيم في ألمانيا : في هذه السنين التي أُقيم أنا فيها في ألمانيا انجرّ أمر جميع جيراني إلى الطلاق على الإطلاق بلا استثناء ، وتفرّق كل واحد من الزوجين عن الآخر رأساً !

« منذ مدة تأسست في ألمانيا الشرقية مراكز لحلّ مشاكل كل الأسر والإرشاد إلى الزواج ، لغاية مكافحة الطلاق ويبدي فيها الحقوقيون والأطباء نشاطاً واسعاً ، وقد خصّصت الصحف لذلك جداول أو صفحات خاصة . وهم يرون أن العامل الأصلي لتصاعد قوس الطلاق هو الإشتغال المتزايد للمرأة بالأعمال خارج البيت .

إن قلة واردات العوائل دفعت بسبعين بالمئة من النساء المتزوجات إلى أن يشتغلن بالأعمال لتأمين المعاش ، ستون بالمئة منهن أمّهات أولاد ، وطبيعي أن العمل في الخارج من ناحية وأمور البيت وتربية الأولاد من طرف آخر يورد ضغطاً على أعصاب المرأة يؤدي بها إلى نزاع دائم بينها وبين زوجها وبالتالي وقوع الطلاق بينهما »[1] .

---

(١) عن الجريدة الإيرانية : كيهان ، العدد : ٦٩٢٦ .

يقول العالمب الروسي الشهير « تولستوي » : « وليُعلم أن السبب في كثرة الطلاق ووفوره هي زيادة الحرية في الطلاق للمرأة مع الإلتفات إلى روحيّتها المتلوّنة وطبيعتها السريعة الغضب والتأثر ! وان كان لا ينبغي أن نغفل عن العلل والعوامل الأخرى : كإرهاق أعصاب الرجل والمرأة من جرّاء ضجيج المصانع والمعامل ، والإمتزاج الكثير بين النساء والرجال الذي بدوره يؤدي من جانب إلى زيادة العلاقات غير الشرعية ، ومن جانب آخر إلى إثارة الكراهية بين الزوجين . وأيضاً عمل النساء في خارج البيت . . » .

قبل عدة سنين حينما كان أحد النوادي في نيويورك يقوم بإعداد إحصائية عن الزيجات والتطليقات في مدينة نيويورك وواشنطن انتبه المسؤولون في النادي إلى أن الفنّانات من هاتين المدينتين الكبيرتين وهنّ يشكّلن رقماً كبيراً ، أكثر طلباً للطلاق وانجازاً له من أيّة طبقة أخرى أو صنف آخر منذ خمسين سنة (إلى ذلك الحين) وان النتائج التي حصلت بشأن الفنّانات في نيويورك وواشنطن حملت المسؤولين في النادي على أن يعملوا احصائية عن الزيجات والتطليقات في هوليود منذ ستين سنة . وكانت أرقام الطلاق هناك من الكثرة بحيث امتنعوا عن نشرها رأساً »[٢] .

« وذكر خبر نُشر أخيراً في صحف بريطانيا : أن الطلاق في السنة الفائتة في الإنجليز حصل على الرقم الأعلى في العالم : ونصف كل الطلاق كان بسبب الخيانة ، والنصف الآخر لعلل أخرى »[٣] .

كتب أحد الكتّاب بشأن تزايد الطلاق بأمريكا يقول : « لو افترضنا أن معدّل الطلاق في كل مئة تزويجة في أمريكا في العشر سنين من ١٨٨١ إلى ١٨٩٠ واحد فقط فقد ارتفع هذا المعدل في السنين ١٩٤٠ - ١٩٤٩م إلى عشرة أضعاف ذلك . أي ربع كل الزيجات !

وفي كاليفورنيا في سنة ١٩٥٦ حدث ٤٢٤٧١ طلاق في مقابل ١٧٤٥٢

---

(٢) بالفارسية : طلاق وتجدّد : ٩٥ - ٩٤ .

(٣) عن الجريدة الإيرانية : كيهان ، بتاريخ ٢٨ فروردين ٣٩ هجرية شمسية

تزويجة أي وقع طلاق في مقابل كل زواجين ، وكل زواجين انتهى أحدهما إلى طلاق »[٤] .

وكتبت مجلة (واك = WAKE) الأمريكية تقول : « ارتفع مقياس الطلاق بدولة السويد في السنين العشر الأخيرة عشرة بالمئة ، أما بالنسبة إلى الخمسين سنة الأخيرة فألف على مئة ! »[٥] .

« حكمت محاكم فرنسا في سنة ١٨٩٠م بـ (٩٧٨٥) طلاقاً كان سبعة آلاف منها بطلب النساء ، وأما اليوم فقد ارتفعت هذه النسبة التي تشكل سبعين بالمئة من التطليقات .

والمشكلة الحديثة التي قلّلت من نسب الزواج بعد الحرب العالمية الأولى وبالخصوص بعد الحرب العالمية الثانية : هي الفساد الذي لوّث حجور الشباب ! فإنّه قادهم إلى اللامبالاة والحياة الإباحية المتحلّلة ، وسبّب في زيادة أرقام الطلاق .

بعد ما قارن « ژ . دوپليسي » أرقام زواج المطلقات في مختلف السنين والأعوام ، وأبدى أن أرقام زواجهنّ قد كثر كثيراً أضاف يقول : إن الزيادة النسبية لزيجات المطلّقات بالنسبة إلى من يتزوجن لأول مرّة يرتبط بكثرة الطلاق بعد الحرب الأولى عام ١٩١٤ ـ ١٩١٨م »[٦] .

« وقع في السنة الماضية في فرنسا ثلاثون ألف تطليقة ، وبما أن هذه الأرقام في تزايد كل سنة ، لذلك طلبت جمعية حماية الأسرة الفرنسية من الدولة أن تعود إلى تنفيذ القانون الخاص بعام ١٩٤١م الذي ألغي في سنة ١٩٤٥م الذي مُفاده منع الطلاق في السنين الثلاثة الأولى من الزواج على الإطلاق .

ونفس النسبة صادقة بالنسبة إلى بريطانيا بإضافة : خشونة وتوحش كبير

(٤) عن الجريدة الإيرانية : كيهان ، بتاريخ ٢٨ فروردين ٣٩ هجرية شمسية .
(٥) بالفارسية : جامعه شناسى : ٢٩٥ .
(٦) بالفارسية : طلاق وتجدّد : ٩٢ .

من قبل الرجال ، وفساد وخيانة لا حدّ لها من قبل النساء »[٧] .

« إن النساء الأمريكيات ينفصلن عن أزواجهن على الأكثر بعد شهرين ! أو بعد ثمانية أشهر ! أو بعد ست وعشرين شهراً ! ولذلك يقع في كل عام مئة وخمسون ألف طفل فريسة للطلاق .

وفقاً لأرقام أُخرى فإن بأمريكا اليوم ثلاثة ملايين من الأطفال الذين تطلقت أمّهاتهم من آبائهم » .

وكتب الكاتب الأمريكي الشهير « لوسون » بعد ذكره لأرقام موحشة عن الطلاق بذلك البلد ، يقول : « وكل من به مسكة من ضمير وحبّ للإنسانية يتألم من هذا الوضع الموحش من أرقام الطلاق ويفكّر في علاج ذلك . وما يسترعي الإنتباه والنظر أكثر هو أن ثمانين بالمئة من هذه التطليقات وقع ويقع بطلب من نفس النساء ، وعلينا أن نبحث عن السبب في تزايد الطلاق في هذا الأمر ، ويجب علينا أن نحدّده ونحصره »[٨] .

ومن المؤسف أن الطلاق تزايد في بلادنا أيضاً بين الطبقة التي جعلت التبعية من الغرب أساساً لحياتها بلا أيّ قيد أو شرط . فقد وقع أكثر من ألف طلاق في طهران فقط في العشر سنين الأخيرة ، لنزاع الزوجين على مصاريف الزينة والتجميل ، وهذا الرقم إنّما هو مجموع الأرقام المعلنة في أخبار الجرائد ، وإلاّ فالأرقام الواقعية للطلاق في طهران لنفس السبب أكثر من هذا »[٩] .

وفقاً للاحصائيات الرسمية في سنة ١٣٣٩ هجرية شمسية : كانت الزيجات المسجلة في طهران : ١٥٣٣٥ زواجاً ، والطلاق في نفس السنة ٤٨٣٩ طلاقاً ، وهذا يعني ان كل ثلاث زواج انتهى أحدها إلى

(٧) عن المجلة الإيرانية : خواندنيها ، للسنة ٢٥ العدد : ١٠٣ .
(٨) عن المجلة الأسبوعية الإيرانية : إطلاعات هفتگى ، العدد : ١٢٠٦ .
(٩) عن المجلة الأسبوعية الإيرانية : إطلاعات هفتگى ، العدد : ١٢٠٦ .

الطلاق »[١٠] .

وكما استعلم الصحفيون من مسؤولي مكاتب تسجيل الزواج والطلاق ، وقع ستة وسبعون بالمئة من هذه التطليقات بناءً على طلب من النساء اللواتي يتبعن الحضارة والموديلات الغربية والفنّانات ! وانّ ارتفاع أرقام التطليقات إخطار مهم لا يمكن التغاضي عنه . ومع شيوع الفساد والحضارة الجديدة سترتفع أرقام الطلاق أكثر ، وسيتلاشى نظام كثير من الأسر تحت أسر سياط مختلف الشهوات المحطّمة ، اللّهمّ إلاّ أن يرجع المجتمع إلى السنن الإسلامية الثابتة مرة أخرى[١١] .

---

(١٠) عن الجريدة الإيرانية : روزنامه دنيا .

(١١) كان هذا قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران ، وقد انتصرت ورجع المجتمع إلى الإسلام .

حماية الحيوانات

بين بعض العوائل الغربية علاقة غريبة بالكلاب وايوائها والإحتفاظ بها واصطحابها إلى حدّ جنونيّ قال لي أحد الطلاّب الإيرانيين كان يدرس في فرع الطب في ألمانيا : كان صاحب الدار التي أسكنها يحب كلبه كثيراً فكان يقبّله دائماً ويحتضنه ، فذكّرته يوماً بخطر المرض العارض من دورة الكلب ، ولكنّه لم يصدّق مقالتي ، فأخرجت له موضع الشاهد في أحد كتب دراستي الطبيّة ، فلما قرأه تعجّب كثيراً وتحيّر وسألني : لو كانت معاشرة الكلاب خطرة إلى هذا الحد فلما يزاول ذلك الأطباء وأساتذة الجامعات فهم دائماً يماسّون كلابهم ويلمسونها ويحتفظون بها في دورهم وبيوتهم ؟!

قلت له : كثير ما أُعلن أخطاره صحيّاً وطبيّاً وفي نفس الوقت بدل أن يتبع السادة الأطباء من عقولهم وعلومهم ومعارفهم يتّبعون أهواءهم ولا يراعون صحتهم والإحتفاظ بسلامتهم والإحتياط لذلك !

نقلت الصحيفة الناطقة باسم « الجمعية الوطنية لحماية الحيوانات في إيران » عن إحدى المجلات الأمريكية أنها طلبت من جميع قرّائها المحبّين للكلاب وأكثرهم من السيدات أن يصدقوا في الإجابة على الأسئلة التالية :

١ ـ هل ينام كلبكم معكم في غرفة نومكم ؟

٢ ـ هل تبكون له إذا مات ؟!

٣ ـ هل تفكّرون فيه وأنتم في دائرة عملكم ؟!

٤ ـ هل حبّكم له هو الأكثر أم حبّكم لأزواجكم ؟ أو أزواجكنّ ؟!

٥ ـ إذا مرض كلاهما (كلبكم وزوجكم) فلأيّهما تطلبون البيطريّ أو الطبيب أوّلاً ؟!

٦ ـ إذا جِعتما (أنتم وكلبكم) ولا طعام إلاّ قليلاً فهل تأكلونه أو تؤثرون كلبكم عليكم ؟!

٧ ـ هل تقولون له (لكلبكم) بشخصية تفوق حدّ الحيوانية ؟!

٨ ـ لو نهش الكلب رجل طفلكم وأجابه طفلكم فضربه حجراً فصرخ الكلب وبكى الطفل ، فلأيّهما تتفقدون أوّلاً ؟!

وبعد قراءة خمس وسبعين رسالة جواب كانت الإجابات كما يلي :

١ ـ أجاب ستون ألف شخص : نؤثر كلابنا علينا لانه يفَضل على وجودهم هم !

٢ ـ وكتب تسع وأربعون ألف قارىء أكثرهم من النساء : نعم ينام كلبنا معنا في غرفة نومنا ، إذ مهما يكن فهو أفضل من غيره !

٣ ـ وأجاب ما يقرب من ثُلثيّ القرّاء : إنّا إنّما نحبّ أزواجنا فيما إذا أحب كلبنا ! وأجاب عدد منهم علناً : إن كلبنا كل شيء في حياتنا !

٤ ـ وكتب ثلثا القُرّاء : لو مات كلبهم فسوف يبكون عليه .

٥ ـ وفي جواب السؤال الخامس كتبوا : نخبر البيطري أوّلاً ثم الطبيب !

٦ ـ وكتب كلّ القرّاء تقريباً يقولون : انّهم يقولون لكلبهم بأهمية تفوق حد الحيوان بل له شخصية معنوية !!

٧ ـ وكتب كلّ القرّاء الموظفين : للكلب أهمية أكبر من أن لا نفكر فيه ونحن على عملنا ، نفكر فيه من كل مكان .

٨ ـ وبشأن السؤال الأخير كتبوا : نحاول أن نسكتّهما معاً مهما أمكن .

عجيب جدّاً أن يقولوا للكلب بمقام معنوي فيبكون في موته ويصرخون ، بينما أولئك الألوف من البشر الذين ينهضون للحصول على حريتهم واستقلالهم فيصبّون على رؤوسهم القنابل المحرقة ، لا يجرح ذلك قلوب أولئك الناس المتحضّرين ! يؤون الكلب في غرف نومهم ، ولكنهم لا يسمحون لملايين من البشر بالدخول إلى الأماكن العامة لجريمة ألوانهم السوداء ولو مرض كلبهم يبادرون لإحضار انبيطريّ له لعلاجه ، ويموت من الجوع والمرض والفقر الفقراء الجياع جماعات وجماعات فلا تتألم أرواح هؤلاء البشر من هذه الحوادث أبداً !!

هناك في أمريكا حوانيت خاصة بأدوات التجميل للكلاب ، عرضوا فيها أخيراً عشرة أنواع من الكولونيا الخاص بالكلاب للبيع ، ويباع فيها معجون أسنان خاص بالكلاب كذلك ، فبإمكان من يرغب منهم أن يشتري من هذه الحوانيت أحسن أدوات التجميل لكلبه !

وانّ تقرير مجلة « التايم » بشأن أعداد الكلاب في المدن الكبرى يبدي مدى علاقة هؤلاء الناس بهذا الحيوان المغري ! يقول التقرير :

« إن بعض المدن الكبرى في العالم قد أصبحت « مدينة الكلاب » بالمعنى الحرفيّ للكلمة تقريباً ، خصوصاً : لندن وطوكيو ومكسيكوسيتي ، وقد كثرت الكلاب في هذه المدن الكبرى حتى أنها أصبحت تزاحم حياة البشر وتسبّب في تلوّث البيئة .

إن عدد الأطفال الذين نهشتهم الكلاب يرتفع يوماً فيوماً ، وإنّ نباح الكلاب يزيد في ضوضاء المدن الكبرى التي هي مليئة بالضوضاء . ففي طوكيو مئتان وثمانون ألف كلب ، وفي لوس آنجلس ثلاثمائة ألف كلب ، وفي نيويورك خمسمائة ألف كلب ، وفي لندن سبعمائة ألف كلب ، وفي مكسيكوسيتي أكثر من مليون كلب . وهكذا الكلاب يشاغبن في العالم »[1] .

---

(١) عن الجريدة الإيرانية : إطلاعات ، العدد : ١٣٢٤١ .

وكتبت مجلة « انى مال » الفرنسية تقول : « في أمريكا يصرف أصحاب الكلاب كل سنة ثلاثمائة مليون دولاراً لمصاريف تجميلهنّ وملابسهنّ ! وفي مدن نيويورك وسان فرانسيسكو وشيكاغو ولوس آنجلس صالونات خاصة لتجميل الكلاب ، هذه الصالونات في هذه المدن لا تعدّ ولا تحصى وهي دائماً مليئة بالزبائن الكرام ! والمباشرون للتجميل عليهم أن يمارسوا دورة تدريبية تعليمية بمدارس خاصة لمدة ستة أشهر أو سنة كاملة كي يتفوّقوا لتحصيل شهادة الديبلوم في تجميل الكلب ! وفي كل المدن الكبرى الأمريكية تقريباً توجد مقبرة بل ثلاث وأربعة مقابر خاصة بالكلاب ، سوقها قائم ورائج ، ولها سنوياً أرباح طائلة تصرف على كفن الكلاب ودفنهن والمراسيم التي تقام لذلك ! » .

وفي أمريكا هذه التي تصرف هذه المصاريف لتجميل الكلب يوجد خمسة ملايين شخصاً عاطلون عن العمل لا شغل لهم ، ولتأمين حياتهم لا يأبون أن يمارسوا أيّ عمل كان !

لا شك في أن « حماية الحيوانات » والمنع عن ايذائها عمل إنساني ، ولكن ألا ينبغي أن يتمتّع البشر المُتعب والذي لا ملجأ له من عطف الناس المتحضّرين بمقدار الحيوانات ؟!

حقاً يتحيّر الإنسان من كا هذا التناقض ، في عالمنا الحاضر تقبض أرواح آلاف الأفراد يومياً من الجوع هذا وآلاف الأفراد الآخرين يصرفون مئات الملايين من الدولارات لتجميل الكلاب ! ويرتفع نداء العلماء الواقعيين من مشاهدة هذه المناقضات غير الإنسانية وغرور الإنسان في القرن العشرين ، من أمثال الدكتور « كاريل » ويعلن للعالم المتحضّر أن : « قدّموا أطروحة للحضارة الإنسانية من جديد » فإنّ الحضارة الراهنة للعصر الحاضر قد عرّت الإنسان عن المميّزات الإنسانية الراقية والسامية .

آثار فقد المحبة والشعور بالخلل

للمرأة بالنظر إلى الجهاز الجسماني وتكاليفه البيولوجية وضع خاص ، فقد جهّزها نظام الخلقة بمصالح ومواد خاصة ، وهي مكلّفة بأن تؤدّي دورها في ساحة الحياة جيداً . وبإزاء القابلية الجسمانية وكيفيته في المرأة ، تحدث خصائص الأمومة فيها كيفية عاطفية وفكرية وعصبية وروحية خاصة ، من أهم وظائفها تربية وليدها ومداعبته التي لها الأهمية التامة من الناحية النفسية ، فانّ متطلّبات الطفل وتربية غرائزه اللطيفة إنّما تؤمّن في كنف العاطفة والأحاسيس الملتهبة للأم ، وليس هناك أيّ شيء آخر يمكنه أن يملأ هذا الفراغ . فلا تُشبع عواطف الطفل وأحاسيسه في المراضع ودور الحضانات وروضات الأطفال ، مهما كانت مجهّزة بأحدث الوسائل والأدوات ، وفقاً للطبّ والصحة . فالأطفال الذين لم ينمو في ظل محبة الأم وعواطفها والذين حُرموا من ملاطفات الأمومة الخاصة ، سيصابون بأنواع العقد النفسية . ولكن المرأة في العالم الغربي قد تخطّت حدود وظائفها الطبيعية على أثر اشتغالها بالأعمال خارج الدار ، وهي بتحريفها لقواها العظيمة عن مجاريها الطبيعية والصحيحة قد كسرت سنّة من السنن الثابتة للحياة والطبيعة .

لا شك في أن الشيوعية والحضارة المادية الغربية لا تقدر على تغيير الطبيعة البشرية إنهم خلعوا المرأة عن منصبها الأصلي ووظائفها الأوّلية ، وهذا الأمر سبّب في ظهور سلسلة من المفاسد الروحية والإجتماعية والأخلاقية .

فالإضطربات والقلق الذي يحدث في الأطفال المحرومين عن عواطف الأمومة كالعقد النفسية مما لا يمكن جَبْره وتلافيه واستدراكه بأيّ طريق كان .

يقول علماء النفس : « إن المربّية التي ربما تختار شغلها لإمرار معاشها ولا ذوق ولا اشتياق لها للتربية بل تنظر إلى الأطفال بعين العناد (أو الإهمال) وهي عصبية وتفتقر إلى الثقة بنفسها ، هذه لا تقدر على قيادة عواطف الأطفال في المسار الصحيح »[1] .

كتب العالم الشهير الدكتور « كاريل » بشأن أخطاء الأسر الأوروبية يقول : « إن الخبط الكبير في المجتمع اليوم في أنهم استبدلوا رياض الأطفال والمدرسة الإبتدائية بدل جوّ البيت وأحضان الأم منذ السنين الأولى ، ولنعلم أن هذا الأمر ناتج من خيانة النساء ! إن الأمهات اللواتي يودعن أطفالهن إلى رياض الأطفال ليتفرغن لأعمالهن الإدارية أو أهوائهن وتفننانهن الأدبية والفنية ، وليقضين أوقاتهن في الألعاب والسينما بالبطالة ، يسببن إخماد جذوة الأسرة التي يتعلم الأطفال فيها كثيراً من الأمور ، فانّ نموّ الأطفال الذين يربون بين أسرهم أكثر من الأطفال الذين يعيشون بين أقرانهم في مدارس داخلية ليل نهار . إن الطفل يصوغ خصائصه البدنية والنفسية والعاطفية في قولبة شرائط محيطه ، ولذلك فهو لا يتعلم من أقرانه إلاّ قليلاً وحينما يتنزّل كوحدة ضائعة بين سائر أقرانه بالمدرسة فانّه لا ينمو جيّداً ، وكلّ فرد منهم بحاجة إلى الإنفراد النسبي ورعاية مجتمعه الصغير العائلي من أجل التربية والنموّ الصحيح »[2] .

وإليكم تقريراً عن الإضطرابات العائلية ، والآلام الكثيرة للمرأة في هذا المجتمع المتحضّر أصيبت بها حيث سحقت وظائفها الأصلية وزاولت الأعمال خارج بيئة البيت :

« ان خمساً وعشرين بالمئة من النساء الأمريكيات اللواتي يتقدّمن في أمريكا إلى المحاكم بطلب الطلاق ، مصابات بأنواع الأمراض النفسية . وإن

---

(١) بالفارسية : روانشناسى كودك : ٢٩٧ .

(٢) بالفارسية : انسان موجود ناشناخته : ٢٦٠ = الإنسان ذلك المجهول .

في كل سنة يسقط مائة وخمسون ألف طفل فريسة لطلاق أمهاتهم من آبائهم .

المرأة الأمريكية تتعب في الخارج وترجع هكذا إلى البيت ، وقد جرّبت أنّ مساعيها في المجتمع الحضري لا يثمر لها سوى بعض الأمراض النفسية ، وهي تتألم في الدار أيضاً ، فهناك الملايين منهن يتناولن أقراصاً بصورة رتيبة ، ويُسرعن إلى الأطباء النفسانيين ، فهي مُرهقة ، وإرهاقها هذا نتيجة لنشاطها الشديد في المجتمع المكنى والمليء بالضوضاء . يقول الدكتور « جورج مالى » الخبير النفساني للشباب :

« إنّ كثيراً من الإضطرابات النفسية للشباب من ذكريات عهد الطفولة ، والأمّهات هنّ المسؤولات عن ذلك ، فالطفل الكذوب ، والذي يعذّب الحيوانات ، والذي لا يقدّس قوانين المجتمع ، هؤلاء لم يتلقّوا رقابة الأمومة ورعايتها »(٣) .

إنّ العلاقة والمودّة القلبية اليوم قليلة بين الوالدين والولد ، والأولاد لا يشعرون بمسؤولية عن تكليف بالنسبة إلى والديهم بسبب قلّة المودّة لديهم . وكثيراً ما يتّفق أن لا يرى أعضاء الأسرة بعضهم الآخر لعدة سنين . وبالخصوص سلوك الوالدين بالنسبة إلى أولادهم البالغين سنّ الشباب ، ويُرى بكثرة أن الوالدين يخرجان أولادهما في هذه السنّ ، وهم يضطرّون بعد ترك دار الوالدين إلى أن يعيشوا لوحدهم مجرّدين ، وإذا أذن الوالدان ببقائهم عندهما فعليهم أن يتحملوا نفقة أنفسهم ، وإذا كسروا شيئاً فعليهم أن يدفعوا ثمنه أو يشتروا لهما مثله . وهذا السلوك يؤدي إلى آثار سيّئة جدّاً ولا سيّما في الفتيات ، حتى أنهن يرجّحن أن يخرجن لوحدهن على أن يبقين في دار الوالدين ، وإذا وقع ذلك تلوّثن بأنواع المفاسد بمعاشرتهن الشباب ولبعدهنّ عن الأسرة وعدم وجود مربٍ عطوف عليهن .

ومناسبات الصداقة وعلاقات الناس بعضهم ببعض فاترة وبعيدة عن عمق العواطف ، فكأنّما قد تلاشت المحبة القلبية والعلاقة العاطفية بين الماكنات

---

(٣) عن المجلة الأسبوعية الإيرانية : اطلاعات هفتگى ، العدد : ١٢٠٦ نقلاً عن مصادر أجنبية .

الصناعية ! فلا تجد أثراً من الإيثار والعفو والصفح والمواساة ، حتى يكاد لا يجاوز عدد الأصدقاء لكل أحد عدد أصابع اليد الواحدة !

فكأنّما العالم المتحضّر من أجل أن يقرّر النظام الإجتماعي الجديد جمّد منابع الإنسانية في نفوس الناس أو أفرغها في قوالب جافة جامدة . فتعاون الناس بعضهم لبعض بحكم القانون بينما هم بعيدون بقلوبهم ، فلو أُصيب أحد بمشكلة لا يبادر الآخرون لحل مشكلته أو عقدة عمله ، وليسوا مستعدين لان يتحمّلوا من أجله خسارة مادية ، أو ألماً أو زحمةً ، إلاّ أن يقرّر عليهم تكليفهم القانونيّ تعاوناً أو مساعدة ، من دون أن يتلقّوا هذا التعاون كوظيفة وجدانية أخلاقية أو عمل خير صالح !

حينما كان كاتب هذه السطور راقداً في المستشفى في ألمانيا كنت أنا أكثر من جميع المرضى عيادةً ! وأنا هناك غريب ! فكان هذا الموضوع عجيباً لدى عمّال المستشفى ، ذلك أني لم أرَ الألمانيين يعودون أقرباهم المرضى إلاّ نادراً جداً !!

ولا بأس في أن أنقل هنا حادثة عجيبة كشاهد حيّ تصلون به إلى مقدار العواطف لدى هذه الشعوب المتحضرة : قبل عدّة سنين تشرّف بالإسلام لدى رئيس الجمعية الإسلامية في هامبورك بألمانيا أحد أساتذة جامعة ألمانيا . وبعد مدّة رقد هذا المسلم الجديد المستشفى على أثر مرض عارض ، فلما علم به رئيس الجمعية الإسلامية عاده في المستشفى فواجهه الپروفيسور بوجه مغموم مهموم ، فسأله الرئيس عن علة ألمه وانكساره ، وكان الپروفيسور إلى تلك اللحظة ساكتاً واجماً حزيناً لا يتكلم ، ثم بدأ يتكلم فشرح للدكتور قصته العجيبة والمؤسفة قال :

عادني اليوم ولدي مع أُمه ، وعلموا من قِبل المستشفى أني مصاب بالسرطان ، فلمّا أرادوا أن يخرجوا ودّعوني وقالوا : أنت ـ كما بلغنا ذلك ـ مصاب بالسرطان على أعتاب الموت ! ولم يبق من عمرك سوى أيام قلائل ، فنحن نودّعك الآن لآخر مرة ونعتذر إليك عن عيادة أُخرى مكرّرة !

واستمر المريض يقول : ليس تألّمي هذا المحسوس وعذابي النفسي

لإنسداد أبواب الأمل في الحياة بوجهي وأني يئست من الحياة ، بل ما شاهدته من سلوك لا إنساني بعيد عن الإنصاف من ابني وزوجتي هو الذي آلمني وضغط على روحي كثيراً .

فأجابه رئيس الجمعية الإسلامية متأثراً لحالته قال : بما أن عيادة المرضى في الإسلام مؤكّد عليها جداً لذلك فانّي سأعودك كلّما سنحت لي فرصة لذلك ، عاملاً بذلك بتكليفي الديني . وسطع على وجه المريض من هذه الكلمة بهج ووهج . لكن مرضه كان يشتدّ يوماً فيوماً حتى مات بعد عدة أيام . ولأجل القيام بتجهيزه ودفنه ذهب عدد من المسلمين إلى المستشفى وحملوا جنازته إلى المقابر ، وعند الدفن فاجأهم شاب يبدو على وجهه الغضب وسألهم : أين جنازة البروفيسور ؟ أجابوه : وهل لك نسبة إلى المتوفى ؟ قال : نعم هو والدي ، قبل أيام كنت قد بعت جسد والدي للمستشفى بمبلغ ثلاثين ماركاً ألمانياً والآن جئت لأسلّم جثته إلى المستشفى للتشريح !!

كلما أصرّ على ذلك لم يجد شيئاً ، إذ واجه خلافاً من الحضّار وعدم الرضا بذلك ، فاضطر أن ينصرف ولا يعقّب . ثم تبيّن أنه عامل في بعض المعامل نصف النهار وفي النصف الآخر يعمل في صالون تجميل للكلاب !!

من هذه الحادثة وهي واقع مرّ نصل إلى مدى انعدام المحبة والعواطف الإنسانية في هذا المجتمع المتحضر .

مما لا يمكن إنكاره أنّ البشرية اليوم من حيث الفضائل الأخلاقية تمشي القهقرى ، والمفكّرون الكبار إذ يعترفون بهذه الحقيقة المُرّة يفكّرون في طرق علاجها وهم يتألّمون كثيراً من هذا الوضع غير المستساغ ، إنهم قد أدركوا الألم جيداً ، وهم يشعرون بضرورة النضال الجادّ ضدّ هذا التحلّل والتفكّك ، ومن أجل بناء جديد على أساس الفضيلة والإيمان .

الذين هم يعيشون هذه الحياة قد التفتوا إلى أنها حياة فارغة خالية خواء لا تقدر على أن تسعد البشرية ، ولا بأس بأن تسمعوا هذا الإعتراف الصريح على لسان الرئيس الأمريكي حين أدائه اليمين الدستورية :

« نحن نجد أنفسنا أغنياء من حيث البضائع ، ولكن نفوسنا مضطربة ، بينما نصل إلى القمر بدقة مشرقة مصابون هنا في الأرض بتشتّت محطّم !

نحن مصابون بالحروب نريد سلاماً ، وقد تقطّعنا النفاق فنحن نبحث عن الحقيقة والوفاق ! نرى فيما حولنا حياة فارغة ، ونحن نأمل أن نقتنع بحياتنا .

بازاء ما أصابنا من القلق المعنوي نحتاج إلى إجابة معنوية ، ومن أجل أن نجد هذه الإجابة علينا أن ننظر في أنفسنا ، وحينما نصغي بأسماعنا إلى نداء ضميرنا نجده يمجّد بأمور ساذجة ولكنّها أساسية ، كالإحسان والعفّة ، والعطف والمحبة » .

وكتب العالم الفرنسي الشهير « الدكتور الكسيس كاريل » : « نحن بحاجة إلى عالم يقدر كل أحد أن يجد فيه محلاً مناسباً له ، ولا ينفصل فيه الماديّ عن المعنويّ ، ونعرف فيه كيف نعيش ، فقد فهمنا تدريجيّاً أن السير في طريق الحياة بلا دليل خطر ، والعجيب أنّ التفاتنا إلى هذا الخطر لم يدفعنا إلى البحث عن الوسائل المعقولة للحياة ، والحقيقة هي أنّ الذين هم ملتفتون الآن إلى هذا الخطر قليلون جدّاً .

إنّ القسم الأعظم من الناس اليوم يعملون بأهوائهم ، وهم في سكر غرور ما أعدّته لهم التكنولوجيا من التسهيلات المادية ، وهم غير مستعدين لان يغسلوا أيديهم ويصرفوا النظر عن أي شيء مما أحدثته لهم الحضارة من مزايا . إنّ حياتنا تتبع منحدر تمنّياتنا وتنزلق نحو كل هوان وفساد ، كمياه الأنهار التي تغوص في البحيرات أو الأهوار أو الرمال ، كذلك تتمايل حياتنا اليوم إلى نحو النفعية وإشباع التمنّيات الشهوانية والملاهي المغريات .

بدل أن نبني حياتنا على المفاهيم العلمية أي واقع الحقيقة ، بنيناها في قوالب الايديولوجيات المصوغة ، فأصبحت حياة لا تقضي حاجاتنا الحقيقية ، فسنبقى نحن فيها دائماً غرباء . ان الإنسان المتحضّر قدّم المادة وضحّى بالمعنويّ أمام الماديّ ، وفضّل الراحة على القوة والنشاط .

نحن اليوم نتقدم إلى الأمام في سير الزمن وفقاً لمصادفات التقدم التكنولوجي ، من دون أن نولي عناية إلى الحاجات الأصلية لأجسامنا

وأرواحنا . مع أننا نغوص في هذا العالم الماديّ نزعم أنفسنا مستقلين عنه ولا نريد أن نعلم أننا من أجل استمرار حياتنا علينا أن نسلك وفقاً لمقتضى طبيعتنا وطبيعة الأشياء لا وفقاً لأهوائنا وشهواتنا ، وقد مرّت على البشرية المتحضّرة عدة قرون وهي تنزلق في هذه اللّجة وتغوص .

إنّ الإنسان التكنولوجي اليوم مختلق بيد الماركسية والرأسمالية لا الطبيعة ، إنه لم يُخلق من أجل أن يوجد شيئاً فيستهلكه ، بل انّه منذ بداية تطوّره وتكامله قد أقبل على حبّ الجمال والشعور والإحساس الديني والإستطلاع الفكري والتصور المبدع وحياة الأبطال والتضحية والفداء والتفاني ، ولو حُصر في نشاطه الإقتصادي فقط فكانّما هم يقتطعون شطراً كبيراً منه . وعليه فانّ الرأسمالية والماركسية كلاهما يسحقان ميوله الطبيعية الأصلية فيه »[٤] .

ولو أراد العالم اليوم أن يُحرق جذور كل هذا الفساد والإنحطاط ، فلا سبيل له إلى ذلك إلاّ أن يستلهم لذلك من التعاليم الإلٰهية من الأنبياء والمرسلين ، أما ما دام إعصار الشهوات قد أظلم فضاء العقل البشريّ ، وما دامت التلوّثات قد أحاطت بيديه ورجليه كسلسلة من حديد فهي تمنع صعوده نحو سعادته ، فلا أمل في نجاة البشرية ، وإنّما يتيسّر تحطيم هذا الفساد بإحداث ثورة في أفكار النائمين في وادي الضلالة . وبكلمة : ما لم نبذل عناية خاصة بالقيم المعنوية وواقع الإنسانية فانّ السعادة لا تبدو على آفاق الحياة .

---

(٤) بالفارسية : راه ورسم زندگى : ١٥ و٣٤ .

القسمُ الثاني

ما هِيَ إجابَةُ الإسلامِ على مَشاكِلِ العالَمِ المَعاصِرِ؟

لِنتسَاءَل عَن الإِسلامْ

قمنا في الأبحاث السابقة بتحليل عن الحضارة الغربية ، والآن علينا أن نبدأ بدراستنا بشأن التمدّن والحضارة الإسلامية . ونحن نلتفت إلى هذه النقاط ليعلم من طريق المقارنة أن الإسلام ماذا قدّم للعالم البشريّ من أسلوب منطقي ورصين على جميع الأصعدة .

ونأمل من فضل الله أن يكون هذا البحث لمن كان يبحث عن الحقائق والأهداف الإسلامية بإخلاص ومفتّشاً عن الحقيقة عن صدق ، مفيداً نافعاً مثمراً إن شاء الله تعالى الرحمن .

ومجال البحث في كل من العناوين المختارة وإن كان واسعاً جدّاً وبحاجة إلى كثير من الشرح والتبسيط ، ولكننا انّما بحثناها بقليل من التحليل المركّز كي لا يشعر القرّاء بالملل من هذه المباحث ، ولكي تكون بمنزلة مفاتيح لأبحاث ترشدنا نحو الحقيقة ولو شيئاً ما .

إنّ نظريات الإسلام من حيث الإنسجام والكمال والشمول والإستيعاب لجميع الجوانب الروحية وكل جوانب الحياة والعمق ، لا مثيل لها فيما توصلت إليه البشرية لحدّ الآن ، فانها تشتمل على كل طرق الخير والسعادة ، والإسلام بروحه العلاجية يعالج كل مشاكل البشر جميعاً ، وإن رصانة أحكامه في جميع ما يمكن أن يتوصّل إليه العقل الإنسانيّ من شؤون المجتمع واضحة ملموسة

محسوسة .

إن من أكثر أهداف قوانين الإسلام أصالة هي تربية الإنسان وتكامله من جميع الجوانب ، وحيث لا يمكن أن يتغاضى عن أيّ واقعية في عالم التربية فانّ الإسلام يلاحظ كل الواقعيات التي تمسّ وجود الإنسان وتمتّ إليه بصلة .

إنّ الإسلام لم يتلوّث بأخطاء البشر اليوم في تصوّر ماهية الإنسان ، هذه الأنظمة التي تخطىء في تعيين موقعية الإنسان إلى حدّ أنها قد ترتفع به إلى مقام الألوهية كي يستند حينئذٍ إلى غروره ورضاه عن نفسه وحبّه لذاته . وقد تسقط به إلى أنزل مراحل العبودية فتسلبه كل قدرة وإرادة وتراه عاجزاً قاصراً لا حيلة له أمام القوى المادية الطبيعية القاهرة .

بينما الإسلام قد وضع الإنسان في محلّه الواقعيّ ، وهو يصفه بأجمل شكل وأحسن ما يحسن به ، ويقرّر له موقعية خاصة وممتازة بإزاء سائر الموجودات .

إن الإنسان في مرآة الإسلام خلق ذو مقام رفيع ، وهو بين سائر الخلق شاخص لا نظير له .

إن الإسلام يرى أن حياة البشر لا تنقطع بمقراض الموت ، وأن حياته حياة خالدة ومستمرة ، وأن الجانب الدنيوي لا ينفصل عن الجانب الأخروي ، وحيث أن هناك اتّصالاً تامّاً بين الروح والبدن فلن يحدث انفصال بين عنصري البدن والروح ، ولذلك فهو يعرض برنامجاً مشرقاً للعالمين وهو يريد أن يربّي الإنسان الأبدي والخالد ، وهذه طريقة تستلهم من القوة العامّة لنظام الخلقة العظيم .

ومع أن الأبدية والخلود قد أظلّ على جميع جوانب المدرسة الإسلامية الغنية من العقائد والأحكام والأخلاق ، مع ذلك قد فتح باب حرية التفكير والإجتهاد في المسائل المستحدثة والمواضيع موارد الحاجة للمجتمعات البشرية في مسيرة التقدم والتكامل ، لكي يكون بالإمكان التوفيق بين متغيّرات الحياة وبين ثوابت الشريعة .

فللإنسان بنظر الإسلام دوافع تتعلق بالمادة ، وله متطلّبات وميول تهدف إلى أن تكسر قيود المادة فيرتقي ويتعالى ، فلكل من الروح والجسد الإنساني متطلّبات يجب أن يعتني بها من دون تفضيل مصلحة على مصلحة (تفضيلاً مُجحفاً) .

فالإسلام يخالف انهدام الموازنة بينهما ، ويلاحظ سعادة الإنسان بالنظر إلى جميع الجوانب والميول المادية والمعنوية ، ومن دون أن يقمع شيئاً من الميول الفطرية أو يقطع شيئاً من خيوط ارتباط الإنسان بالمادة في عملية اجتذابه إلى الأعلى ، وهو يلاحظ في ذلك طهارة طبيعة الإنسان حدّ الإمكان . والخلاصة أن الإسلام قد وقف موقفاً وسطاً بين سلسلة من العقائد والأنظمة الموضوعة في سبيل اختناق الغرائز الإنسانية ، وبين أفكار تنادي بالحرية الحيوانية المطلقة والتي يقف إلى جانبها جمع من علماء النفس من نظراء « فرويد » .

إن الإسلام ليس نظرية خيالية في عالم التصورات ، ولم يأت لتصحيح أساليب الحياة ، بل انّه هو مشرّع الحياة ذات المعنى والمغزى والهدف ، وإنّ لثقافته الشاملة ميزة التحرك والبناء ، وهو النظام الحيّ ذو الفكر الشامل والمستوعب للحياة ، أرقى وأسمى من أساليب التفكير الماديّ ، وسيسود المعسكرين الشرقيّ والغربي ، وبامكانه أن يستخلف كل المدارس والأساليب الفكرية بايديولوجية أقوى وأشمل وأكمل ، تفوق وتمتاز عليها جميعاً من حيث سعة أفق التفكير .

إن الإسلام قد طرد أُسلوب التفكير الماديّ الصرف ، فلا يعرف ولا يعترف بأن تكون أولوية المادة والإقتصاد وأصالة اللّذّة ملاك السعادة وأساسها ، وإن أُسلوب التفكير الإسلامي بشأن الحياة يختلف في طبيعة أُصوله اختلافاً أساسياً وكلّياً مع الأنظمة الموجودة في العالم المعاصر ، والتي لا تقبل بأي نتيجة أو هدف سام للحياة سوى النتائج والثمار والأهداف المادية فقط .

إن الإسلام لا يحبس الإنسان في إطار الماديات والأمور الإقتصادية ، إذ أنّ أساس دعوته أجمع وأوسع من أن يتحدّد في إطار الإصلاحات الإقتصادية

فقط ، فهو لا يغفل عن مختلف النواحي الأخرى للحياة والميول السامية للإنسان ، وقد قرّر نظام حياته وأسلوبه على أصول معنوية وروحية وأخلاقية وقرارات قابلة للتطبيق على نظام الخلقة العام والخاص للإنسان ، وهو في نفس الوقت الذي يقرّر فيه التعاون الإجتماعي بين أبناء الإنسان يرتفع بقيمة الحياة إلى أفق أعلى من هذه الأفاق القريبة المادية ، ويخرج بالفرد والمجتمع من مضيق الأهداف الصغرى والحقيرة ، ويدفعهم إلى الجدّ والسعي في ساحة الأهداف السامية للحياة ، ويجتذب الطاقات البشرية نحو التقدّم والتكامل الذي أضمره له ناموس نظام الحياة .

إن التربية الإسلامية تبتني على أساس أن تصفّي وتهذّب العواطف الإنسانية ، وتدفع بها للعمل في المسار الصحيح والمعقول ، ولتأمين أهدافه على هذا الصعيد يتقدم بخطواته إلى الأمام ببصيرة تامّة . فهو يسلك بما هو موجود في طبيعة الإنسان من الدوافع المحرّكة للحياة من جانب والميول الفطرية والحاجات العريقة والأصيلة من جانب آخر ، في نظام خاص جامع شامل كامل ، ويهتم برعاية كلّ منهما في محله ، فهو ينظّم ويضبط الميول المفرطة والمتسرّعة بوسائل مختلفة ، كي لا تتمكن هذه الغرائز من أن تسجن العقل وتأخذ بزمام اختيار مصير الإنسان بصورة كلية ، وهكذا يمنع عن سقوط الإنسان في ورطة الهلاك ، وفي نفس الوقت يبيح لكل فرد بحظ معقول من المُتع المادية .

وبناء على ذلك فالإنسان في بناء حياته وتطوّرها يصرف شطراً من قواه لإستقرار الحياة ، ويعمل بالقسم الآخر في الإستجابة لمتطلّباته المعنوية وميوله النفسية غير الشهوانية .

وكلّما حدث هكذا انسجام في طبائع أفراد المجتمع ، انتظم الفرد والمجتمع كلاهما ، وتعادلا في أفكارهما وسلوكهما ، واتّجهت حياة الإنسان نحو الحق والصدق والهدى .

وحيث أن أساس هذه التربية قد تأسست على قاعدة عقلية فالدعوة الدينية ليست إلاّ إلى سلسلة من العقائد النزيهة عن شوائب الأوهام ، وإلى قوانين

وقرارات عملية وفضائل أخلاقية يدرك الإنسان بقوة موهبة العقل الإلٰهيّة واقعينها وصحتها . وإن جميع تعاليم الإسلام وتكاليفه في إطار الوسع والطاقة لكل فرد ، فهو في حين التشريع الإيجابيّ أو السلبيّ يلاحظ كل إمكانات الطبيعة البشرية وشرائطها ، ولا يكلّف الإنسان في أعماله وسلوكه بأكثر مما في وسعه وطاقته ، وكل مسؤول عن تكاليفه التي يُجازى عليها يوم القيامة وفقاً لوسعه وطاقته في الإرادة والإمكان في الإنحطاط أو الكمال .

إنّ أكثر المنابع الحقوقية اليوم أصالةً هي الإرادة العامة ، فمستند القانون في النظام الديموقراطيّ اليوم إرادة الأكثرية (واحد وخمسون بالمئة) بل لا تعترف الديموقراطية بأي مصدر آخر لتقرير مصير المجتمع سوى الإرادة العامة . وفي هكذا أنظمة لا يقيّمون إرادة الأقلية (تسع وأربعون بالمئة) بل يسلبون منهم حريتهم في أعمالهم ولو كانت نظرية الأقلية صحيحة تتفق مع الواقع . وبكلمة فانّ العالم المتحضّر يرى أنّ « سيادة إرادة الإنسان » من أقدس الأصول الإجتماعية وأنّ هذه القداسة والعظمة لا تنفكّ عن الإرادة العامة ، وأن مرجع جميع القيم المادية والمعنوية ترتبط بالإرادة الوطنية والقومية .

بينما أزمّة التشريع في الإسلام منوطة بإرادة الله ربّ العالمين ، لا على أساس الميول والعواطف غير المحدودة لأكثرية الأفراد . فالإسلام يرى أن التشريع أمر لا يمكن أن ينفكّ عن مقام الألوهية ، وإنّ نظرة الإسلام بشأن الحاكمية المطلقة لله واسعة تشمل كل الحياة وشؤون الإنسان فكما أن العبادة خاصة به لا شريك له ، كذلك الحاكمية المطلقة وتشريع القوانين وإصدار الأوامر بشأن العباد من شؤون الله ، ولا يحق لأيّ فرد أن يضع القوانين أو يصدر الأحكام كيفما يشاء ويهوى ويريد .

فكيف نرى الله أهلاً للعبادة في حين نأخذ دساتير الحياة من غيره ؟!

وعليه فلا يحقّ لأحد أن يرى نفسه شريكاً لله في حاكميّته فيشرّع القوانين معارضاً بها القوانين الإلٰهيّة[1] .

---

(١) أما القوانين والقرارات والتشريعات والأنظمة والأحكام والأوامر التي لا تعارض الإلٰهية

إن الإسـلام يهـدف إلى أن يُعمـل بمقتضى الحق في جميـع شؤون المجتمع الإنساني ، والحق لباس قيّم خاطه الله لعامة الإنسان (فرداً وجماعة) ولا يخص الحالات والأوضاع الإجتماعية أو السياسية أو الإقتصادية فقط .

كما أن كيفية بناء وجود الإنسان كيفية معقـدّة مليئة بـالأسرار ، فكـذلك القوانين والمقرّرات التي ترتبط بحياة الإنسان . وليس لأحد أن يدّعي أنّه مطّلع على جميع أسرار وجـود الإنسان وحـالاته الإجتمـاعية المنتجـة عن الأوضـاع الروحية والجسمية الخاصة وعلاقات بعضهم ببعض ، بصورة تامة وبشكل كامل ودقيق ، وأنّه هو مصون عن الزلّة أو الخطأ والإشتباه .

فالبشر بالنظر إلى محدودية علمه مع كل ما بذله العلمـاء منهم من جهد لاكتشاف أسرار وجود الإنسان فقـد بقي العلم بالإنسـان كطلسم أو لُغـز أو سرّ غامض .

وقـد كتب الدكتـور الكسيس كاريـل العالم الشهيـر مستلهمـاً من العلوم العصرية يقول :

« حقاً إنّ الإنسان قد بذل جُهداً وافراً في سبيل معرفة نفسه ، ومع كل ما وصل إلينا من المواضيع الكثيرة بهذا الصدد من قبل العلماء والفلاسفـة الكبار وحتى الشعـراء ، لم نعرف من عـالم أنفسنا إلاّ جـوانب معينة فقط ، نحن لـم ندرك الإنسان كلياً من قرنه إلى قدمه ، بل هـو في نظرنـا : موجـود مركبٌ من أجزاء عيّنتها وسائلنا وأدواتنا ، وقد أحاطت بأطراف كل واحدة من هذه الأجزاء هالة من الغموض والإبهام .

بـل الحقيقة أن جهلنـا كثير في ذلـك ، ذلـك أن كثيـراً من الأسئلة التي تتراءى لأهل الفنّ أي المشتغلين بـدراسة النـوع الإنساني ، يبقى أكثـرها بـلا جواب ، وذلك بسبب أن هناك كثير من المجالات في باطن ذواتنا لم يسخّرها العلم حتى اليوم .

= منها فلا مانع منها حتى على مبنى آراء أكثرية الشعب أو الأمة أو أولي الأمر أو أولي الحل والعقد منها حسب أمر وليّ الأمر الشرعي أو أولي الأمر الشرعيين ـ المترجم .

بديهيّ أنّ كلّ ما ظفر به العلماء في دراسة الإنسان قليل جدّاً ، بحيث نطوي نحن اليوم في معرفة أنفسنا مراحل بدائية في الأكثر »[٢] .

وبناءً على ذلك فمع عدم معرفة كل الأسرار في وجود الإنسان لا يمكن للبشر أن ينظّم قوانين تتوافق مع كل منافع النوع الإنساني ، ولا أن يجد حلا عادلاً لكل المشاكل البشرية . وإنّ أبرز الأدلة على ذلك حيرة العلماء والحقوقيين أمام المشاكل الحديثة التي تُصاب بها البشرية ، وأن القوانين المدوّنة تتعرّض للتغييرات . أضف إلى ذلك أنّ المشرّعين يتأثرون بميول أنفسهم ومتطلباتهم وغرائزهم ومنافعهم ومصالحهم وحبّ الجاه والمقام والأفكار الخاصّة الناتجة عن شرائط المحيط وأسلوب المعيشة والحياة ، ولذلك فهم يُدخلون نظرياتهم ومتطلّباتهم الشخصية في وضع التشريع ، وهم عند تنظيم القوانين يتّجهون ـ علموا أم لم يعلموا ـ بأفكارهم إلى جهة تؤمّن على نظريّتهم الشخصية أو الخاصة . كتب « مونتسكيو » يقول :

« ليس هناك مشرّع قانوني لا تكون له نظرة خاصة في ذلك القانون ، والسبب في ذلك أنّ لكل مشرّع عواطفاً وأفكاراً خاصة ، فهو حين وضعه للقانون يريد أن يضمّنه ما يوافق نظرته . فأرسطو طاليس كان في وضعه للقوانين يحاول أن يسكّن فورة حقده وحسده بالنسبة إلى أفلاطون فينتقم منه ، ويبدي حبّه بالنسبة إلى اسكندر . وكان أفلاطون بدوره يضادّ الإستبداد في شعب أثينا ونشعر بهذه الكراهية في قوانينه . والفرض أن القانون يتأثر دائماً بعواطف المشرّعين وأحاسيسهم ، بل قد يتأثر القانون بنظر المشرعين وعواطفهم الخاصة بشكل كامل وبصورة مطلقة »[٣] .

إن هتافات : الحرية ، والمساواة والإرادة الشعبية ، في عالمنا اليوم ليست كلمات فارغة جوفاء وليس بمستطاعها أن تغطّي على الحقائق ، فإرادة الشعب في تشريع القوانين صوة خيالية ظاهرية للسياسة في هذا العصر

---

(٢) بالفارسية : انسان موجود ناشناخته = الإنسان ذلك المجهول .

(٣) عن الترجمة الفارسية لروح القوانين لمونتسكيو : ٥٩٣ .

الحديث ، بينما في الواقع هي إرادة القادة وهي التي تصوّر صورتها الواقعية .

كتب الكاتب الإنجليزي « هنري فورد » بشأن وضع مجتمعه الذي يُعد مهد الديموقراطية في العالم ، يقول : « لا زلنا نتذكّر الحادثة التي حدثت على أثر الإعتصام العام الذي كان بانگلترا في سنة ١٩٢٦م ، وحاولت الدولة بكل قواها أن تكسر هذا الإعتصام ، ثم أعلنت قانوناً كان موضوعاً بيد الرأسماليين وأصحاب الأموال يقول : إن هذا الإعتصام يناقض أُصول الدولة ، ثم اشتبكت قوات البوليس وكتائب الجيش مع الناس بمعونة الطلقة النارية والدبّابات والمدرّعات .

وبدأت الإذاعات والصحف بالدّعاية فوصفت الدّولة بأنها تخدم العمّال ، وهدّدت اتحاديّات العمّال بمصادرة الأموال وسجن قادتها » .

وإنّ خطاب « خروشوف » في المؤتمر الثاني والعشرين للجنة المركزية للحزب الشيوعيّ للإتحاد السوڤياتي ، يبيّن ماهية النظام الديكتاتوري العمّالي أيضاً ، يقول : « حينما كان سابقاً يحكم النظام الفرديّ (في عهد ستالين) بدت في قيادة الحزب والدولة والشؤون الإقتصادية مفاسد عديدة ، حيث كان أُولئك يصدّرون أوامر يسحقون بها حقائق ، وكانوا يتخوّفون من المستقبل فيعملون بحيطة وحذر ، ولذلك فقد ظهر في هذه الظروف عدد كثير من المتملّقين والمنافقين والكذّابين الدجّالين » .

هذه في الصورة الاعتيادية لهذه الأنظمة في الشرق والغرب ، بينما هم يتحدّثون في الظاهر عن إرادة الشعب ، والحكومة البرلمانية ، واللجان الشعبية ، والوطنية ، والقومية ، وإرادة الجماهير ، وغيرها من الصور الخدّاعة !

والقوانين في هذه الأنظمة الفاسدة ، سواء الرأسمالية أو الشيوعية أو الإشتراكية منها ، حيث لا تشرّع على أساس الأحكام الإلٰهيّة السماوية ، فهي تُشرّع على أساس منافع الحكام وميولهم دائماً !

كتب « جان جاك روسو » : « من أجل أن نكتشف أفضل القوانين التي تنفع وتصلح لكل الأمم وجميع الشعوب لا بدّ من عقل كامل شامل ، يرى

جميع الشهوات الإنسانية ولكنه لا يشعر بشيء منها ، لا يرتبط بالطبيعة ولكنه يعرفها تماماً ، لا تتعلق سعادته بسعادتنا ولكنه يستعد لمساعدتنا لإسعادنا »[٤] .

بالنظر إلى هذه الحقائق المذكورة فانّ أفضل مشرّع صالح تتوفر فيه الشروط على أحسن وجه هو الله خالق الإنسان ، الذي هو عالم بجميع أسرار وجوده ، والذي لا نفع له في المجتمع البشريّ ، والغنيّ عن كل أفراد الإنسان . ولذا فيجب أن نتعلم أصول القوانين الإجتماعية الصحيحة ممّن يستلهم من هذا المبدأ بشكل مباشر ، والذي تنبع تعاليمه من نور الوحي ، والمستند إلى العلم الإلٰهي اللّامحدود .

ومن الفوارق الأساسية بين القوانين الإلٰهيّة والقوانين البشرية هو أن أساس القوانين والقرارات البشرية هو نظام المجتمع ، ولا تتعدى قراراتها عن هذا الحدّ المحدود والمرسوم ، ثم لا دخل لها في كيفية حالات الأفراد ، وأسلوب تفكير الإنسان وصفاته ومزاياه الروحية وسائر شؤونه التي لا ترتبط بالمجتمع ، ولا علاقة لها بإصلاح التلوّثات الباطنية ما لم تصل إلى مرحلة العمل وما لم تكن مُخلّةً بنظام المجتمع ، مهما كان الفرد في جميع شؤونه الفكرية والروحية متلوثاً غير طاهر ولا نزيه وفيه مختلف النقائص والنواقص . إن القوانين التي تحكم اليوم العالم الغربي إنّما هي ناظرة إلى أعمال الناس فحسب ، ثم لا تنظر إلى طهارة قلوبهم ونزاهتها . بينما تتسع نظرة الإسلام إلى الحياة سعة مطلقة ، وقد بنى وأسّس قراراته على أساس التكامل الفردي والإجتماعي .

فالإسلام بالإضافة إلى العناية بنظام المجتمع يريد تربية الفرد واصلاحه وتكامل حالاته وشؤون حياته ، وهو يرى أصالة لشؤونه المعنوية ، ولذلك فقد أولى عناية تامة بتطوّره وتكامله .

يهدف الإسلام إلى أن يكون المجتمع منتظماً ، والأخلاق نزيهة طاهرة ، والفكر والعمل صحيحاً والنفس مطمئنة ، ولذلك فهو يحكم في جميع الشؤون وفي كل مجال . ويريد الإسلام أن يستقر نظم صحيح بين الحياة المادية

---

(٤) عن الترجمة الفارسية للعقد الإجتماعي : قرارداد اجتماعى : ٣٣٦ .

والمعنوية ، بين الأفراد والمجتمعات ، وبين الأفكار والأعمال ، كما يستولي النظام بين كل صغيرة وكبيرة في هذا الكون حسب النواميس الطبيعية . فالإسلام يريد أن لا يتخلّف الإنسان عن مدار القرار السائد على نظام الخلقة ، إذ التخلّف عنه يوجب اختلال كل الشؤون الإنسانية .

في القوانين الوضعية البشرية تحمل التكليف بتنفيذ القانون المؤسسات والأجهزة التنفيذية ، أما في الإسلام فيضمن تنفيذ القانون (بالإضافة إلى ذلك) إيمان الناس به الإيمان العميق والعريق ، فالمسلم يعمل بوظائفه وتكاليفه القانونية حتى في مكان لا يراه فيه أحد إلاّ الله مندفعاً بالدافع المعنويّ الإيماني ، وفي موارد محدودة وعلى أفراد من ضعاف العقيدة والمنافقين يصبح من الضروري التوسّل بالقوى التنفيذية . والخلاصة : أن الإسلام يهتم بطهارة القلب وحسن العمل كليهما ، ويرى أن العمل الطاهر والنزيه والمستحق للأجر والثواب هو العمل المستند إلى نيّة خالصة والنابع من منبع الإيمان .

كتب المدعي العام الأمريكي في مقدمة كتاب عن الحقوق في الإسلام يقول : « لا مساس بين القانون في أمريكا وبين التكاليف الأخلاقية إلاّ مساساً قليلاً ، فالشخص الأمريكي في الحقيقة في نفس الوقت الذي يمكن أن يكون فيه مطيعاً للقانون يمكن أن يكون ـ فعلاً ـ فاسداً ذليلاً من حيث الأخلاق . أما في القوانين الإسلامية فانّ منبع القانون ومصدره هي إرادة الله ، تلك الإرادة التي انكشفت لرسوله محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وهذا القانون وهذه الإرادة الإلهيّة ترى جميع المؤمنين مجتمعاً واحداً ولو كان متشكّلاً من قبائل وعشائر مختلفة وكانوا يسكنون في مواضع وأمكنة بعيد بعضها عن بعض . فهنا الدين هو القوة السليمة التي توصل الجماعات بعضها ببعض لا القومية والحدود الجغرافية (باسم الوطنية) وهنا الدولة أيضاً عليها أن تكون مطيعة للقرآن وتابعة له ، ولا يدع القرآن مجالاً لأيّ مشرّع غيره فضلاً عن أن يسمح للنفاق والشقاق . المؤمن يرى أن هذا العالم دهليز وممرّ إلى عالم آخر أفضل منه ، والقرآن هو الذي يعيّن القوانين وقواعد السلوك بين الأفراد والمجتمع كي يؤمّن لهم تحوّلاً وانتقالاً وادعاً سليماً من هذا العالم إلى الآخر .

مع أنّ أسلوب تفكير الغربيين في الإسلام أسلوب قاصر ، وكثيراً ما يكون

مزيجاً بالغرض وتحريفاً للواقع وضالاً ، مع ذلك فقد أدرك كثير من مفكريهم عمق التعاليم الإسلامية وأصالتها ، ولم يأبوا من الخضوع أمام الإسلام ورسوله وتعاليم دينه القويم .

ليس من العجيب ثناء عالم مسلم على أحكام الإسلام وقوانينه ، ولكن لو ذكرت شخصية علمية غير مسلمة ، ذكر الإسلام وقائده العظيم بالعظمة والجلال فلذلك أهمية كبرى . وإنّما الذي حملهم على احترام هذا الدين المقدس وتعظيمه والخضوع أمامه هو ما فيه من القوانين الراقية والأنظمة المدهشة التي أهداها إلى عالم الإنسانية رسول الإسلام العظيم .

وليس غرضنا من نقل مقال كبار الغربيين هنا أن نسمع مفاخر ديننا عن لسان الأجانب ، بل الهدف من ذلك هو أن لا يبقى أيّ مجال للشك والترديد في هذه الحقيقة الكبرى لطلّاب الحقيقة .

كتب البروفيسور الإيطاليّ الشهير الدكتور « واجليري » يقول بشأن القرآن الكريم :

« نحن نرى في هذا الكتاب ذخائر وخزائن من العلم هي فوق استعداد أذكى وأقوى رجال السياسة وأكبر الفلاسفة ، وبهذه الدلالة نقول : لا يمكن أن يكون القرآن من عمل رجل عالم ، فضلاً عن رجل قضى كل عمره في مجتمع غير مهذّب بعيد عن محيط رجال العلم والدين ، هذا الرجل هو الذي كان يُصرّ أنه رجل كسائر أفراد البشر ، وحينئذٍ فانّه لم يكن يستطيع أن يصنع هذا المعجز من دون تأييد من الله تعالى ، ولا يمكن أن يكون القرآن صادراً إلاّ من ساحة ربّ قدير يحيط علمه بما في السموات والأرض جميعاً » .

ويقول « برناردشو » : « لا زلت دائماً أكنّ كل الإحترام لدين محمّد (ص) لما فيه من خصائص الحيوية . فالإسلام بنظري هو الدين الوحيد الذي بإمكانه أن يفوق على مختلف الحالات والصور المتغيّرة للحياة وأن يواجه القرون المختلفة . أنا أتنبّأ أنّ أوروبا ستقبل بدين محمّد (ص) وقد بدت أثاره (علائمه) من الآن (!) .

إن رجال المسيحية في القرون الوسطى كانوا قد رسموا صورة قاتمة لدين محمّد (ص) نتيجةً لجهلهم أو تعصّبهم ، انّه كان قد بدا لهم يحمل الحقد والعصبية ضدّ المسيح ، وأنا قد قرأت عن هذا الرجل الخارق وتوصلت إلى هذه النتيجة : انّه لم يكن ضدّ المسيح لا فقط ، بل يجب أن نصفه بأنه منقذ البشرية ، وأنا أرى أنه لو تكفّل رجل مثله بقيادة العالم اليوم لكان ينتصر في حلّ مشاكله ، ولكان يحقق الصلح والسلام والسعادة التي هي حلم البشرية » .

وكتب « تولستوي » الفيلسوف الروسي الشهير يقول : « يكفي محمّداً فخراً أنّه خلّص أمّة ذليلة دموية من مخالب شياطين العادات الذميمة ، وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدم .

وإن شريعة محمّد (ص) ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة »[٥] .

وكان « فولتير » في البداية أحد ألدّ أعداء الإسلام ومخالفيه ، وكانت له أحكام جائرة بشأن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلم ، وبعد أربعين عاماً قضاها في الدراسات الدينية والفلسفية والتاريخية أدرك الحقيقة فأعلن صريحاً يقول :

« إنّ الدين الذي جاء به محمّد (ص) كان أسمى من المسيحية بلا ريب ، ولم يبتل المؤمنون به بذلك الكفر الجنوني الذي ابتلى به النصارى فقالوا : إنّ الإله الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، فالإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد كان الأصل لهذا الدين . إنّ الإسلام مدين في وجوده لرجولة قائده وفتوّته وفتوحاته ، بينما يحمل النصارى الآخرين على دينهم بمعونة السيف وتلال النار . فيا ربّي يا ليت كان شعوب أوروبا يجعلون المسلمين أسوتهم وقدوتهم »[٦] .

« كان محمّد (ص) رجلاً عظيماً جدّاً بلا ريب ، وقد ربّي في حجر فضله

---

(٥) نقلاً عن الترجمة الفارسية لكتاب : الأبطال .
(٦) بالفارسية : اسلام از نظر ولتر : ٩٩ .

وكماله رجالاً عظاماً أيضاً ، كان مشرّعاً حكيماً ، وسلطاناً عادلاً ، ورسولاً تقيّاً ، وأحدث أكبر ثورة في الأرض » .

وكان « فولتير » يحترم النابغة الكبير « مارتين لوثر » فكأنّه سُئل عن القياس بينه وبين محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فقال : « ليس جديراً للوثر أن يحلّ بنود حذاء محمّد (ص) »[٧] .

---

(٧) بالفارسية : كليات وولتر : ٢٤ ، ٥٥٥ .

القَاصِرُونْ

بعد كل التقدّم العلمي ، ومحاولات العلماء للكشف عن أسرار هذا العالم ، لا زال كثير من المسائل الإبتدائية مجهولة على البشر ، بحيث أن ما يعلمه لا يعد شيئاً أمام ما لا يعلمه .

إن المفكرين الكبار اليوم أُصيبوا بحيرة لدراسة الفباء الحياة الإجتماعية والسياسية والإقتصادية ، ولهم في ذلك آراء وعقائد مختلفة ، ولذلك فقد انقسم العالم إلى معسكرين مضادين[1] .

وقد كتب كل فريق من العلماء في هذه المعسكرين آلاف الكتب والمقالات يتّهم فيها كل فريق منهم الأخر بأن المنهج الآخر يسبّب التعاسة والشقاء والفوضى ، ويصف منهجه هو بأنه منهج السعادة .

وقد نال كل من الطرفين توفيقاً باهراً على صعيد التقدم العلمي والصناعي ، ومن البديهي أنّ هذه النظريات المتناقضة لا يمكن أن تكون كلها صحيحة سليمة .

إن من يتصور أن الشعوب الغربية كما توصّلوا إلى تقدم علمي محيّر ، كذلك قد اكتسبوا توفيقاً باهراً بالنظر إلى أُسلوب الحياة الإنسانية ، من يتصور

---

(١) كتب المؤلف الكتاب هذا في السبعينات الميلادية .

هكذا فهو في وهم عظيم ؛ فانّه لا يمكن أبداً أن نرى التوفيق العلميّ الصناعي لمجتمع ما ورقيّهم وتقدمهم في ناحية من الحياة دليلاً على صحة كل أساليب حياتهم .

إن التقدم الصناعيّ والتكنولوجيّ يترتب على الدراسة والتحقيق وصرف الطاقات والمثابرة بذلك الخصوص ، فكما يمكن أن لا يكون لفيزياويّ ماهر أو طبيب حاذق أي علم بالتخطيط والمعمارية ، فلا مانع أيضاً من ان يكون مجتمع ما في انحطاط أخلاقي من حيث أسلوب الحياة والآداب الإجتماعية والفضائل الإنسانية ، مع كل ما له من تقدم علمي صناعي ونحن بمشاهدة أنواع المفاسد والنقائص ومختلف النواقص في أنظمة العالم الغربيّ ، ندرك أنهم لم يتقدّموا أو لم يتكاملوا في كثير من عناصر الحضارة من الفكر والمعرفة ، والدين والأخلاق ، والحكومة ، بصورة صحيحة سليمة .

ويصف الدكتور « كاريل » نواقص الحضارة الحاضرة فيقول : « إن الحضارة اليوم قد وقعت موقعاً حرجاً ، فهي ليست منسجمة مع أرواحنا أبداً ، إذ هي لم تُختلق على أساس معرفة حقائق أرواحنا ، وإنّما هي وليدة مزيج من الإكتشافات العلمية وميول الناس ونظراتهم ومشاهداتهم . إن هذه الحضارة مع أنها تحققت بجهودنا لكنها لا تتناسب بالنسبة إلى كيفية بناء أنفسنا وأوضاعنا . هناك من يخطّط أسس هذه الحضارة يريد أن ينفع البشر ولكنها مع ذلك لا تنسجم إلاّ مع تصوير عن البشر مغشوش وناقص .

إن الإنسان لوحده لا يقدر على توجيه حياته الوجهة الصحيحة ، ذلك أنه لوحده لا يتمكن من أن يعرف أية ظاهرة بصورة جيدة .

ولذلك فان ما حظيت به العلوم غير الإنسانية من تقدم على العلوم الإنسانية من أكبر الجرائم البشرية ، إننا أشقياء لما نحن فيه من الإنحطاط من حيث العقل والأخلاق ، فلو نظرنا إلى الشعوب والمجتمعات التي بلغت فيها العلوم غير الإنسانية إلى أوج كمالها لرأيناهم قد اتّجهوا إلى الضعف والضعة بحيث يخاف عليهم أن يعودوا إلى حالة التوحش الأولية أسرع من غيرهم »[٢] .

(٢) عن الترجمة الفارسية : إنسان موجود ناشناخته : الإنسان ذلك المجهول .

إنّ تكامل الإنسان في مختلف النواحي بحاجة إلى سلسلة من التعاليم الصحيحة والشاملة المستندة إلى واقعيات الحياة بلا خطأ في ذلك ، ولا يمكن ذلك إلاّ في ظلّ تعاليم رسل الله الذين يرتبطون بمبدأ عالم الوجود من خلال طريق الوحي .

ولو كانت الأخلاق مستندة إلى التربية فقط من دون أن تكون مستندة إلى قوة غيبيّة وراء المادة ، فانها لا تستمر ولا تدوم .

منذ أن قدم البشر إلى ساحة الحياة ووضع حضارته ، كان نداء بليغ يرتفع إليه من أعماق وجوده باسم الدين ، وكانت هذه الحقيقة هي التي تحرس الأحكام والنظام الأخلاقي .

إنّ انتشار الفجائع اللاّإنسانية ، والظلم ، والإستعمار ، والحروب في العالم اليوم ، ليشهد على حقيقة أن الحكومات بما لها من قوانين لا تقدر على أن تملأ فراغ الإيمان والأحاسيس والعواطف الإنسانية ، وأن تطبّق السعادة والصفاء والعدالة والسلام في النظام الإجتماعي ، والعلم مع كل ما له من تقدم لا يقدر على أن يحلّ كل مشاكل الحياة وأن يمنع عن الإنحرافات ، وأن يدبّر نظام المجتمع بصورة صحيحة ، من دون أن ينسجم مع الدين والإيمان .

وكتب « ويل دورانت » الفيلسوف والعالم الإجتماعي الأمريكي يقول : « أفهل للدولة من الدعم والقدرة الإقتصادية والأخلاقية ما تقدر معه على أن تصون كل التراث العلمي والأخلاقي والفنيّ لأمّة ، والذي هو عصارة حضارتها ولُحمتها وسداها ، وأن تضيف إليه وتنقله للأجيال الآتية ؟! أم أن الدولة بجهازها الحاضر ستسقط بصورة تلقائية بأيدي أناس من الطبقة الثانية والثالثة الذين يرون العلم كفراً والفنّ سرّاً أجنبياً وغريباً ؟! وإلاّ فلماذا تدار الدولة عبر أجهزة تفتقد حسن السياسة والوطنية والإخلاص ؟! ولماذا يحكم أكبر مدن أمريكا أصاغر الرجال ؟! ولماذا قد انحصر العمل الأساسيّ للدولة اليوم في الحدّ من الجرائم ؟!

ولماذا شاع الغش والفساد في الإنتخابات ، والخيانة بالأموال العامة حتى أن اكتشافها وإعلانها أصبح لا يحرك ساكناً من غضب الناس ؟! ولماذا أصبحت

الحكومات وهي تعقد معاهدات الصلح تتجهز للحرب ؟! أفهل هذه الحكومات هي التي يجب على الكنيسة والأسرة أن تعهد بصيانة الحضارة إليها »[٣] .

إنّ المجتمع الغربي لا يتحمّل هذه الفوضى الأخلاقية وأمواجها المحطّمة إلّا بمقياس محدود ، نظراً لمحدودية قواه وطاقاته ، وعليه فانّ استمرار هذه الطريقة فيه يدق عليه ناقوس الخطر فيه ، إذ الحضارة إنما تبقي قائمة على أساسها ما دام التوازن بين أسبابها وأهدافها وقدراتها وأوصافها باقياً ، أما لو فقد هذا التوازن وبلغ الفساد آخر حدّه ، فلا يقدر أي خير أن يظهر في هكذا أوضاع مظلمة ، وسوف تصل المرحلة المصيرية لهذا الإنحطاط والتي هي العدم والإنهدام . ذلك أنك لا تجد قوماً في جميع أدوار حياة البشر بقوا أقوياء مع كل ما فيهم من الإنحطاط الخلقي والتلوّث الشهوي .

كما سقطت الامبراطورية الرومانية الكبرى وذلّت بمثل ذلك من الفوضى ، وانكسرت عظمة اليونان وانهزم مجدهم وأصيبوا بنكبة مصير مشابه ، وخضعت فرنسا بشهواتها أمام أول ضربة للنازيّين وافتقدت قدرتها وشوكتها . وقد كتب أحد الجنرالات في الجيش الفرنسي مذكّرات أسند فيها الشطر الأعظم من هزيمة هذه الأمة العريقة المتحضرّة إلى إفراطها في الشهوات والملذّات .

وكان « شبيگلر » الألماني أيضاً ممن يعتقد بسقوط الحضارة وزوالها من الغرب ، ويعلن صريحاً أن بقاعاً أخرى من الأرض ستشهد حضارة أرقى . ومن يدري أن هذه الحضارة لا تعود مرة أخرى إلى مشرق الأرض أي مهدها الأول ؟!

ولكن بعد سقوط قصر هذه الحضارة الضالة والمنحرفة لا يقع زمام مصير الناس بيد نظام عادل أتوماتيكياً تلقائياً ، بل إن سقوط أية حضارة وانعدامها يشكل فرصة لشق الناس طريقهم نحو البرنامج الإلهيّ ولاتّجاههم إلى تلك الحقائق السامية ، ولبنائهم حياتهم على أساس الخير والفلاح والصلاح ، أمّا إذا هم لم ينتفعوا من هذه الموقعية الحسّاسة وفوّتوا على أنفسهم فرصة الإقبال على

---

(٣) بالفارسية : لذات فلسفة : ٣٢٦ و٣٢٧ .

البرنامج الإلهي والمسلك الصحيح ، فانه سوف لن يظلل عليهم طير السعادة والخير ، بل إنهم ينتقلون من ضلال إلى ضلال .

أما اليوم فمن المؤسف أن علائم وجود عقدة الإحتقار أمام التفوّق الصناعي الغربي وتأثيرها بادٍ في جميع شؤون الشعوب الشرقية ، فالإحتقار يبدو على ملامح حياتهم كلها ، وقد ترسّخت الأفكار والمبادىء الغربية في كثير من المسلمين بحيث أنهم يريدون أن ينظروا إلى كل شيء بالمنظار الغربيّ ، ويرون أنه من أجل التقدّم والرقيّ يجب علينا أن نقلّدهم خطوة بخطوة في الأصول والفروع والآداب والأخلاق والحقوق والقوانين وبالتالي في كل شيء ، وأن نسلّم بأفكارهم تسليماً أعمى وأن نخضع لنير عبوديّتهم من دون أن نقول : كيف ولماذا ؟! وقد ملأت المكنة العلمية الغربية أفكارهم بحيث يقدمون إلى أعتابهم كل ما لديهم من شخصّيتهم وإرادتهم ورساميلهم المادية والمعنوية ، والسنن والآداب الدينية والوطنية والقومية ، بكل سهولة ويُسر ! ويرون أنّ من وظيفة كل من يريد التقدم أن يتّبع مختلف مظاهر هذه الحضارة ! وهذا هو من أكبر عوامل ذلة المسلمين وأسرهم وبؤسهم وشقائهم وتعاستهم وتعطيلهم لقواهم المادية والمعنوية ، ويغفل هؤلاء عن أن العلم الغربيّ لا يقدر على حلّ المشاكل والمسائل التي لا تدخل تحت مقاييس المادة . وإن أهم المسائل التي يواجهها الإنسان ليست من المسائل التي يمكن أن نجد إجابتها في المختبرات . ومن البديهيّ أن هؤلاء لا يملكون أن يفكّروا حسب أسلوب التفكير الإسلامي وأن ينظروا إلى حوادث العالم بالمنظار الإسلامي ، مع إنهم من المسلمين ولكن الدين قد تغيّر في أيديهم رأساً ، فهم أجانب عن التعاليم والثقافة والحضارة الإسلامية ، ويريدون أن يقيسوا الأحكام والقوانين الإسلامية وآداب المسلمين ومراسيمهم بالمقاييس الغربية .

يقول أحد المفكّرين المسلمين : « ما عذرنا ولدينا نظام آخر لا يجعلنا ذيولاً لركب الحضارة ، لا في الجبهة الشيوعية ولا في الجبهة الرأسمالية ، بل هو يحقق لنا العدالة الإجتماعية في داخل بلادنا ، ويمنحنا شخصية عالمية أيضاً . نظام يستردّ إلينا كياننا الماضي في المحاضر الدولية الأخرى ، وينقذنا وينقذ المجتمع البشريّ من بلاء الحروب !

وماذا نريد في حين أنّ في ديننا قرارات وقوانين تحلّ مشاكلنا ، ثم لا يجعلنا أن نحلّ على مائدة الإنسانية محلّ المساكين الصعاليك الأذلاّء ، بل يجعلنا مساهمين في نظام الحضارة باسهام يساعد النظام الحضاريّ ، وليس رأسماله من القليل الحقير !

أنا أعجب كيف يمكن أن إنساناً يقذف بنفسه من محل الشرف إلى ساحة الذلّة ؟ وكيف يمكن لإنسان أن يستبدل يده الباذلة المعطية باليد المستعطية ؟ وأنا لا أفهم كيف أن إنساناً يترك موقع القيادة ليختار موقع السامع المطيع ؟ بينما بإمكانه أن يختار الطريق الصحيح لو أنّه يكافح الشعور في نفسه بالاحتقار والذلة !

إنّ لنا رصيداً نستطيع أن نقدّم منه للبشرية ، ولسنا كما يريد الشرق والغرب أن يلقّننا بأننا متأخرون مضطرّون إليه ، نعم إنهم يريدون أن نفكّر هكذا ليحلّ القلق والإضطراب محل الثقة واليأس محلّ الأمل ، لكي نقع صيداً في مخالب هذا أو في شبكة ذاك .

ومن ناحية أخرى فقد جرّبنا كل شيء حتى مللنا من التجربة ، لقد عملنا بمظاهر هذه الحضارة المنفوخة والمتزيّنة التي جمعناها من هنا وهناك كالمساكين الصعاليك ، في جميع شؤون حياتنا الفكرية والإجتماعية والقانونية ، حتى أصبح مظهرنا مثل « كارنوال = القرنول » في أسلوب تفكيرنا ومظاهرنا الإجتماعية ، وفي تشكيلة ملابسنا وحتى أطعمتنا !

وكنموذج نذكّر بالقوانين التي أخذناها في البداية من فرنسا ثم من سائر الدول الأوروبية ، وبعد ذلك كلما احتجنا إلى قانون لحياتنا اقتبسنا ذلك من قوانين لمختلف الدول . وهنا تناقض دائم بين روح هذه القوانين التي اقتبسناها من الأجانب ، وبين روح أمتنا التي نضع لها هذه القوانين ، إن شعبنا يمنح لمن يناقض القوانين أوسمة شرف ويراه قهرماناً ولا يبخل عليه بشيء من المساعدة والمعونة والتأييد ، وذلك بمقدار ما هو يتقزّز ويتنفّر من الدول المنفّذة لتلك القوانين ، ويبخل بثقته على النظام الحاكم بها ، ويضيق ذرعاً بما يطالب به من الأدلة والشواهد ، فلماذا الأمر هكذا ؟

يقـولون : لجهـل الناس ! ولكن كـلاّ ، ليس سبب ذلك الجهـل ، فان المثقفين أيضاً لا يستجيبون للقانون بـإجابـة إيجابيـة . بل السبب الـواقعي هو التناقض بين الأمة وبين روح القوانين ، وفي أنها عوار مستعارة ، ذلك أنها غير مستمـدة من السـوابق التـاريخيـة والأحـاسيس القـوميـة والـوطنيـة والـدواعي الإجتماعية ، بل إنها جاءت من جوّ أجنبيّ بـالنسبة إلى روح هـذه الأمّة ، من مجتمع له تاريخه ودينه وحاجاته ومواقعه الخاصة . وما دام القانون لا يستجيب لحاجات الأمـة وروحيّتها بـإجابـة إيجابيـة فانّ الأمـة تأبى الإخـلاص والطاعـة له »[٤] .

وكتب « هاكنج » العالم الأمريكي المعروف وأستاذ جامعة « هاروارد » في كتابه « روح السياسة العالمية » يقول : « إن طريق رقيّ الدول الإسلامية ليس أن تقلّد الأنظمة والقيم الغربية وأن تستعملها في حياتها . وقد يسأل البعض : هل للإسلام مادة فكرية بإمكانها أن تنتج أفكاراً جديدة وتعرض على البشر قـوانين ودساتير مستقلة متوافقة ومنسجمة مع حاجات الحياة الجديدة ومقتضياتها ؟

والجواب هو أنه ليس في النظام الإسلامي الإعداد والإستعداد لكل تكامل ورقيّ فقط ، بل إن قابليّة النظام الإسـلامي للتطوّر أكثـر من كثير من الأنـظمة الأخرى . وليست مشكلة الدول الإسلامية أن ليس في الإسلام وسائل التكامل وأدوات التقدّم ، بل هي أن ليس في هذه الدول تلك الإرادة اللازمة للإفادة من هذه الأدوات والوسائل . وأنا أدرك بنظرة واقعية أن الشريعة الإسلاميـة تحتوي على كل المبادىء والأصول اللازمة للرقيّ والتكامل » .

يـوم واحد لـو تُراعى فيـه الدسـاتير والقـرارات الإسلاميـة والمحرّمـات الدينية ، كم يكون له من نتائج قيّمة ومن السّلام والـوئام والـراحة والـطمأنينـة والصفاء والخلوص ! والخبر اللاحق نموذج عن هـدوء لا يوصف على أثـر يوم واحـد روعيت فيـه القـرارات الـدينيـة إكـرامـاً لـذكـرى شهـادة مـولى المتقين أميـر المؤمنين علي بن أبي طالب عليـه السلام ، إذ أطلّت على مـدينة كبـرى مكتظّة بالسكان كطهران . كتبت الجرائـد عنها هكـذا : « أمس كانت طهـران

---

(٤) بالفارسية : إسلام وديكران : ٤١ ـ ٤٢ و٤٨ ـ ٤٩ .

هادثة بلا حادثة ، وكانت دائرة الطب العدلي بلا عمل ، وفي مخافر الشرطة لم يكن أثر من المتّهمين والإستجوابات والأضابير ، كان يوم أمس « أهدأ أيام السنة » ولم تحدث أية حادثة تقريباً . في دائرة الطب العدلي لم يكن حتى جسد واحد للكشف عن آثار الجريمة فيه ، قال الطبيب العدلي : لم يأتوا حتى بجسد واحد للكشف في طول النهار . وفي الأربع والعشرين ساعة لم تتفق أية حادثة تؤدّي إلى موت أحد في طهران ، وكما في المثل الفارسي : لم يتحرك الماء ! وكذلك كان الوضع في مخافر الشرطة وشرطة النجدة والدرك ، وكان مسؤول في الشرطة يقول : على أثر عطلة يوم ذكرى وفاة الإمام علي عليه السلام مكث أكثر الرجال في بيوتهم ، ولو حدث بينهم وبين أزواجهم خلاف فانّهم كانوا يخصمونه ولا يعقّبونه احتراماً لذكرى الوفاة ، ولذلك لم تتشكل حتى إضبارة واحدة في الخلافات العائلية بين الزوجين »[٥] .

« وفقاً للإحصاء الخاص بدائرة الطبّ العدليّ ، شُرّح (٢٥٢٥) جسداً في طهران ، وكمعدّل يشرّح في اليوم ستة إلى ثمانية أجساد هناك وتصدر جوازات بالدفن ، وفي أيام الحداد المذهبيّ (وفيات الأئمة المعصومين عليهم السلام) يقل هذا العدد بشكل هائل ، حتى أنه في يوم ذكرى شهادة مولى المتّقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (١٣ ديماه ٤٥) لم يأتوا إلى الطب العدلي حتى بجسد واحد ، وهذا يدل على أن العقيدة الدينية لا زالت قائمة ، وعلى أنه حينما تكون البارات ومراكز الفسق والفجور وحوانيت الخمور مغلقة كيف يتّجه المجتمع نحو السلامة والإستقامة »[٦] .

فأيّة قوّة استطاعت أن تمنح المجتمع هذا الهدوء الخارق ؟ حقاً لو كانت القرارات والقوانين الإسلامية تنفّذ في المجتمع ، وكان الناس يعملون بتكاليفهم الدينية بصورة جيّدة كيف كان المجتمع يصبح مجتمعاً سعيداً سليماً ، وكيف كان الهدوء والأمن والسلام والوئام يسود محيط الناس بخلوص وصفاء .

---

(٥) عن الجريدة الإيرانية : كيهان بتاريخ ١٤ ديماه ١٣٤٥هـ . ش .

(٦) عن المجلة الإيرانية : خواندنيها ، السنة ٢٧ ، العدد : ٣٧ . من قبل انتصار الثورة الإسلامية .

هل تقدر الدول الغربية بما لها من أموال وقوّات كافية أن تطبق هدوءاً كهذا ولو في ساعة واحدة في السنة ؟! بل لا يوجد في كافة أنحاء العالم الغربي مدينة كبرى أو صغرى تقضي حتى ساعة من ساعات حياتها من دون اصطدام أو جريمة أو سرقة أو قتل ، هذا الذي رأته طهران المكتظّة بالسكان في مدة أربع وعشرين ساعة بمناسبة الذكرى السنوية لشهادة الإمام عليّ عليه السلام ، هل يمكن أن يُقدّر هذا الهدوء والسلام بثمن ؟!

وهنا علينا أن نقول بكل أسف :

كان قلبي يطلب الطوبى ، سنيناً * يتمنّى ما له ، عند الأجانب[٧]

---

(٧) تعريب لبيت شعر لحافظ الشيرازي يقول :

سال هادن طلب جام جم از ما ميكرد   آنچه خود داشت زبيگانه تمنّا ميكرد !

والتعريب للمعرّب

الإسلامُ وَ المَشاكِلُ الإقتِصادِيَّةْ

إن الإفادة من المواهب الطبيعية كانت ولا تزال من أكثر المسائل الإنسانية ضرورة تلازم حياة النوع الإنساني دائماً وأبداً ، فحوائج البشر كانت في صميم حياته غاية الأمر أنها كانت تتغير حسب مقتضيات الزمن طوال القرون : ففي الأدوار القديمة جدّاً كانت الإفادة من مواد الطبيعة واكتساب المعيشة منها على شكله الساذج والبدائي ، ثم تطوّر تدريجيّاً إلى قوانين وأنظمة وشرائط خاصة حسب ارتباط الناس بعضهم ببعض وتقدّم الأمم . ومنذ ما يقرب من أربعة قرون أي في أوائل عصر الرأسمالية دُوّن علم الإقتصاد على أساس تحليل الحياة الإقتصادية .

وإن تقدم الحضارة في القرون الأخيرة والثورة الصناعية والتكنولوجية وتطوّر وسائل الإتصالات وتقدم الأمم سبّب في أن يُعرف علم الإقتصاد بصفته من أهم عوامل التغييرات الإجتماعية ، ويُبنى على أساس الأنظمة « الرأسمالية » و « الشيوعية » في المعسكرين الشرقي والغربي . وإن جميع المناقشات الشرقية والغربية تدور حول مسألة أن كيف نحلّ المشكلة الإقتصادية للبشر ؟ وأنّ أيّ نظام إقتصادي يمكنه أن يكون هو حلاّل المشاكل الإقتصادية المكنية اليوم ؟ وأنّ أيّ طريق أقرب للعدل في توزيع الثروات بين الأيدي العاملة وغيرها ؟

والمبدأ الماركسيّ طريقة ثورية نفّذتها ثورة اكتوبر في الإتحاد السوفياتي ،

والطريقة الأخرى (الرأسمالية) تنفّذ في أكثر الدول الغربية على أشكال وصور متعددة .

و « الشيوعية » تدّعي أنها تستطيع أن تطيح بظلم الإستغلال ، وأن تجيب على المشاكل الإقتصادية العالمية ، وهي ترى أنّ حلّ المشاكل الإقتصادية إنّما هو في فكّ الملكية الخاصة ، وأن تصبح وسائل الإنتاج اشتراكية ، وترى أن الملكية الفردية كانت في كل أدوار التاريخ متلازمة مع الإستغلال والظلم ، وعليه فبإلغاء الرساميل الكبرى وإخراج وسائل الإنتاج عن ملكية الطبقة « البرجوازية » بتأميمها وبالتوزيع العادل للثورة تتحسّن الأوضاع الإقتصادية ، وبنفي النظام الطبقيّ ينتفي الظلم الناتج عن الرأسمالية ، وسيصبح المجتمع مجتمعاً موَحّداً ذا طبقة واحدة متساوية منسجمة في جميع الأمور ! !

وهنا سؤال يطرح نفسه ؛ وهو : هل يكفي في توحيد طبقات المجتمع أن نعمد إلى عامل واحد من عوامل الطبقية في المجتمع فنجعله عاملاً متساوي التأثير ؟ بينما هناك عوامل مختلفة ومتنوّعة لإحداث الطبقات في المجتمع ، فكم هناك طبقات تنشأ من جذور عسكرية أو دينية أو سياسية . فلوحدة الطبقة علينا أن نجعل كل العوامل متساوية التأثير . وهذه حقيقة واضحة أنّ هناك في داخل الدول الإشتراكية لا توجد طبقة بعنوان الطبقة البرجوازية أو الرأسمالية ، ولكن لهم طبقات من العمال والفلاحين والموظّفين والحزبيين ، تختلف مستويات معيشتهم فيما بينهم اختلافاً كثيراً ! ! فهل تتساوى في الإتحاد السوفياتي رواتب الأطباء والممرّضين ؟ وهل يستلم العامل البسيط مثل ما عُيّن للمهندسين ؟ أضف إلى ذلك أن الإختلاف في الأفكار والآمال والميول والعواطف والقوى الجسمانية بين أفراد المجتمع لا يزال موجوداً ، وسيحتفظ به قانون الوراثة إلى الأبد . ويعترف بهذا أحد قادة المبدأ الشيوعي يقول :

« لا يمكن لنا عملياً أن ننفّذ المساواة المطلقة . فنتنزّل عمل العلماء والمفكرين والسياسيين والمخترعين إلى درجة واحدة مع العمل البسيط (غير المركّب) إذ ليست عاقبة ذلك سوى الجمود الفكريّ وتعطيل الحياة العقلية والفنيّة) .

وتدّعي الرأسمالية أن بالرأسمالية فقط تُحلّ عقدة الإقتصاد التكنيكي (التقنيّ) ولذلك فهي لم تُلغ عنوان المالكية الفردية ، بل إن الرأسماليين من أجل احراز التوازن بين العمل والأجر وتقليل الفاصل الطبقيّ أمّنوا للطبقة الضعيفة حدّاً أدنى للعيش(١) .

ولكن هل انعدمت تلك الفواصل الطبقية العظيمة بهذه المشاريع ؟! وهل أنّ بقاء استمرار هذا الفاصل الطبقيّ والكماليات الخيالية للرأسماليين لا يورث في الطبقة الفقيرة والمحرومين من المجتمع عدم الرضا والحقد والبغضاء ؟ أفهل عليهم أن يبقوا إلى الأبد ويعيشوا هذا الإختلاف الطبقي الهائل ؟ وهل تنحلّ مشاكل المجتمع مع وجود هذه الفواصل العظيمة والتي تتوسع يوماً فيوماً ؟!

وفي الأنظمة الإشتراكية والرأسمالية يجعلون المقاييس المادية أساساً

---

(١) هذا فيما إذا صدّقنا هذه الدعوى مئة بالمئة ، ولا بأس بأن نلتفت هنا إلى هذا التقرير : لجنة لدراسة المواد الغذائية بعد تسعة أشهر من الدراسة والملاحظة قدّمت تقريراً يقول : إن هناك عشرة ملايين من الأمريكيين يتألّمون من قلة طعامهم والجوع ! وطلب رئيس هذه اللجنة من الرئيس الأمريكي : أنه نظراً لأهمية الموضوع يعلن حالة الطوارىء ثم يساعد ٢٥٦ مدينة في عشرين ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية ، هي في معرض خطر الجوع أكثر من غيرها ، بمساعدات فورية ومجانية ، هذه اللجنة التي قوامها ٢٥ شخصاً والتي أحدث تقريرها اضطراباً شديداً في المحافل الأمريكية ، كانت قد بدأت أعمالها في شهر جوئيه الماضي ، وكانت قد تشكلت بأمر السيد رويتر رئيس منظمة مكافحة الجوع ، وهو رئيس اتحادية عمال السيارات الأمريكية أيضاً ، وقد تكفّل هو بجميع مصاريف هذه الهيئة . وقد علّلت هذه الهيئة جوع العشرة ملايين من الأمريكيين بالحروب الأمريكية وسائر المناقشات الإقتصادية والإجتماعية في المجتمع الأمريكي ، وأضافت أن هذا العدد لا يقدرون على شراء المواد الغذائية الوافية من الأسواق على أثر الفوضى الإقتصادية الناتجة من الحرب .
وجاء في هذا التقرير المذكور أنه بناءً على أن وزير الزراعة الأمريكي أعلن عدم استطاعة وزارته على إعداد الغذاء الكافي لهؤلاء العشرة ملايين الأمريكيين ، يجب على الحكومة الأمريكية أن تتعهد هي بتأمين المواد الغذائية لهؤلاء .
نقلاً عن وكالة أنباء يونايتد برس انترناسيونال
عن الجرائد الصادرة بتاريخ ٢٢/٢/٤٧ هـ . ش .

لحياة البشر ، ويدرسون المشاكل الإقتصادية والإجتماعية من دون ملاحظة المعنويات والأخلاق . إنّهم يرون أن الهدف الأصلي هو زيادة الثروة ثم لا يرون أية حقيقة وراءها ! بينما الإسلام بما له من نظرة كونية وفلسفة خاصة يتوجّه إلى الإنسان من جميع جهاته وجوانبه توجّهاً كاملاً ، فهو بالإضافة إلى تنظيم الحياة المادية للمجتمع ينظر إلى الفضائل الأخلاقية والكمالات النفسية في كل أحكامه وقوانينه وبصورة كاملة ، وهو يوظّف المال في سبيل تحقيق المطاليب والأهداف الفطرية للبشرية ، وإنّ من الخصائص الإقتصادية الممتازة في الإسلام رفع مستوى الفكر وقيمة التفكير في الإنسان ، وربطه بمبدأ الوجود والإيمان بعالم ما وراء المادة .

إن القانون في العالم الغربيّ إنما يحمي الرأسمالية ، يرعى منافع الرأسمالية في مواجهة العمال والفلاحين . وهو في الإتحاد السوفياتي كما يقولون ينفي سلطة مالك الرأسمال. ويرفع من مستوى العمّال .

ولكنّ جذور القرارات والنظم الإسلامية تستقي من منبع الوحي الإلهي ، وليس من نتاج أفكار الواضعين البشر لكي يرفع طبقة ويتمدّى على منافع الفرقة الأخرى . إنّها قوانين لم تُقرر لمصالح طبقة خاصة ، ولم تستلهم من أهواء فرقة خاصة ، بل هي قوانين وضعها الله ربّ العالمين الذي إليه مرجع العباد لرعاية المصالح العامة ، وإذن فلا كلام هنا عن حقّ حكومة طبقة خاصة ، ولذلك فلا توجد فيها عوامل الإنحراف عن العدالة بصورة مطلقة . وفي الإسلام ليس الحاكم الجامع لشرائط الحكم مرشّحاً لفئة خاصة من المجتمع ، بل هو معدود من أفراد المسلمين ، ولا يقدر أبداً أن يضع قانوناً يضرّ به بعض المسلمين ويؤمّن به على مصالح آخرين ، بل إن القدرة التي تحت تصرفه ليست إلاّ لتُصرف في سبيل تنفيذ الأحكام الإلهية ، وعليه فلا قدرة له إلاّ في ظلّ تنفيذ أحكام الله تعالى .

وعندئذٍ تتنزّل هيئة الحكومة عمّا يهدّدها من الغرور والنخوة الناتجة من السلطة ونفاذ الكلمة والحكم ، فالحاكم هنا يرى أن عليه أن يكون منفّذاً لقوانين شرّعت له ولغيره بصورة متساوية متعادلة ، وعندئذٍ فلا ريب في تحقيق الحرية

التـامة والإستقـلال الواقعيّ للنـاس وهم يطمئنـون إلى تلك العدالـة المـطلقـة فيستريحون إليها .

وبالنظر إلى ما نشاهده في المبادىء المذكورة علينـا أن ننظر إلى طـريقة الإسلام بمواجهة هذه الآراء والقوانين : مع أن الإسلام يخالف الملكية المطلقة الفردية التي هي السبب في الحرية المطلقة والملكية اللاّمحدودة والظالمـة في النظام الرأسمالي ، وخلافاً للنظام الرأسمالي الذي يرى حرمة الفرد وكرامته بينما هـو يبخس في كـرامـة المجتمـع وشخصيتـه بمقياس واسـع في نـظامـه الإقتصادي . . . الإسلام لا يبعد المجتمع عن نظره ويقول بكرامته كاملة . . . وفي نفس الـوقت لا يقبل بـإلغاء الملكيـة الفرديـة بما يـوجب انتفـاء الحـريـة والإستقلال الفردي . وخلافاً للنـظام الإقتصادي الشيـوعي الذي يـدفع مفتـاح أرزاق الناس بيد الحكومات ولا حرمة ولا قيمة للفرد في ذلك النظام ، لا يسمح الإسـلام بأن يُضحّى بـالفرد بصفتـه فـرداً للمجتمـع وأن يصبـح النـاس عبيـداً للحكومة بإزاء لقمة العيش !

يرى الشيوعيون أن الملكية الفردية ليست أمراً فطرياً ، من دون أن يكون لهم دليـل لاثبات هـذه الفرضيـة . يقـولـون : لم تكن الملكيـة الخـاصـة في المجتمعات البدائية ، وكان الكـل يعيشون في ظـلّ الأخوة والمحبـة والمعونـة المتبادلة ، وأما ما نراه اليوم من شدة علاقة الناس بـالملكية الفـردية فقـد وجد بصورة تدريجية .

ولكن الحقّ أن لا عـلاقة للملكيـة الفرديـة بـالحيـاة المعيشيـة والتـربيـة والإكتساب ، بل إنها تواجدت مع تواجد الإنسـان ولها علاقة بطينته وطبيعتـه ، ولا يمكن مكـافحتها كسـائر المـطاليب الإنسانيـة الفـطريـة . يقـول « فيليسين شاله » :

« إن الملكية إذا كانت قد توسّعت هكـذا من دون أن يعيّن لها حـدود ، على طول مرّ التـاريخ وبختلف الأشكـال والصور ، فـان السبب في ذلك تلك القرابة القريبة بين الملكية وبين الغريزة الفطرية والطبيعية للإنسان ، فالإنسـان يميل بطبعه إلى أنّ ما يقضي حاجته يكون في اختياره وتحت تصرفه ، وإلاّ فلا

يرى نفسه حرّاً تماماً .

والسبب الثالث للملكية الفردية سبب أخلاقي ! فان بناء الملكية مبنيّ على أساس العمل وادخار فائض قيمته ، وذلك ما يحصل بفضل مساعي الإنسان ، فهي ذيل الشخصية ، ومن هنا فهو جدير بالتقدير » .

ويرى « شاله » أن من أهم عوامل التقدم الإقتصادي وتكثير الإنتاج الملكية الفردية ، ويقول : « إن من أهم البراهين على لزوم الملكية الفردية هو مصلحة المجتمع ، فالمجتمع بحاجة إلى أعمال الأفراد ، ومن أجل أن يتحقق ذلك لا بدّ من محرّك دافع ، وإن خير دافع لزيادة النشاط هي الملكية . إن صلاح المجتمع في أن يكون للناس مدّخرات يساعدون بها على تصعيد وتكثير الرأسمال والرصيد الإجتماعي ، فعلى المجتمع أن يسمح للناس بتملك مدّخراتهم ، إذن فالملكية هي العامل الوحيد الذي يحمل الناس على العمل لادّخاره من دون قوة ولا إكراه ولا إجبار »[٢] .

والإسلام بدوره في تقنينه دعم هذا المطلب الفطري الذي يشكّل عاملاً مؤثراً لتقدم الحياة ورونقها وبهائها ، وهو يعامل طبيعة البشر كما هي ، فيرى أن الأموال التي تحصل من مجاريها القانونية الصحيحة أموالاً شخصية قانونية تتعلق بالمنتج .

إن الإسلام يرد النظرية التي تقول بأن الملكية الفردية بذاتها وطبيعتها تنتج الظلم والعدوان . أما السبب في أن الملكية الفردية في العالم الغربي تلازمت مع الظلم والعدوان ، فهو في أن اختيار وضع القوانين هناك يعود إلى الطبقة الرأسمالية المالكة ، وواضح عندئذٍ أن كل القوانين تدور حول منافع هذه الطبقة ومصالحها . وقد ذكّرنا قبل هذا بأنّ المشرّع المطلق في الإسلام هو الله تعالى ، ولذلك فهو لا يشرّع أية مزايا لأية فرقة ، ولا يضع قانوناً نافعاً للطبقة المالكة وبضرر الطبقة الكادحة ، ولهذا فانه لما كانت تنفّذ قوانين الإسلام كانت الملكية الفردية موجودة ولكن لم تكن متلازمة مع أي ظلم أو عدوان .

---

(٢) بالفارسية : تاريخ مالكيت : ٩٢ .

إن الإسلام يرى حرمة انتزاع المعامل والمصانع بقوّة من أيدي مؤسّسيها الذين أسّسوها بزحمات كثيرة ، إذ أن هذا العمل يباين الأمن الإجتماعي واحترام حقوق الأفراد ، وأنه يُعدم روح العلاقة والإبداع في العمل ، ولكن للحكومة أن تتعهد بتأسيس المصانع والمعامل وإدارة الصناعات الكبرى تحكيماً لأسس العدالة الإجتماعية ورعاية المصالح الإقتصادية والوطنية .

وبالتالي فانّ النظام الإقتصادي في الإسلام يقول بأصالة الفرد والمجتمع . ومن أجل حلّ المشاكل وتنظيم الحياة الإقتصادية على أساس العدالة الإجتماعية أسّس مبدأً خاصّاً على أساس اقتصاد حُرّ وملكية نسبية وفي حدود استقلال الفرد والمصالح الإجتماعية ، وقبلَ بالملكية الفردية إلى حدّ رعاية مصالح المجتمع ، بصفتها أصلاً طبيعياً ، ومن أجل استجابة المطلب الفطري البشري العميق بشأن تملك الأموال والحاجات ، ومن أجل أن يزيد الأفراد في نشاطاتهم في سبيل الإنتفاع من وسائل الحياة والإنتاج الأكثر . ولكنّه قرّر لتحقق هذه الملكية شروطاً لكي لا تنفتح بها أبواب الظلم والعدوان على الناس ، ولكي لا يُسيء الأفراد إفاداتهم من حرياتهم فيسحقوا بذلك كرامة المجتمع . ومن الطبيعي أن هذه الحدود لا تضرّ بالحرية ؛ فإن حياة المجتمع واستقرار القانون يستلزم التحديد والمنع عن الإنحلال ، بل إن هكذا حدود عقلائية تتضمّن بقاء الحياة الإجتماعية وتمنع عن انفراط أساسها وإطارها .

إن الإسلام قد حدّد الإنحلالية في صعيد الملكية الفردية ، وإنّما يعترف بملكية تحصل بالوسائل الشرعية والصحيحة ، خلافاً لما يحصل من الطرق غير القانونية واللاّشرعية فلا ملكية للإنسان المسلم عليها ، فالإسلام لا يسمح بالربح عن طريق الإجحاف والغشّ والإحتكار والظلم والضرر بملكية الآخرين ، وهو يعلن بالخروج عن الشرعية فيما لو كان اكتساب المال عن طريق الظلم ومجانبة العدل والذي ينبع من الطبيعة المعتدية والروح النفعية للبشر .

إذن فالملكية الفردية في الإسلام لم تستقر على أساس السماح بالربا والإحتكار والنهب والسلب والغصب والغشّ والبخس والرشوة والسرقة . . . ولا يحق فيه لأحد أن تكون وسيلته لاكتناز الثروة هذه الطرق . ومع هذه الحدود

والقيود والشروط التي قرّرها الإسلام لاكتساب المال الحلال فإنّ الثروة سوف لا تتراكم تراكماً مُضراً مما هو قائم في النظام الرأسمالي ، وسيبقى المجتمع الإسلامي بعيداً عن الآثار والنتائج السيّئة التي هي في النظام الرأسمالي التي تؤدّي إلى اضطرابات شديدة لا تجتنب ولا تُجبر .

إن النظام الرأسمالي ليس نفس الملكية الفردية تطوّرت التطوّر الإقتصادي حتى انتهت إلى هذا الشكل الحاضر ، فانّ نفوذ الرأسمالية وتوسعتها وانتشارها مبنيّ على عامليّ الإحتكار والربا . ويقول المؤرخون للإقتصاد بأنّ النظام الرأسمالي الذي كان في البداية بشكله الساذج والمفيد ، تدرّج في تطوّره معتمداً على القروض الربوية حتى بلغ إلى هذه الصورة المضرّة الحاضرة . والمنافسات التجارية الرأسمالية الشديدة التي تؤدّي إلى إفلاس الشركات الصغرى وبالتالي اتّحادها لتشكل شركة كبرى طريقة تنتهي إلى الإحتكار ، ولا ريب أن الربا والإحتكار وهما من أكبر فجائع الرأسمالية وأخسّ وسائل اكتناز الثروة ممنوع عنهما ومحرّمان في الإسلام ، ولا سيّما الربا الذي يفيض بالثروات التي لا تعدّ ولا تحصى إلى جيوب الرأسماليين من كل حَدَب وصوب ، ويورث الناس الحرمان والفقر .

والطريق الأخر لإيجاد التوازن الإقتصاديّ بين الطبقات المختلفة والمنع عن تجمّع الثروات هو تشريع قانون للضرائب كالزكاة والخمس ، مشرّع في أموال الناس ، فهو كل سنة يمتص قسماً من الرأسمال وأرباح أرباب الأموال .

والطريق الأخر للمنع عن تمركز الرأسمال ولتعديل وتعميم الثروة تلك القوانين التي بموجبها يستقر قسم من الأموال العامة من منابع الثروة بيد الدولة الإسلامية فتؤمّم بالمعنى الواقعي للكلمة : كالغابات والآجام والمراتع والأراضي الموات والجبال وأشجارها ومعادنها والموقوفات العامة والأموال المجهول مالكها والأراضي غير المفتوحة عنوة والكفّارات والمواريث ممن لا وارث لهم و . . . وإن كان بعضها يخصّ إمام المسلمين ، ولكن إمام المسلمين سيصرفه بدوره في المصارف العامة .

وإن قانون الإرث لوحده أيضاً هو من عوامل توزيع الثروة على كل جيل .

ومن جانب آخر فان الإسلام إنما يحترم الملكية الفردية ما لم يواجه المجتمع الإسلامي خطراً يحدق به ، وما لم تحدث حالات اضطرارية قصوى . . . أما لو اختلّ المجتمع وحدثت حالة استثنائية فانّ الحكومة الإسلامية العادلة (وفق الشروط المقررة) وحسب اختياراتها تعدّل الملكية الفردية لنجاة المسلمين عمّا يحدق بهم من سوء العواقب ، ولإدارة ضرورات المجتمع ورفع الضرر عن عامّة المسلمين ، وحسب اقتضاء المصلحة العامة للمجتمع الإسلامي . وقد ثبت هذا الحقّ للحكومة الإسلامية في إطار الأحكام العامة ، فليس لحكام المسلمين « أن يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم »[٣] .

فانّ ذلك يباين الأصول المسلّمة والصريحة للإسلام ، فالإسلام لن يصحّح ما يبدو اليوم في العالم الغربيّ من الرأسمالية الفجّة ، ولن يسمح للرأسماليين أن يقوموا بالحروب الإستعمارية للإستعباد في سبيل إشباع أطماعهم وحرصهم .

فهذا القرآن الكريم ينادي : ﴿ . . . كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾[٤] .

إذن ففي الإسلام حيث أن الضرر بالمجتمع هو الضرر بالفرد ولا تعارض بين حقوق الأفراد من جهة وحقوق المجتمع من جهة أخرى . وعليه ففي نفس الوقت الذي احترم الإسلام الملكية الفردية وأجاب على الميول الطبيعية للبشر إجابة إيجابية وأقرّ كل مزايا الملكية الفردية التي تدافع عنها الرأسمالية . . . مع ذلك سوف ينتفع بأموال الأفراد لصالح المجتمع فيما إذا اقتضت الضرورة ذلك .

والإسلام وإن كان قد ضمن بأحكامه ما يمنع عن عدوان الرأسمالية ، لم يكتف بالتشريع بهذا الخصوص فقط بل إنه في أخلاقياته حمل الناس على

---

(٣) من الخطبة الشقشقية للإمام علي (عليه السلام) نهج البلاغة.
(٤) سورة الحشر، الآية : ٧ .

الإنفاق والبذل في سبيل الله مواكباً بين أخلاقياته وقانونه ، وإن الأوامر الأخلاقية على هذا الصعيد من القوة والمتانة والتربية والتعليم والدفع بالعواطف والأحاسيس الإنسانية الطاهرة النزية بحيث أن الشخص المسلم لا يستطيع أن يبقى بلا تفاوت وهو يرى استئصال شأفة طائفة من المسلمين .

والإسلام يحارب الإسراف والتبذير في العيش الذي يتواجد على أثر تمركز الثروة بيد فئة من الناس ، وكذلك يشدّد النكير على إمساك الأثرياء وبخلهم وإبائهم عن الإنفاق في سبيل الله ، ويحرّم عدوان صاحب العمل بشأن الأجير المؤدّي إلى تشديد الفقر العام . وإنّ هذه الدعوة السامية الروحية تسبّب ارتباط الإنسان بالله ونموّ العواطف الإنسانية السامية في ضمير الإنسان المسلم ، بحيث تصبح جميع اللذائذ والثروات في نظره لا قيمة لها في سبيل حصوله على الثواب في الآخرة و﴿رضوان من الله أكبر﴾ ذلك أن الحرص والطمع وأنواع العدوان والظلم إنّما هي نتائج عدم الإيمان بيوم القيامة وانقطاع العلاقة بين الخلق والحقّ ، حينئذٍ يتغير ضمير الإنسان ووجدانه وبالتالي سيحدث الإنحراف والإضطراب في علاقته بالحياة وبأبناء جلدته ونوعه .

لم يثبت في التاريخ أن يحدث انحراف في عبادة الناس لربّهم من دون أن تحدث لديهم انحرافات في الأفكار والتصورات وعلاقة بعضهم ببعض ، ولا يمكن أن تكون للإنسان علاقة بربّه قريبة وقوية ومع ذلك يقوم بالهجوم والعدوان على حقوق الآخرين ظلماً وجوراً وبلا حدود وقيود ما وأن يسلك سبيل العدوان على سائر عباد الله من أجل جمع المال والثروة .

والإشراف الكامل على مصالح الأفراد والمجتمع يعود في الإسلام إلى الحكومة الإسلامية ، فهي مكلّفة بأن تمنع بحزم عن الإنحراف في استعمال الحريات ، وأن تنفّذ الأحكام والقوانين بكل قوة وقدرة . أضف إلى ذلك أن نشر الفضائل الأخلاقية في المجتمع والإشراف على تطهير المجتمع عن الإنحراف والتلوث حكم الزامي على عموم أفراد المسلمين ، وبالتالي فهو يرى شخصية الفرد المسلم شخصية إيجابية نشطة وبنّاءة في صميم حياة المجتمع .

هذا النظام الإسلامي الذي يفتقد ما في المعسكر الرأسمالي من

الأضرار ، أقرب إلى العدل من النظام الشيوعي بعشرات المرات فهو بعيد عن اليسارية المتطرّفة واليمينية المفرّطة (بالتشديد) فهو في أفق أعلى من الرأسمالية والشيوعية ، وبإمكانه أن يشرق بوجهة إجتماعية خاصة بين الجبهتين الشرقية والغربية بتعادله وتوازنه الخاص .

والنقطة الجديرة بالعناية والملاحظة هي أن النظام الإسلامي الراقي والتقدّميّ نظام بديع مبتكر قد أسّس في عهد لم يعرف العالم معنى العدالة الإجتماعية ، ولم يكن ليقيم أي وزن أو اعتبار خاص للعامل الإقتصادي تقريباً .

ليس الإنسان في منظار الإسلام عبداً لجبرٍ إقتصاديّ أو أي جبر آخر سواه ، وإنما هو القوة الإيجابية النشطة والفعّالة في هذا العالم ، فهو باختياره وإرادته يبني بناءه الإقتصادي من دون أن يقع عبداً عاجزاً أمام التطورات الإقتصادية القاهرة ؛ إن أكبر ميّزات الإسلام عن سائر الأساليب الإقتصادية هو أنه ليس فيه ما يُسمّى بجبر التطوّر ، بأن يكون على حياة الإنسان أن تتخذ شكلاً خاصاً من خلال ذلك التطوّر الجبري أو القهريّ ، وأنّه وبحكم نفس هذا الجبر الإقتصادي تستعلي طبقة لتستثمر سائر طبقات المجتمع .

وقد انتقد النظام الشيوعي والنظام الرأسمالي أيضاً جمع من الفلاسفة والمفكّرين المعاصرين كالفيلسوف الأمريكي « ويليام جيمز » والكاتب الأمريكي الشهير « والتر ليبمن » والفلاسفة الإنجليز « هارولد لاسكي » و « جان استراش» و «برتداند راسل » وغيرهم من كبار المفكّرين ، وحاولوا أن يجدوا درباً معتدلاً بينهما . وأبدى كل منهم بعض النظريات . إنّهم يقولون : إن النظام الشيوعي يسلب من الأفراد إرادتهم وحريتهم الطبيعية ، ويمنح الحكومة في جميع الأمور الفردية والإجتماعية اختياراً كاملاً ، وبالتالي فان شخصية الفرد وروح الإبداع فيه ستنعدم في هكذا جوّ خانق ومظلم ، ويقف التكامل الفردي عن الرقيّ والنموّ .

والديمقراطية الرأسمالية التي بلغت فيها الحريات الفردية حدّ الإفراط والتطرّف تُحبط الإنسجام الإجتماعي ، ويقبض جمع من أصحاب رؤوس

الأموال المقتدرين جميع منابع الثروة ووسائل الإنتاج ويجعلون الناس تبعاً لإرادتهم الإقتصادية ، وكلمتهم هي النافذة في الأجهزة الحكومية والسياسية .

ولهذا فمن الضروري للبشرية أن يختاروا طريقاً ثالثاً بعيداً عن الإفراط والتفريط في كل من النظامين « الشيوعي والرأسمالي » ويؤمّن مصالح الفرد والمجتمع بطريقة عادلة. ولكن هؤلاء الفلاسفة والمفكرين الذين أدركوا نواقص الأنظمة الإقتصادية المعاصرة ماذا يقدرون أن يقترحوا على البشرية يكون أعدل مما قدمه الإسلام قبل أربعة عشر قرناً ؟ ذلك الطريق المعتدل والحدّ الوسط الذي يعطي للفرد من ناحية حرية معقولة ، وهو من ناحية أُخرى ينظّم عمل غول الرأسمالية ، وبالتالي فهو الطريق القادر على انقاذ البشرية من البؤس والتعاسة والشقاء .

إن القوانين والأنظمة الإسلامية قد قضت حوائج المجتمعات الإسلامية طوال القرون الماضية ، ونظّمت الحياة الإجتماعية لمعظم الشعوب الإسلامية بما فيها من الأمم والعناصر المختلفة في أراضي واسعة الأطراف ، والمجتمع الإسلامي لم يكن بحاجة إلى أخذ التشريعات من غير في الأدوار الماضية ، وتستطيع هذه الأنظمة في العصر الحاضر مع كل ما حدث في العالم من تطوّرات أن تقود المجتمعات الإسلامية وتجيب على جميع حاجاتهم بإجابات أساسية وصحيحة .

ذلك الدين الذي أولى عناية خاصة لجميع مظاهر الحياة والحاجات المادية والروحية ، ووضع لجميع الشؤون نظاماً بديعاً متوازناً متقناً ، وهذا الدين المنسجم مع سنن الحياة وقوانينها سوف لا يُصاب بالبلى والإنقراض .

إن المبادىء والأُصول المتقنة الإسلامية النزيهة أكثر تقدماً من كل ما عرفته البشرية من المبادىء والأُصول ، ولها التّفوق الكامل على كل القوانين والتعاليم الأخرى في الجانب الإنساني . وحينما نقيّم المبادىء والأُصول الإجتماعية الإسلامية أمام المبادىء التي تدعو الناس إليها ، تتبيّن لنا أصالتها وتفوقّها والفاصل الكبير بين النظام الإلٰهيّ للبشر والأنظمة الوضعية لهم .

« في سنة ١٩٥١م عيّنت كلية الحقوق في باريس أسبوعاً لدراسة الفقه

الإسلامي ، واقترح المسؤولون عن العمل على علماء العالَم الإسلامي أن يبدوا الآراء الفقهية الإسلامية بشأن عددٍ من المواضيع التي نذكرها ، وأن يبحثوا في سائر أبواب الفقه الإسلامي حسب اختيارهم ، والمواضيع المعيّنة هي عبارة عن :

١ ـ وسائل اثبات الملكية في الفقه الإسلامي .

٢ ـ موارد امتلاك الأملاك الخاصة (من قبل الحكومة) للمصالح الإجتماعية العامة .

٣ ـ المسؤولية الجنائية .

٤ ـ التأثير المتبادل بين المذاهب الإسلامية الفقهية .

وكان رئيس هذا المؤتمر رئيس جمعية المحامين ، وقال في آخر الجلسة : لا أدري كيف أجمع بين ما كنّا نفكّر سابقاً بشأن جمود الحقوق الإسلامية وعدم صلاحيتها للاستناد إليها فيما تحدث اليوم من مسائل وقوانين جديدة . . . وبين ما سمعناه وفهمناه في هذا المؤتمر ؟ لقد ثبت لنا في هذا المؤتمر بلا ريب أن الحقوق الإسلامية تتمتّع بالعمق والأصالة والدقة الخاصة والشمول والإستيعاب الواسع ، وأنها صالحة للإجابة على كل الحاجات والحوادث في عصرنا هذا . وانتهى أسبوع المؤتمر الخاصّ بالفقه الإسلامي وقد أصدر هذه الوثيقة :

« مما لا شك فيه أن الفقه الإسلامي يصلح أن يكون من منابع التشريع في العالم المعاصر ، ففي الآراء والأقوال المختلفة لمذاهب الفقه الإسلامي رصيد حقوقي وافر وعجيب . وإن بإمكان الفقه الإسلامي في ظلّ هذه الآراء والأقوال أن يجيب على جميع حاجات الحياة الحديثة » .

دَورُ الإِسلامِ في الحَضارَةِ الغَربيَّةِ الحَديثةْ

إن الذين انبهروا وأُصيبوا بالهزيمة النفسية أمام التقدم الصناعي الأوروبي الأخيرة امّا هم يجهلون الذخائر الثقافية والدراسات العلمية والفنية للمسلمين وأثرها الحاسم في هذه الحركة الغربية الأخيرة ، أو هم يتجاهلون ذلك .

إن الحركة التي أحدثها الإسلام في البشرية كانت من القدرة وقوة البناء بحيث جعلت أكثر الأمم تأخيراً من أكثرهم تقدّماً في أقصر مدة ممكنة ، وإن أمواج تلك الحركة كانت إلى مدد طويلة تمدّ العالمين حياة وتقدّماً ووضوحاً .

إنّ من أكبر معاجز الإسلام أنّه هبط في جوّ مليء بالجهل وعدم المعرفة فصنع من تلك الأمة التي كانت تعدّ خارجة عن صفوف الإنسانية أُمة أسّست أساسها على قاعدة حديثة لا تستلهم من الجبر الطبيعي أبداً ، وعندئذٍ اتّجهت كلّ شؤون حياة الناس نحو الصلاح وتحقّقت أكبر حركة بل نهضة عرفها التاريخ ، فتحرّر البشر من ﴿إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ من دون أن تتكفّل بذلك العوامل المادية أو البيئية ، أجل لم يكن هناك أي عامل آخر سوى الإسلام يربط بين حياة الناس وشؤونهم وبين الفلاح والصدق والصلاح .

يوم قدِم الإسلام إلى حياة الناس غيّر منهم كل شيء إدراكاتهم وأحاسيسهم وأفكارهم ، وأحدث تغييراً في جميع شؤون الحياة وعلاقات الفرد والمجتمع بل الأفراد والمجتمعات .

كان الإسلام في القرن الثاني من شروقه يتقدم بسرعة وبصورة هادئة وطبيعية ، حتى شمل سواحل البحر الأبيض المتوسط حتى صحراء أفريقيا ، ومن المحيط الاطلنطي حتى جدار الصين ، وظفر بأوسع القوى الحاكمة يومئذٍ في العالم وأقواها ، ففي الشمال كان الجنود المسلمون بعد فتح الأندلس يطوون جبال بيرنه ويصلون إلى المدن الحدودية لفرنسا ، وآخرون منهم من الناحية الشرقية بعد فتح السند والبنجاب يتقدمون نحو الصين .

وكانت هذه الفتوحات والإنتصارات التي كان يلاحظ فيها أدق الأصول الإنسانية بالقياس إلى الحركات التي وقعت لحد الآن في العالم ، كانت نسيج وحدها . إن ما أحدثه المجتمع الإسلامي من واقع مُعجب لم يكن متمركزاً في أراضي جزيرة العرب فحسب ، بل إن المسلمين أينما وضعوا أقدامهم وحلّوا حملوا رسالة الإسلام وأصول العدالة الإنسانية والمساواة والأخوة والأمل للناس هدية .

إن الإسلام بعد تحطيمه للقوات الوحشية اللاّإنسانية يومئذٍ ، أخذ في ظلّ حكومة العدالة بنشر الحقائق وتنوير أفكار الشعوب المغلوبة المفتوحة ، وألفت قلوب الناس إلى حقائق الإسلام بتدبير خاص ، وبمنطقه الواضح وعمق تعاليمه نفذ في أديان الأراضي المفتوحة وأثّر في عقائد أمم ذلك اليوم أثراً كثيراً ، بحيث أن الأديان والمذاهب السائدة أخلت متارسها وتقهقرت أمامه ، فالمشركون في جزيرة العرب والمجوس في إيران والنصارى في مصر والشام كانوا يرون الإسلام ديناً جديراً بالقبول ويؤمنون به .

ولم يكن قد تراءى بين الأمة العربية قبل الإسلام ما يمكن أن يكون أساساً لمثل هذه الحضارة ، ولم تكن هناك أرضية مساعدة تؤمّل تأسّس مثل هذه الحضارة العظيمة أبداً ، إذ أن الجوّ الذي كان يعيش فيه العرب يومئذٍ كان جوّاً يفتقد العلم والمعرفة والإقتصاد ، أضف إلى ذلك أنهم كانوا من حيث الجغرافية في نقطة لا تبشّر بخير .

بإمكاننا أن نرى في الصفحات المشرقة والخالدة من الحضارة الإسلامية أسمى أدوار الحضارة البشرية بكل وضوح ، كانت تلك الحضارة عبارة عن

سعي حثيث يكاد لا ينتهي في طلب العلم ، فالمسلمون هم الذين فتحوا أبواب الطريقة التجريبية ، وقد ظهر نموذج بارز من ذلك السعي في الأندلس في مدة قصيرة . والحقائق التاريخية تشهد بحقيقة أن الحضارة التي ظهرت في ظل الإسلام لا يمكن قياسها بالحضارات السابقة . ولا يمكن لأعداء الإسلام أبداً أن ينكروا ما كان للإسلام من الدور التاريخيّ العظيم في النموّ والتقدم العقلي والروحي والماديّ ، وحقاً إنّ ما كان لتلك الحضارة الإسلامية من نموّ وتقدم سريع لا نظير له في تاريخ البشرية .

إن الإسلام لم ير نفسه بحاجة إلى الإبتذال والفوضى الأخلاقية من أجل ذلك التقدم الفكري والعلمي والحصول على القوة والقدرة المادية على طول مدته أبداً . بل إنّ تلك الحضارة العريقة والمشرقة التي تجلّت في ظلّ الوحي السماوي نفذ إلى أعماق قلوب الشعوب فضلاً عن تغييرها لكثير من مظاهر حياة الناس ، إنّه بثورته العظيمة حطّم أساس الأرجاس والخرافات والعصبيات الجاهلية وأطاح بها ، وبدّلها بالسجايا الأخلاقية والملكات الإنسانية .

في الأدوار المظلمة من القرون الوسطى التي كانت أوروبا فيها تتخبّط في مخالب ضغط الكنيسة ونظامها المتحكم ، والتي كان فيها التوحش والظلام والتشتّت شاملاً لكل أوروبا ، جاء الإسلام بحضارة شاملة هي التي قدمت أطروحة التطوّر العلمي والصناعي في عهد النهضة الصناعية بعد « الرونسانس » .

وحينئذٍ حاكموا « غاليلو » على قوله بكروية الأرض تبعاً لنظرية « كوبرنيك » وأجبروه على التراجع عن رأيه وأن يتوب فيقول ما يلي :

« أنا غاليلو في السبعين عاماً من حياتي أركع على ركبتيّ أمام حضراتكم (البابا والقسس) وأتوب والكتاب المقدّس أمام عينيّ والمسه بيدي ، وأنكر دعوى حركة الأرض وأطردها عنيّ وأتنفّر منها »[1] .

« ومنع الفليسوف المعروف « بيجن » عن البحث في علم الكيمياء بأمر

(١) بالفارسية : تاريخ علوم .

« إدوارد الأول » ملك انجلترا ، ومنع عن المحاضرة في هذا الموضوع بجامعة « اكسفورد » ثم أبعد إلى باريس ليكون تحت نظر الكنيسة ، وكانوا يرون وَلَعه بذلك بلاهة وسفاهة ، لأنّهم كانوا يرون البحث لمعرفة حقائق الأشياء محاولة للإرتباط بالشياطين ولذلك فهم كانوا يصرخون بوجهه ويقولون : اقطعوا يد هذا الساحر ، واسقطوا هذا المسلم ! عن العمل » .

وإن دور الإسلام في تأسيس النهضة العلمية الأوروبية واقع لا يمكن إنكاره ، ويصرّح به العلماء الغربيون ومؤرخوهم . ونحن هنا نشير إلى طرف من التقدم العلمي والفني للمسلمين على لسان العلماء الغربيين .

الثَورَةُ الثقافِيَة

إن الإسلام منذ بداية اشراقه قام إلى جانب المعرفة والعلم وبحمايته ، بل فرض طلب العلم على كل مسلم ، ومن أجل تعميم الثقافة والتعليم والتربية رغّب العلماء في تعليم التلامذة وتوسيع نطاق الثقافة والعلم ، بل حرّم عليهم احتكار علومهم لأنفسهم (في بعض الصور) .

وإن نبيّ الإسلام بالإضافة إلى ما كان يقوم به من أنواع الترغيب لإشاعة العلم ، كان يفيد عملياً من كل فرصة لترفيع مستوى معلومات المسلمين وقدرتهم العلمية . وهناك نموذج تاريخي يبيّن هذه الحقيقة جيداً : أن رسول الإسلام إلى أيّ مدى كان يولي عناية بتعريف المسلمين بقيمة المعرفة والعلم :

روى ابن سعد في « الطبقات » بسنده عن عامر ، قال : أسر رسول الله يوم بدر سبعين أسيراً ، وكان يفادي بهم على قدر أموالهم . وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون ، فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة من غلمان المدينة فعلّمهم ، فإذا حذقوا فهو فداؤه[1] .

وإنّ علياً عليه السلام يعدّ نشر العلم والثقافة من وظائف وتكاليف الحكومة الإسلامية إذ يقول في كلام له عليه السلام :

(١) طبقات ابن سعد : ٢ : ١٤ .

« أيها الناس ، إنّ لي عليكم حقّاً ، ولكم عليّ حقّ ؛ فأمّا حقّكم عليّ : فالنصحية لكم ، وتوفير فيئكم عليكم ، وتعليمكم كي لا تجهلوا وتأديبكم كيما تعلموا »[٢] .

وكتب « ويل دورانت » يقول : « إن المأمون الخليفة العباسي أحدث في سنة ٢١٥ هجرية في بغداد « بيت الحكمة » وكان فيه مرصد ومكتبة عامة ، وصرّف لهذا العمل مائتي دينار ، والذي كان يساوي ذلك اليوم أكثر من سبعة ملايين توماناً ، وجمع إليه جمعاً من المترجمين الذين كانت لهم معرفة تامة باللغات الأجنبية والعلوم المختلفة من أمثال « إسحاق بن حنين » و « بختيشوع » و « ابن بطريق » و « ابن المقفّع » و « حجّاج بن مطر » و « سرجيس الراسي » وقرّر لهم رواتب من بيت المال »[٣] .

ونقل فريد وجدي في كتابه « دائرة معارف القرن العشرين » عن العلاّمة « درابر » الأستاذ بجامعة نيويورك الأمريكية في كتابه « المنازعة بين العلم والدين » من النسخة الفرنسية في طبعتها العاشرة التي ظهرت سنة ١٩٠٠ ما ترجمته :

« وبعد وفاة محمّد (ص) تُرجمت إلى العربية أهم المؤلفات اليونانية . . . ولكن عصر العلم الزاهر في القارة الآسيوية لم يشرق إلاّ في خلافة المأمون ، الذي تولّى الخلافة من سنة ٨١٣م إلى سنة ٨٣٢م فإنّه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى ، وجمع إليها كتباً لا تحصى ، وقرّب إليه العلماء وبالغ في الحفاوة بهم » .

« ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منتظمة لأجل أن يتوصّلوا إلى تكوين المكتبات وقد قيل : إن المأمون نقل إلى بغداد مائة حمل بعير من الكتب »[٤] .

---

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ١٨٩ .
(٣) بالفارسية : تاريخ تمدن ١١ : ١٤٧ ، من : ويل دورانت .
(٤) دائرة معارف القرن العشرين ٦ : ٦٠٨ ، ٦٠٩ .

في حين لم يكن يوجد في كافة أنحاء أوروبا مركز ثقافي واحد كان للمسلمين في بلادهم مراكز علمية وثقافية كثيرة ، وكان لهم في مختلف فنون العلم أفراد أخصّائيّون خبراء ومهَرة ، وبالحروب الصليبية فاضت هذه الأمواج الفكرية المشرقة والحضارة الإسلامية إلى خارج حدود بلاد الإسلام حتى ارتوت أوروبا من ينابيع علوم المسلمين . وحتى كتب « غوستاف لوبون » يقول :

« في ذلك العهد الذي لم يكن للكتاب والمكتبة أيّة قيمة أو معنى لدى الناس في أوروبا ، ولم يكن يوجد في جميع الصوامع وعند جميع القسس في أوروبا أكثر من خمسمائة كتاب ديني ، كان للدول الإسلامية ما يكفي من الكتب والمكاتب ، ففي مكتبة « بيت الحكمة » ببغداد أربعة ملايين كتاباً ، وفي مكتبة الملوك بالقاهرة مليون كتاباً ، وفي مكتبة « طرابلس » في الشام ثلاثة ملايين كتاباً ، وفي إسبانيا كان يصدر سنوياً ما يقرب سبعين إلى ثمانين ألف كتاب »[٥] .

وكتب « لوسترانجر » يقول : « كان لجامعة المستنصرية بناية عظيمة مزيّنة ، في أرض واسعة ، وفيها أثاث من النوع الفاخر العالي ، لم يكن يُر مثله قبله في العالم الإسلامي . وكان لها أربعة مدارس للحقوق ، في كل مدرسة خمس وسبعون طالباً ، ولكل مدرسة أستاذ يدرسهم مجّاناً ، ولهم رواتب شهرية منتظمة ، وكان يُعطى لكل من الطلاب والأساتذة يومياً كمّية معينة من اللحم والخبز . ووفقاً لما قاله « ابن فرات » كانت بها مكتبة فيها الكتب القيّمة النفيسة والنادرة في مختلف العلوم والفنون في متناول أيدي الطلاب ، وكانت الجامعة تعطي الطلاب الأقلام والدفاتر إذا أرادوا أن يستنسخوا شيئاً من الكتب . وكان للجامعة مستشفى وحمّامات خاصة ، وكان طبيب المستشفى يتعهد الجامعة صباح كل يوم فيكتب للمرضى منهم ما يخصّهم . وكانت المدارس مليئة من المواد الغذائية والمشروبات من الأدوية العلاجية وغيرها . ولا ننسى أن كل هذه التوسعة في وسائل تحصيل العلم والمعرفة كانت في أوائل القرن الثالث عشر

---

(٥) بالفارسية : تاريخ تمدن اسلام وعرب ٣ : ٣٢٩ .

الميلادي[٦] .

وكتب الدكتور « ماكس ميرهوف » يقول : « يوجد في اسطنبول أكثر من ثمانين مكتبة في المساجد فيها عشرات الآلاف من الكتب والنسخ المخطوطة القديمة .

وفي القاهرة ودمشق والموصل وبغداد وكذلك في إيران والهند توجد مكتبات أخرى كبرى تحتوي آثاراً قيّمةً نفيسة ، لم يفهرس لكثير منها والمطبوع المنشور منها أقل القليل . وحتى فهرست مكتبة « اسكوريال » في إسبانيا التي تشتمل على شطر كبير من الكتب والرسائل في العلوم الإسلامية ناقص لم يكمل بعد . طبيعي أن الذي كُشف عنه أخيراً يلقي الضوء على التاريخ القديم للعلوم في العالم الإسلامي ، ولكن لا يكفي ذلك قطعاً ، وسيدرك العالم في المستقبل أهمية العلوم الإسلامية أكثر من ذي قبل »[٧] .

وكتب « غوستاف لوبون » يقول : « ان الجديّة التي أبداها المسلمون في طلب العلوم مُدهشة حقاً ، إنهم كانوا إذا افتتحوا مدينة واستولوا عليها كان أول ما يُقدمون عليه أن يبنوا فيه مسجداً ومدرسة . أما في المدن العظمى فقد كانت لهم فيها مدارس كثيرة حتى كتب « بنجامن تورل المتوفى في ١١٧٣م » يقول : رأيت في الاسكندرية عشرين مدرسة عامرة .

بالإضافة إلى المدارس العامة ، كانت قد تأسّست في بغداد والقاهرة وقرطبة وغيرها جامعات كان فيها مختبرات ومراصد ومكاتب كبرى وسائر وسائل التحقيق والتنقيب والدراسة ، كما كان في الأندلس سبعون مكتبة عامة . وكان في مكتبة الحاكم الثاني في قرطبة ستمائة كتاب أربع وأربعون منها فهارس المكتبة . في حين أن « شارل العاقل » حينما أسّس المكتبة الحكومية في باريس بعد ذلك بأربعمائة سنة إنّما استطاع بعد تعب كثير أن يجمع تسعمائة كتاب كان ثلثها من الكتب الدينية »[٨] .

---

(٦) بالفارسية : ميراث اسلام : ٢٣ .
(٧) بالفارسية : ميراث اسلام : ٢٣ .
(٨) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب : ٥٥٧ ، ٥٥٨ .

وأضاف يقول : « إن خدمة المسلمين لم تكن أن تقدموا بالعلم من خلال التحقيق والتنقيب والدراسة والإكتشاف وأنهم نفخوا فيه بروح حديثة جديدة ، بل إنّهم بتأسيسهم للمدارس وتأليفهم وتصنيفهم وكتابتهم للكتب أشاعوها ونشروها في العالم ومنه عالم العلوم والفنون والمعارف في أوروبا ، والاحسان الذي أسدوه إليه من خلال ذلك لا يمكن أن يُحدّ بحدّ ، كما سنبيّن في أحد الأبواب الآتية تحت عنوان : الآثار العلمية والأدبية للمسلمين انهم كانوا لعدة قرون أساتذة أوروبا ، وبواسطتهم فقط شاعت العلوم والفنون القديمة اليونانية والرومية في أوروبا »[9] .

وكتب الأستاذ محمّد فريد وجدي في موسوعته « دائرة معارف القرن العشرين » يقول :

« إن أوروبا في القرون الوسطى وقعت في ظلام حالك من الجهل فوقف بها تيّار العلم ، ونضبت موارد الحكمة ، وبقي الناس في طخية عمياء نحواً من ألف سنة ! ونقول الآن : إن بلاد المسلمين كانت في تلك الفترة ملجأ العلم والحكمة وموطن المدنية والحضارة ، فبلغت فيها المعارف والفنون أرفع ما قدّر لها في تلك القرون »[10] .

وكتب « جوزيف ماك كاپ » بشأن التقدم الثقافي للمسلمين في القرون الأولى يقول :

« وكان المجتمع ـ وحتى الطبقة السفلى منه ـ متعطشاً لقراءة الكتب ، فكان العُمال يقنعون بطعام قليل ولباس حقير ليتمكّنوا من شراء الكتب حتى بآخر قطعة من نقودهم ، حتى كان لأحد العُمال مكتبة كبرى يُسرع إليها العلماء باشتياق ، وحتى أنّا في « وفيات الأعيان لابن خلكان » نجد الموالي المتحرّرين أو أبناءهم من مشاهير العلماء يومئذٍ ، وكذلك نجد كثيراً من النساء في زمرة مشاهير ذلك العهد »[11] .

---

(٩) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب : ٥٦٢ .

(١٠) دائرة معارف القرن العشرين ٦ : ٦٠٧ .

(١١) بالفارسية : عظمت مسلمين در إسبانيا : ١٧٠ .

وكتب جواهر لآل نهرو في كتابه « نظرة إلى تاريخ العالم » بشأن حضارة المسلمين وتقدمهم وحركتهم الثقافية في الأندلس يقول : « كانت قرطبة مدينة كبيرة جدّاً فيها مليون نسمة ، وكانت المدينة تشبه حديقة كبرى طولها عشرون كيلومتراً وحومتها أربعون كيلومتراً . يقال : كان فيها ستون ألف قصراً وداراً كبرى ومائتا ألف دور صغرى ، وثمانون ألف حانوتاً وثلاثة آلاف وثمانمائة مسجداً وسبعمائة حماماً عاماً . ومن الممكن أن تكون هذه الأرقام مُبالَغاً فيها ولكن بإمكانها أن تقدم لنا تصويراً تقريباً عن هذه المدينة العظمى .

كان في هذه المدينة مكاتب كثيرة من أكثرها اعتباراً وأهمها المكتبة الملكية للأمير التي كان فيها أربعمائة ألف كتاب . وكانت جامعة قرطبة معروفة في كافة أنحاء أوروبا وحتى في آسيا الغربية ، وكانت هناك مدراس كثيرة للفقراء بالمجّان .

ويقول أحد المؤرخين : كان كل أحد في إسبانيا يعرف القراءة والكتابة ، في حين أنه في أوروبا المسيحية كان الرجال في الطبقات العليا من المجتمع يعيشون في جهل كامل عدا رجال الدين »[١٢] .

---

(١٢) عن الترجمة الفارسية : نگاهى بتاريخ جهان : ٤١٣ .

الطِبابَة وَالصِحَة

كتب الدكتور « ميرهوف » بشأن تقدم المسلمين في الطبّ يقول : « في الحروب الصليبية كان الأطباء يضحكون من الأطباء الأوروبيين لانهم كانوا يرون معلوماتهم بدائية حقيرة جداً !

فترجم النصارى كتب « ابن سينا » و « جابر » و « الحسن بن الهيثم » و « الرازي » إلى اللغة اللاتينية ، ولا تزال تلك التراجم موجودة من دون علم بمترجميها . وفي القرن السادس عشر ترجمت كتب « ابن سينا » و « ابن رشد » في إيطاليا إلى الإيطاليّة ، وكانت هذه الكتب تدرّس في جامعات إيطاليا وفرنسا »[1] .

« ويعد موت الرازي لم يطل العهد حتى أشرقت شمس ابن سينا في عالم العلم والمعرفة (٣٧٠ ـ ٤٢٩هـ . ق) وهو وان كان يعرف في الفلسفة أكثر من الطب ولكن انتشار طبّه في أوروبا مدهش أيضاً »[2] .

« وكان هناك في مختلف النواحي الإسلامية أطبّاء غير الرازي وابن سينا ، مثل : ابن رشد الأندلسي ، وأبي القيس الأندلسي ، وابن وفيد الإسباني ،

---

(١) بالفارسية : ميراث اسلام : ١٣٢ .

(٢) بالفارسية : ميراث اسلام : ١١٦ .

وعلي بن رضوان المصري ، وأبي الموفق منصور الهراتي ، وابن عباس الإيراني (؟) وقد تركوا كتباً ورسائل قيّمة وثمينة ونفيسة ترجمت إلى اللاتينية وغيرها مراراً أفاد منها أوروبا كثيراً »[٣] .

« إن المسلمين سبقوا أقرانهم في عصرهم في كثير من العلوم وبذلك حيّروا العالم وأدهشوه . وحينما دخل المسلمون أوروبا لم يكن العالم الأوروبي اكتشف ميكروب الوباء (الكوليرا) وكان الناس في إسبانيا يقولون إن الوباء بلاء سماوي ينزل من السماء لتنبيه العاصين من الناس . وأثبت الأطباء المسلمون أنّ وباء الطاعون ليس إلاّ مرضاً مُعدياً »[٤] .

وكتب الدكتور « ميرهوف » بشأن كتاب « القانون » لابن سينا يقول : « إنه إحدى الأعمال العجيبة الطبيّة في العالم الإسلامي ، وقد طبع هذا الكتاب ونشر في أوروبا في أواخر القرن الخامس عشر ست عشرة مرة إحداها بالعبريّة وخمس عشرة مرة باللاتينية ، وطبع في القرن السادس عشر أكثر من عشرين مرة . ومن هنا نعلم بأهمية كتاب القانون لابن سينا جداً .

وقد كتبت عليه شروح وتفاسير بالعبريّة واللاتينية . وطبع إلى منتصف القرن التاسع عشر عدّة مرات ، وكان مدة مديدة من الكتب الدراسية ، ولعلّه لم ينتشر أي كتاب طبيّ سواه مثله ، ومع كل ما حصل من التقدم الطبيّ لا زال مرجعاً للعلماء وموئلاً للأطباء »[٥] .

وكتب « ويل دورانت » يقول : « إنّ من أشهر الأطباء الإسلاميين وأقدمهم هو محمّد بن زكريا الرازي ، انّه ألّف أكثر من مائتي كتاب ورسالة أكثرها طبيّة ومفيدة جدّاً وملفتة للنظر ، ومن أهم كتبه وأقومها وأكثرها قيمة كتابان هما :

١ ـ كتاب الجُدري والحصباء ، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللاتينية ثم إلى سائر اللغات الأوروبية ، وقد طبعت تراجمه المختلفة من سنة ١٤٩٨ حتى

---

(٣) بالفارسية : ميراث اسلام : ١١٨ .
(٤) بالفارسية : ميراث اسلام : ١٢٨ .
(٥) بالفارسية : ميراث اسلام : ١١٦ .

سنة ١٨٦٦م أي أربعة قرون : أربعين مرة .

٢ ـ الحاوي الكبير : هذا الكتاب حصيلة عمر كامل من المطالعة والتجارب الطبيّة في جميع المسائل الطبية ، وهو عشرون مجلداً ، انتشرت منه عشرة مجلّدات ، خمسة منها في أمراض العيون . تُرجم هذا الكتاب في سنة ١٢٧٩م إلى اللاتينية وطبع في سنة ١٥٤٢م خمس مرات ، وكان يُعد من أهم المراجع والمصادر في الطب في العالم ، وكان أحد الكتب التسعة التي كانت تشكل مكتبة كلّية الطبّ في باريس في سنة ١٣٩٤م »(٦) .

« وإن التقدم العلمي في العمليات الجراحية بدأ من العلماء الإسلاميين ، وكانت المدارس الطبيّة في أوروبا إلى العهود الأخيرة تدور على رحى تصانيفهم ، وحتى أنّ عقار البنج (الاغماء الطبيّ) الذي يُعدّ من المكتشفات الحديثة ، لم يكن يخفى على الجرّاحين المسلمين فإنّهم كانوا يفعلون ذلك بالمرضى بما كانوا يسمّونه ببذر البنج »(٧) .

« وقد اكتشف الرازي أساليب علاج طبية جديدة من قبيل: استعمال الماء البارد في الحُمّى الدائمة، واستعمال المنفخة في السكتة، واستعمال الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات في خياطة الجروح، واكتشاف ضماد الجيوة »(٨) .

« وقد ترجمت كتب ابن سينا إلى أكثر اللغات في العالم يومئذٍ ، وكانت حتى ستة قرون أُصول علم الطب ومبناه ، بل لم تكن دروس الطب في دار الفنون في فرنسا وإيطاليا إلاّ من كتب ابن سينا ، ولم تترك كتبه في فرنسا إلاّ منذ خمسين سنة فقط »(٩) .

« وقد أحدث العلماء الإسلاميون أموراً جديدة في علم الطب والجراحة ، على من يريد تفصيلها أن يراجع الكتب المفصلة في ذلك ، ومنها : تشخيص

---

(٦) بالفارسية : تاريخ تمدن ، ويل دورانت ٧ : ٧٥٩ .
(٧) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب : ٦٣٧ .
(٨) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب : ٦٣٠ .
(٩) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب : ٦٣٣ .

مرض السلّ من الأظافر ، ومعالجة مرض اليرقان ، ووقف النزيف الدموي بالماء البارد ، وتفتيت أحجار المثانة والكلية ومن ثم إخراجها ، ومعالجة عملية الفتق بالجراحة »[10] .

« من أكبر الجرّاحين الإسلاميين : أبو القيس أبو القاسم الأندلسي الذي كان يعيش في القرن الحادي عشر ، والذي اخترع كثيراً من آلات العمليات الجراحية صوّرها في كتبه وكتب « هالر » يقول : إن كتب أبي القيس كانت مصادر لكل الجراحيين منذ القرن الرابع عشر ، وقد طبعت كتبه باللاتينية لعدة مرات آخرها في سنة ١٨١٦ »[11] .

---

(١٠) بالفارسية : تاريخ تمدن اسلام ٧ : ٧٨ .

(١١) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب : ٦٣٢ .

صُنعُ العَقاقِيرِ الطِبيَة

كتب الدكتور غوستاف لوبون : « اكتشف المسلمون عدّة اكتشافات في طرق المعالجات ، منها : استعمالهم الماء البارد في حمّى « التيفوئيد » وتركته أوروبا عدّة قرون ثم عادت إليه اليوم . وكأنّهم هم المخترعون والمحدثون لكثير من التركيبات الكيمياوية وأكثرها لا زالت معمولة حتى اليوم .

واكتشف المسلمون طرقاً خاصة في استعمال العقاقير والأدوية ، لا زالت بعد سنين طوال تستعمل بوصفها اكتشافات جديدة .

وكانت لهم ـ كما اليوم ـ مستوصفات مجّانية كان الناس يراجعونها في أيام خاصة ، وبالنسبة إلى النقاط التي لم يكن فيها مستشفى أو مستوصف ، كانوا يُرسلون إليها الأطباء في أوقات خاصة معهم أدويتهم وأدواتهم »[1] .

وكتب جرجي زيدان يقول : إن علماء أوروبا في نهضتهم العلمية الأخيرة حينما بحثوا في فنون صناعة الأدوية أدركوا أن المسلمين هم المؤسّسون لهذا العلم (بمعناه العلميّ) فهم الذين رتّبوا ونظّموا الطرق الفنيّة لصناعة الأدوية لأول مرة وأحدثوا أدوية جديدة ، وهم الذين افتتحوا لأول مرة حوانيت لتصنيع وبيع الأدوية والعقاقير كما في الصيدليات اليوم ، وكما يقول « ماك كاب » كان

(١) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب : ٦٥ و٦٣٧ .

في بغداد فقط ستون حانوتا لبيع الأدوية برأسمال بيت المال وبأمر الخليفة »[٢] .

« والدليل على ذلك أن لا زالت أسامي بعض الأدوية والأعشاب التي يستعملها الأوروبيون هي نفس الأسامي العربية والهندية والفارسية التي كان يستعملها العرب »[٣] .

(٢) بالفارسية : عظمت مسلمين در إسبانيا : ١٨٣ .
(٣) بالفارسية : تاريخ تمدن اسلام : ٣ : ٢٧٩ .

المُسْتَشْفَيَاتْ

كتب جرجي زيدان يقول : « لم يكن القرن الثالث قد انتهى حتى بنيت في مكة والمدينة وسائر المدن « البيمارستانـات » وتسابق على بنـائها المقتـدر العباسي ووزراؤه ، وفي بغداد فقط بنيت في فترة قصيرة أربعة « بيمارستانات » حتى بنى عضد الدولة البويهيّ في سنة ٣٦٨ هجرية في القسم الغربيّ ببغـداد (البيمارستان العضدي) الذي كان فيه أربع وعشرون طبيباً إخصائياً كل واحـد منهم في فرع من فروع الطبّ ، وكان هذا المستشفى لما فيه من مزايا على رأس كل البيمارستانات الإسلامية »(١) .

« وكانت المستشفيات الإسلامية ذلك اليوم تدار بترتيب ونظام تام كامل ، وكان كل المرضى يعالجـون بكل دقـة من دون التفات إلى قـوميتهم ومذهبهم وشغلهم ، وكان لكل مرض أو لعدة أمراض صالون خاص ، وكان يدرّس الطب وتصنيع الأدوية في محل مجاور ، فكان الطلاب بالإضافة إلى دراستهم العلمية يمارسـون ذلك عملياً . وكان المسلمون قد شكّلوا مستشفيات سيّارة ـ كما اليوم ـ يذهبون بها إلى هنا وهناك ، ومنها ما كان في عسكر السلطان محمود السلجوقي إذ كان له مستشفى يحمله أربعون بعيراً »(٢) .

---

(١) بالفارسية : تاريخ تمدن اسلام ٣ : ٢٧٩ .

(٢) بالفارسية : تمدن اسلام ٣ : ٢٨٢ .

وكتب الدكتور « غوستاف لوبون » يقول : « كانت مستشفيات المسلمين قد بنيت وفقاً لأصول الصحة وكانت بالنسبة لزمانها أحسن من مستشفيات أوروبا اليوم ! لانها كانت واسعة جدّاً وكان جريان الماء والهواء فيها كثيراً جدّاً . وحينما أمر محمّد بن زكريا الرازي أن يختار أحسن نقطة في بغداد من حيث الماء والهواء لبناء البيمارستان ، فما أجراه من اختيار يعترف به اليوم الباحثون في الأمراض المُعدية انّه علّق في كل نقطة من جهات المدينة قطعة لحم ، وأوعز أن يبنوا المستشفى في النقطة التي كانت آخر نقطة تعفّنت فيها قطعة اللحم أي كانت آخرها عفونة وفساداً .

كانت مستشفيات المسلمين كالمستشفيات اليوم لها صالونات كبرى للمرضى ، وغرف خاصة لطلّاب الطبّ ، وكانوا يقصدون من ذلك إلى أن يفيد الطلّاب من معاينة المرضى ويكمّلوا معلوماتهم من خلال المشاهدات والتجارب .

وكان المسلمون ـ كما اليوم ـ قد أسسوا للمجانين مصحّات خاصة بالأمراض العقلية وكان فيها حوانيت لتوزيع الأدوية مجاناً »[٣] .

وكتب « ماك كاب » يقول : « كانوا قد بنوا في القاهرة مستشفى كبيراً كان فيها حدائق كبرى من الأوراد والأزهار والرياحين العطرة ، وصحون أربعة فيها حياض كبرى فيها فوّارات أو نافورات المياه . وكانت تستقبل المرضى الفقراء وبعد العلاج كانوا يرفدون كل واحد منهم بأربع قطع من المسكوكات الذهبية »[٤] .

« وكان في مدينة قرطبة خمسون مستشفى وتسعمائة حمام وستمائة مسجد جامع »[٥] .

---

(٣) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب : ٦٣٥ .
(٤) بالفارسية : عظمت مسلمين در إسبانيا : ١٨٣ .
(٥) بالفارسية : جهان اسلام : ٨٢ ، ٨٣ .

الكيمياء

كان جابر بن حيان من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام أحد الشخصيات العلمية الكبرى ، وكانت له خبرة ومهارة خاصة في علم الكيمياء ، حتى قال « ماكس ميرهوف » فيه : « يعرف جابر بن حيان في العالم اليوم بأبي الكيمياء ، ولا زالت منه بأيدينا تسعمائة كتاب في الكيمياء ولا يخفى ما لكتبه من النفوذ والشهرة في تاريخ الكيمياء في أوروبا »[1] .

وكتب المرحوم العلّامة السيد هبة الدين الشهرستاني في كتابه « الدلائل والمسائل » بشأن كتب جابر بن حيان يقول : « رأيت خمسين رسالة منه قديمة الخط يقول فيهنّ : « قال لي جعفر عليه السلام » أو « ألقى عليّ جعفر » أو : « حدّثني مولاي جعفر عليه السلام » وقال في رسالته الموسومة بالمنفعة : « أخذت هذا العلم من سيدي جعفر بن محمّد سيّد أهل زمانه . . . » وقد طبعت خمسمائة رسالة منها في ألمانيا قبل ثلاثمائة سنة أو أكثر ، وهي موجودة في مكتبة الدولة ببرلين ومكتبة باريس . . . وله مؤلفات كثيرة في الهيئة والنجوم طبعت في ألمانيا قبل مئات السنين . . . وقد سمّاه الإفرنج : أستاذ الحكمة ، ولذكره تجليل وتبجيل لديهم ، واعترفوا بأنه المكتشف لتسعة عشر عنصراً من عناصر المواد التي بلغت اليوم فوق المائة . . . ونسبوا إليه القول بوحدة العناصر

(١) بالفارسية : ميراث اسلام : ١١٢ .

وأنها جميعاً تنتهي إلى عنصر النار المخبوءة في باطن الذرة من ذرات المادة . وقد كشف الإفرنج حديثاً النار القوية الالكترونية في باطن الذرة (الأتم) . . . »[٢] .

ويقول الدكتور « غوستاف لوبون » : « اكتشف المسلمون سلسلة من المواد لا زالت مورد الحاجة في الإستعمالات الكيمياوية والصناعات اليومية وكان العلماء المسلمون يعلمون هذا العلم ولكن مع الأسف فقد الكثير من كتبهم في هذا الموضوع ، ومن النظر في التركيبات الكيمياوية المذكورة في كتبهم الموجودة يعلم مدى ما توصّلت إليه أفكارهم ومعلوماتهم ، وإن خبرتهم ومهارتهم في صنع الأصباغ والألوان واستخراج أنواع الفلزّات وصناعة الفولاذ والجلود تثبت لنا أنهم كانوا يفيدون من الكيمياء في مختلف فنونهم .

والذين يقولون : إن « لاوازيه » كان مُحدث هذا العلم ليس صحيحاً ، إذ علينا أن نعلم أن أي علم أعم من الكيمياء وغيره لا يوجد دفعة واحدة ، فلو لم تكن مختبرات المسلمينْ واكتشافاتهم المهمة في هذا العلم قبل ألف عام لما كان لاوازيه يتقدّم خطوة في هذا المجال »[٣] .

وكتب جرجي زيدان يقول : « لا شك في أن المسلمين هم الذين أسّسوا كثيراً من التركيبات الكيماوية وعليها ابتنت الإكتشافات الكيماوية الحديثة . وهم يقرّون ويعترفون أن المسلمين هم الذين اكتشفوا : الأسيد نتريك ، والأسيد سولفوريك ، والأسيد نترو ، والهيدرو كلوريك ، والبوتاس ، وجوهر النشادور ، وملح النشادور ، ونيترات الدارجن ، والكلوريد سولفوريك ، ونترات البوتاس ، والكحول ، والزرنيخ ، والبورق ، والقليا ، وغيرها كثير . وقد اكتشف علماء الكيمياء في الإسلام أشياء لا علم لنا عن كيفيتها إلّا إجمالاً »[٤] .

---

(٢) الدلائل والمسائل ، للسيد هبة الدين الشهرستاني : ٥١ ـ ٥٣ ، ط . بغداد .
(٣) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب : ٦١٢ .
(٤) بالفارسية : تاريخ تمدن اسلام ١ : ٢٧٩ .

وكتب « السير إدوارد » في كتابه « من تاريخ علم الكيمياء » يقول : « تقدّم علم الكيمياء على عهد الخلفاء العباسيين تقدماً ملحوظاً ، فكان المسلمون يومئذٍ يستعملون التقطير والتبخير والتصعيد ، وكانوا يعرفون ويستعملون لأول مرة : الصوديوم ، والكربون ، والكربونات ، وسولفات فريك ، والألمنيوم ، وسولفات بوتاسيوم ، وكلورويد أمونيوم ، دوبوتاس ، وبرات دوصوديوم ، ونيترات دوكواربوم ، ومركورى سالفيدوم ، وكروسيو سابليميت »[5] .

وكتب الدكتور « ميرهوف » بشأن الرازي بصفته الوجه المشرق في الكيمياء يقول :

« وجد كتابه الكبير « صناعة الكيمياء » أخيراً في مكتبة أحد أبناء الملوك الهنود ، وقد قسّم الرازي في هذا الكتاب مختلف المواد إلى طبقات ثم شرح الخواص الكيمياوية لكل واحدة منها »[6] .

وكتب « ويل دورانت » يقول : « إن الكيمياء بوصفه أحد العلوم كان من إبداع المسلمين تقريباً ، فانّهم هم الذين أضافوا على عمل اليونان الذي كان محصوراً على بعض التجارب ثم الإفتراضات المبهمة أضافوا إليها المشاهدات الدقيقة والتحاليل العلمية وثبْت النتائج . انّهم حلّلوا كثيراً من المواد . ولهم كتب بشأن بعض الأحجار ، وميّزوا بين أنواع الأسيد والمواد القليائية . وبحثوا حول مئات الأدوية الطبية وصنعوا مئات أخرى . ومن تبديل المواد بعضها ببعض ولا سيّما الذهب والفضة توصّلوا إلى الكيمياء الحقيقية . وبكثير من كتب العلماء المسلمين التي لم يعرف مؤلّفوها ولكنها تُرجمت إلى اللغة اللاتينية تقدم الكيمياء في أوروبا »[7] .

---

(٥) بالفارسية : عظمت مسلمين در إسبانيا : ١٨١ .

(٦) بالفارسية : ميراث اسلام : ١٢ .

(٧) عن الترجمة الفارسية لتاريخ التمدن ، ويل دورانت ١١ : ١٥٥ .

الصناعات

كانت الساعة أول أثر صناعي كبير اخترع أو أبدع من قبل المسلمين على عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد ، فبعث هارون الرشيد بالساعة المخترعة كهدية إلى « شارلمان » ملك فرنسا ! وكتب الدكتور « غوستاف لوبون » الفرنسي يقول بهذا الصدد :

« كان هارون الرشيد قد بعث مع سفير شارلمان ملك فرنسا وامبراطور العرب بهدايا كثيرة إليه ، كان من أهمها ساعة تعيّن الوقت وتدق جرساً بذلك . وأصبح شارلمان وأصحابه مبهوتين برؤيتهم لهذه الساعة ، ولم يجد في بلاطه أحداً يعرف كيفية صناعتها »[1] .

وأضاف يقول : « إن انحطاط الأندلس بعد إخراج المسلمين العرب منها كان من الشدة بحيث لا يوجد في جميع صفحات التاريخ قوم انحطّوا هكذا وإلى هذه الدرجة وبهذه السرعة : فقد غاب عن الأنظار فجأة كل ما كان من أسباب الرقي لأية دولة أو شعب : العلوم والفنون والزراعة والفلاحة والحرف ، وبالتالي كل شيء . . .

انسدّت وأغلقت المصانع والمعامل الكبرى ، واختلّت أمور الزراعة

---

(١) بالفارسية : اسلام وعرب .

رأساً ، وبارت الأراضي الزراعية المثمرة ، والمدن التي كانت بالطبع لا تبقى عامرة بدون زراعة وحرف ، خربت وبارت ، فقلّت نفوس « مدريد » التي كانت أكثر من أربعمائة ألف إلى مائتي ألف ! وفي « اشبيلية » التي كان بها ألف وستماتة معمل وكان يعمل فيها مائة وثلاثون ألف عامل ، انحصرت المعامل في ثلاثمائة ! وأما نفوسها فمن المعلومات التي قدّمتها الهيئة التشريعية إلى « فليب الرابع » يعلم أن عدد نفوسها كانت قد بلغت الربع مما كانت عليه »[٢] .

وأضاف يقول : « كانت كتابات أوروبا في القرون الوسطى إلى مُدد طويلة على الجلود المدبوغة ، وكانت تكلّف من المصاريف ما كان يمنع من نشر الكتب واشاعتها ، وكانت قليلة جداً بحيث كان رهبان الروم واليونان يجمعون الكتب القديمة فيمسحون كتاباتها ليكتبوا عليها كتاباتهم الدينية ! فلو لم يكن المسلمون اخترعوا الورق لكان هؤلاء الرهبان اليونان والرومان يفسدون كل الكتب القديمة التي يستولون عليها ! فهذا الإختراع من المسلمين قدّم خدمة قيّمة ثمينة إلى عالم العلوم في الحقيقة .

وقد عثر « كاسيري » في مكتبة « اسكوريال » على كتاب كُتب في سنة ١٠٠٩م يعرف أنه أقدم الكتب المخطوطة في مكاتب أوروبا ، ويعلم من هذا الكتاب أن المسلمين هم أول من كتب على الورق بدل الجلود المدبوغة قبل غيرهم .

ولم يكن الورق الحريري (الصينيّ) يفيد لأوروبا يومئذٍ إذ لم يكن في أوروبا حرير ولا دود القزّ ، وإنّما كان القطن ، والمسلمون الذين اخترعوا الورق من القطن ، ومن هنا فقد امتنوا على أوروبا . ويعلم من ورق الكتب القديمة للمسلمين أنهم كانوا قد تقدّموا بهذا الفن كثيراً حتى أنه لم يصنع إلى الآن ورق أحسن من تلك الأوراق ! وقد ثبتت هذه الحقيقة وهي : أن صناعة الورق من الثياب القطنية البالية والذي يعد عملاً صعباً وبحاجة إلى أعمال يدوية كثيرة كان يخص المسلمين »[٣] .

---

(٢) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب .

(٣) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب .

العُلومُ الرِّياضِيَّةُ

كتب « بارون كارول دو » يقول : « إن المسلمين اكتسبوا توفيقاً كبيراً في علوم مختلفة ، وهم الذين علّموا الناس استعمال الأعداد . . . ونظّموا الجبر والمقابلة على شكل علم صحيح ، وتقدّموا به خطوات كبرى ، وأسّسوا أساس الهندسة التحليلية ، ولا شك أنهم هم مخترعوا المثلثات السطحية والكروية التي لم يكن لها سابقة في اليونان من قبل .

حينما كان العالم المسيحي الغربي في حروب مع البربر كان المسلمون العرب مشتغلون بدراسة العلوم ، وكانوا يسعون سعياً حثيثاً للحفاظ على معنوياتهم ودينهم »[1] .

« تقدّم المسلمون في مدة قليلة في علوم كثيرة منها في العلوم الرياضية ، واكتشفوا في الهندسة الجبر والمثلثات وغيرها اكتشافات كثيرة ، ومن المسلّم به أن شطراً كبيراً من العلوم الرياضية اليوم قد ذهب من المسلمين إلى أوروبا ، وخير دليل على ذلك أن مصطلحات هذه العلوم المذكورة لا تزال باقية على صورتها العربية ، فلغة « الجبر = Algebre » عربية ، وفي الفرنسية يطلقون على الأرقام والأعداد الرياضية : ChiffreBrBde أي الرقم العربي . وقد ظهر في المسلمين علماء رياضيون كبار ولهم اكتشافات مهمة لا زالت مورد اهتمام

(١) بالفارسية : ميراث اسلام : ٢٩٣ .

العالم ، فالمسلمون هم الذين اكتشفوا الاسطرلاب ، واكتشف وابتدع المثلثات ومصطلحاتها العلماء الرياضيون المسلمون من العرب والإيرانيين ، فمن إيران قام علماء كبار مثل أبي ريحان البيروني والحكيم عمر الخيّام النيشابوري ، وقد تركوا آثاراً كبيرة منهم في فنون الرياضيات ، حتى قال « ولز » الإنجليزي في كتابه في التاريخ العام : إن كل ما لدينا من العلوم الرياضية إنّما هي من المسلمين »[٢] .

(٢) نقلا عن منشورات دار التبليغ الإسلامي بالفارسية .

الجُغْرافِيا

كتب الدكتور « غوستاف لوبون » المؤرخ الفرنسي الشهير يقول : « إن المسلمين كانوا شجعاناً في ركوب السفن في البحار دائماً ، ولم يكونوا يترددون في السفر إلى النقاط البعيدة ، إنّهم في أوائل استقرار حكومة الإسلام أقاموا علاقات تجارية مع الدول البعيدة عنهم كالصين ونواحي روسيا ومناطق من أفريقيا ، ولم يكن الأوروبيون يومئذٍ يدركون ذلك .

ونشر « سليمان الرحالة » مذكراته من رحلته إلى الصين فكان أول كتاب انتشر في أوروبا عن الصين ، وفي أوائل هذا القرن ترجمت هذه الرحلة إلى اللغة الفرنسية .

وكان « ابن حوقل » أحد علماء الجغرافيا في الإسلام يقول في كتابه : كتبت في هذا الكتاب طول الأرض وعرضها ، وشرحت كل الدول والحدود والثغور الإسلامية وضممت إلى ذلك صورة مرسومة عن كل بلد تبدي مختلف النقاط لتلك البلاد ، وشرحت الأمور التي تتعلق بكل مملكة من المدن والقصبات والأنهار والبحار والثمار والزروع والطرق ، وفواصلها مع جاراتها ، وبضائعها التجارية وبالاخرة كل ما يحسن من علم الجغرافيا في نظر الملوك والوزراء أو غيرهما من أي طبقة كانوا ، قد شرحت ذلك كلّه في هذا الكتاب .

ثم يذكر المؤرخ المذكور أسامي عدد من علماء الجغرافيا في الإسلام

مثل أبي ريحان البيروني وابن بطوطة وأبي الحسن الرحّالة ثم يضيف قائلاً : « لقد تقدّم المسلمون في الجغرافيا تقدّماً كثيراً وكان السبب الأصلي في هذا التقدّم ما كان لهم من معلومات واطلاعات عن علم الهيئة والفلك ثم ما كانت لهم من أسفار وسياحات ورحلات »[1] .



---

(١) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب .

الفُنُونُ الجَمِيلَةْ

كتب العالم والمؤرخ الفرنسي الشهير الدكتور « غوستاف لوبون » يقول :
« حينما نلاحظ المساجد والمدارس والخانات الإسلامية نفهم كم امتزج الدين في الإسلام - مع الحضارة بحيث لا يمكن تفكيك أحدهما عن الآخر . والذوق الفنيّ لأية أمة إنّما يفهم من تلك التغييرات الأساسية التي يدخلونها على ما يقتبسونه بسرعة ومن الصبغة التي يصبغونها به من صبغتهم وكأنهم يصنعون منه شيئاً مستقلاً .

وحسب الشواهد التي بأيدينا لم تتمكن أية أمّة حتى الآن أن تتقدّم على المسلمين من هذه الجهة ، كما يمكن إدراك قوة إبداعهم وابتكاراتهم جيداً من مشاهدة الأبنية القديمة ، خير نموذج لذلك هو مسجد « قرطبة » الذي بني على المعمارية الوطنية الأندلسية ولكنهم أضافوا فيه أساليب حديثة أيضاً .

والنحت في الخشب أو العاج والصدف من الصنائع التي طوّرها المسلمون كثيراً ، فالمساجد القديمة والأبواب الجميلة والمنابر المنحوتة والمرصعة بالخاتم ، والسقوف الخشبية المنحوتة والمنقوشة على الخشب ، والشبابيك المتشابكة والمتداخلة ، كل ذلك ذكريات أثرت من المسلمين ، ولا يمكن صنعها اليوم بتكاليف كثيرة .

إنّهم كانت لهم معلومات وخبرة كافية في النحت على العاج ، كما تشهد

لذلك المنضدة في كنيسة « سنتى زيدوليثون » والصندوق العاجي الذي صنعوه في القرن الحادي عشر الميلادي لملك « اشبيلية » وكذلك صندوق العاج الذي في كنيسة « بايو » والمصنوع في القرن الثاني عشر الميلادي ، وهو منبّت بالفضة والذهب ، والظاهر أنه مما أتى به الصليبيون أيام الحروب الصليبية من مصر .

والعجيب جداً هو أنهم يصنعون أشياء ظريفة جداً ولكن بآلات ساذجة بل وخشنة ، وهذا هو خير شاهد على فطنتهم وذوقهم الفنيّ فآلات الزينة والمجوهرات المرصعة التي تصنع اليوم في القاهرة ودمشق لا يوجد في أوروبا أي صائغ يتمكّن أن يقوم بنحت في خشب أو الترصيع فيه أو من الخزف أو الذهب والفضة بنفس الآلات الساذجة القديمة التي كانوا يستعملونها في الشرق الأوسط .

وقد تقدم المسلمون في فن الفسيفساء والكاشاني بخطوات سريعة كما في المعمارية ، بحيث لم يستطع أحد بعدهم أن يحشر نفسه في صفوفهم .

في أوائل القرن العاشر الميلادي بدأ المسلمون في الأندلس باستعمال الكاشاني الفسيفساء وأسّسوا لذلك مصنعاً ومعملاً كان يصدر الكاشاني منه إلى كثير من أنحاء العالم . وقد رأيت أنا (لوبون) الكاشاني الفسيفساء من القرن الثالث عشر الميلادي الذي رُكّب بشكل لا مثيل له في قصر الحمراء فرأيتها كأنّها جواهر مشرقة ، وهي كالكاشاني الإيطالي الذي عُرف فيما بعد باسم « مجالكا » مشرق لمّاع ، وقد تعلّم الإيطاليون صناعة الكاشاني من المسلمين . ومن ذكريات المسلمين في صناعة الكاشاني تلك المزهرية الشهيرة في قصر الحمراء ، هذه المزهرية طولها متر ونصف المتر وفيها بدائع جميلة »[١] .

وكتب الدكتور « ماكس ميرهوف » : « تظهر اليوم شيئاً فشيئاً ذخائر علوم الأمم الإسلامية ويفيد منها الجميع ، والمكتشف في هذه السنين الأخيرة قد ألقى ضوءاً جديداً على التاريخ القديم لعلوم العالم الإسلامي ، ولكنّها ليست

(١) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب .

كافية بعد قطعاً وسيدرك العالم في المستقبل أهمية العلوم الإسلامية .

انّ علوم المسلمين العرب أضاءت الليالي المظلمة في أوروبا القرون الوسطى كالبدر الطالع ، ولما ظهرت العلوم الجديدة فقد القمر إشراقة ضوئه ، ولكنّه هو القمر الذي هدانا في تلك الليالي المظلمة حتى بلغ بنا اليوم إلى ها هنا ، بل نستطيع أن نقول ان أضواءه لا زالت معنا »[٢] .

وكتب « جان بروندترند » أستاذ جامعة كامبريج يقول : « حينما كانت أوروبا ترزح بالبؤس والتعاسة والشقاء المادّي والمعنوي ، كان المسلمون في إسبانيا قد أحدثوا حضارة عظمى بنظام إقتصادي رتيب .

إن إسبانيا المسلمة لعبت دوراً مهمّاً في نشأة الصناعات والعلوم والفلسفة والشعر وتطوّرها ، وفي القرن الثالث عشر بلغ الحال إلى أن أثر في أكبر العلماء والمفكرين في أوروبا مثل « دانته » و « توماس اكيناس » وعليه فينبغي أن نسمّي إسبانيا حاملة مشعل الحضارة الأوروبية »[٣] .

وكتب العالم الإنجليزي « جمبر » يقول : « حقاً إن القلم يعجز عن بيان ما جاء به المسلمون من الآداب والمراسيم الإنسانية ومن سعادة الحياة ، وكم سبّبوا في تربية الأوروبيين وتطورهم .

لو لم يكن المسلمون ينزلون بقيادة « طارق بن زياد » في جبل الطارق سنة ٧١١م ومن هناك لم ينطلقوا إلى أراضي أوروبا ، لكان يعلم مدى ما كنّا نخسر نحن شعوب أوروبا وكم كنا نتخلّف عن التقدّم القائم اليوم »[٤] .

وكتب العالم الإنجليزي « بوجولد » يقول : « إن الجامعات الإسلامية في بغداد والأندلس ، كانت ترحّب بالطّلاب الأجانب من اليهود والنصارى ، وكانت تدفع مصارفهم من بيت المال ، وكانوا يحترمونهم ويكرمونهم ، فكان مئات من الشباب الأوروبي يفيدون من هذه الحرية والمساعدات ويذهبون لطلب العلوم

---

(٢) بالفارسية : ميراث اسلام : ١٠٠ و١٠١ و١٣٤ .

(٣) بالفارسية : ميراث اسلام : ١٥٢ .

(٤) فتوح العرب وكنوز الآداب : ٢٦ .

إلى تلك المراكز العلمية الإسلامية » .

وكتب المؤرخ الشهير الأمريكي « درابر » يقول : « كان للعلماء المسلمين يد طولى في أكثر العلوم القديمة والحديثة ، وكانت لهم خبرة ومهارة تامة في علوم الميكانيك ومعادلات السوائل ، وعلم الحركات الأولية « الديناميك » وحل المعادلات الكيمياوية والفيزياء والتقطير والتصعيد .

في الجامعات الإسلامية كانت تدرّس مختلف العلوم من الفيزياء والكيمياء والهيئة والفلك إلى دروس الزراعة والطب والأخلاق ، وكان فيها أساتذة فلاسفة كبار ، ولم تكن يومئذ أيّ جامعة كالجامعة الإسلامية تشتمل على ستة آلاف طالب » .

ويقول « فيليب حتّي » : « كان في قرطبة طرق حجرية معبّدة تستضيء من أضواء الدور على جانبيّ الطرق ، بينما لم يكن للندن ولا باريس طرق كهذه حتى بعد سبعة قرون ، بل إلى قرون بعد ذلك كان إذا تجرّأ فرنسي وخرج من داره في يوم ممطر كان عليه أن يطمس حتى كعبيه في الطين والوحل . وحينما كانت جامعة اكسفورد ترى أن الاستحمام من مراسيم عبدة الأوثان ، كانت أجيال متعاقبة من مسلمي قرطبة تتمتع بأجمل الحمّامات هناك »[٥] .

وكتب « برولت » في كتاب « صنع الإنسان » يقول : « لا ريب أننا بإمكاننا أن نرّد أيّ فرع من فروع العلوم والفنون إلى أصول من عوامل الثقافة الإسلامية . . . بل انّ العلم (القديم) كان هدية منحها المسلمون العرب إلى العلم الحديث . . . وإنّما تظهر هذه العوامل الثقافية الإسلامية حينما نشاهد آثارها في ظهور هذه القوة العظمى التي جهّزت العالم بقوى غريبة ، تلك القوة التي تكمن في روح البحث العلمي والعلوم الطبيعية .

والذي يدين به علمنا الحديث لعلوم العرب (المسلمين) ليست اكتشافات مفاجئة وأفكار ناشئة متطفّلة ، بل الموضوع أعلى مما نتصوره نحن هكذا ، فانّ العلم الحديث يجد نفسه رهيناً في وجوده لعلوم العرب

---

(٥) بالفارسية : تاريخ عرب ١ : ٦٧٣ .

(المسلمين) نحن نتذكر كيف أن علومنا كانت فاقدة الصلة بالعلم القديم بل لم يكن هناك علم أصلاً .

إن ما ندرسه نحن اليوم باسم العلم إنّما وجد في أوروبا على أثر الأساليب الحديثة التي ظهرت على صعيد التجارب والمشاهدات والتقديرات الدقيقة ، وقد تطوّرت العلوم الرياضية بما لم يُعهد في اليونان القديم . . . وهذه الروح الوثّابة وهذه الأساليب العلمية إنما جاء بها العرب (المسلمون) هدية إلى أوروبا » .

أمّا لو كنّا نحن ورثة حضارة مشرقة إسلامية عظمى فلماذا نحن اليوم نعيش هكذا ؟ ماذا حدث فأطاح بنا من مقام قيادة العالم ؟ وضعفت حضارتنا وعلومنا وقوانا السياسية وتوقّفت مسيرة تقدّمنا ؟ وبدّلنا مكاننا مع الغربيين . فأصبحنا محتاجين إليهم في العلوم والصناعات وهم مستغنون عنّا ؟! ما الذي سبّب في أن يعيش المسلمون اليوم بهذه الذلة مع كل ما كان لهم من سوابق مشرقة في شرق الأرض وغربها ؟!

وللإجابة نقول : إن المسلمين لم يجدوا رونقهم بطبول فارغة وتجميل الصور الظاهرية ، بل إن كيفية التربية الإسلامية كانت بحيث أحدث هذا التطوّر الغريب ، والمجتمع الذي كان بعيداً عن كل نظام إجتماعي ، والذي كان كل قواه تصرف في سبيل الخلافات والحروب ، أصبح باتّحاد كلمته ذا عظمة ووحدة ، وأصبحوا في فترة قصيرة قادة الأمم الكبرى ، وأطلّت حكومتهم وقدرتهم على سائر الدول المقتدرة .

إن نظام أيّة أمة قوية بحاجة إلى قواعد أساسية محكمة وأصول وآداب وأخلاق وأنظمة تامّة كاملة ، كي تتمكن من البقاء والدوام والإستمرار والاطراد والتطوّر والتقدّم . والإسلام لم يمنح أمة القدرة والقوة بالأسلحة والأعتدة والمدافع والدّبابات ، وانّما بدأ بدعم الأفكار على واقع الصراط المستقيم ، ونفث في المجتمع روح الأخوة والألفة والعدالة .

وقد أثبت التاريخ بوضوح أنّه متى ما فارق المسلمون روح التعاليم السماوية أحاطت بهم أمواج الذلة والتعاسة والشقاء . إن المسلمين الذين

أسّسوا في الماضي قاعدة حضارة عظيمة مدهشة كانوا أقرب إلى روح الإسلام ، وإنّما افتقدت حركة الحياة الفردية والإجتماعية للدول الإسلامية مسيرتها نحو التكامل ، واتّجهت شمس الحضارة الإسلامية نحو الأفول ، حينما افتقد التوازن بين العلم والفكر ، وبين المادة والروح ، وحينما سقطت راية السعي والنشاط والجهاد من أيدي المسلمين ، حملتها الشعوب الغربية واتّجهوا إلى الأمام حتى تغلغلت أفكارهم وعلومهم وحضارتهم في أنحاء العالم ، من دون أن يكون لهم في كتبهم الدينية وأحكامهم المذهبية أي أمر أو وصية بهذا الصدد .

وفي صعيد الصفات والمزايا الأخلاقية أيضاً تغيّرت أوضاع المسلمين وأحوالهم ، فجانبوا الصفاء في الإخاء والصدق في القول والفعل والصحة في الأعمال وسائر المزايا الأخلاقية واحدة بعد الأخرى ، وحينما تجاوز المسلمون هذه الحدود ودّعوا دينهم الإسلام ! فاتّجهوا يتخبّطون في طرق الضلال والضياع عن البرنامج السماوي المقدّس الذي كان منذ أول يوم أعلن فيه منزّهاً عن أيّ ضلال وجهل وبؤس وشقاء .

إن لم يكن المسلمون يبتعدون عن واقع الإسلام الأصيل ، لم يكن يظهر في جمعهم الموحّد ذلك الشقاق العميق ، بل كانوا يتوفّقون لفتح جميع بلاد الأرض ، ولم يكن يحكم اليوم في العالم دين سوى الإسلام .

كتب « لاكاس » وهو أحد أصحاب نابليون في جزيرة « سنت هيلين » يقول :

« حينما كان نابليون يعيش في مصر كان يُبدي استغرابه قائلاً : كيف توفّق الرجال التاريخيّين من المسلمين أنْ يطأوا هذه الدول الأجنبية عنهم فيجعلونها تحت نفوذهم وتصرفهم ؟ وكان هذا المعنى عاملاً سبّب حسن ظنّه بالإسلام فكان يقول : إني أراني سأتقبّل الإسلام .

واليوم قد أُبعد الإسلام كليّاً تقريباً عن ميادين النظم الإجتماعية والسياسية القانونية والتشريعية ، وعن ساحة حياة المسلمين أيضاً .

وبنظرة جذرية وأساسية نقول : إن المجتمع الإسلامي يختلف عن هذا

المجتمع القائم اختلافاً كثيراً ، فإن كل مجتمع يتّبع نُظماً وقرارات وقوانين غير إسلامية هو مجتمع غير إسلامي .

والخلاصة : أن المجتمع الإسلامي في الحال الحاضر لا يمتلك أفكاراً إسلامية ولا أخلاقاً إسلامية ، وإن أيّ فرع من فروع حضارتهم لم يُبن وفقاً للأصول الإسلامية الصحيحة .

والخلاصة مرة أُخرى : أنه لم يبق بين إسلامهم وعملهم أيّة علاقة أو ارتباط . وعليه فيجب أن نحمل هذه الهزيمة والنكسة الحاضرة على حساب المسلمين الإسلام . والسلام !

إنّ المسلمين اليوم من أجل أن يُسهموا في الثورة الحضارية في العالم بصورة مؤثرة ، عليهم أن يدركوا وضع العالم ، وأن يقيّموا موقعهم فيه ، ومن أجل أن يجبروا ما لحق بهم من التأخر وأن يقوموا بإصلاح عام لأوضاعهم عليهم أن يعيدوا النظر في رسالتهم المعنوية وفي رسالتهم المادية معاً لكي يصلوا إلى نتائج مفيدة مثمرة .

والخلاصة مرة أُخرى : ما لم يعُد المسلمون إلى المنبع العذب للحضارة الإسلامية ، والمصدر الحقيقي لتعاليم الإسلام القيّمة ، فإنّهم لن يستعيدوا عظمتهم السابقة ، ولا يزالون متخلّفين . فعلى المسلمين أن يعودوا إلى الإسلام الأصيل والكامل الشامل لأمور الدنيا والآخرة ، وأن يوثقوا علاقتهم بأُسلوب الفكر الإسلامي ، وأن يحافظوا على كرامة وحرمة العهد الذي قطعوه لله على أنفسهم بانتمائهم إلى الإسلام ، فهذا هو السبيل الذي بإمكانه أن يعود بالمسلمين إلى ذلك الشرف والعظمة السابقة .

الإسلام والمشروبات الكحولية

إن نظام التربية والتعليم في الإسلام نظام إجتماعي عالمي يؤمّن سعادة الإنسانية على صعيد الحضارة . وإن دعوة الإسلام تبتني على أساس الخطاب مع العقل والوجدان وضمير الإنسان . وإن كثيراً من آيات القرآن الكريم يبيّن المعارف العقائدية والعملية بأسلوب استدلالي برهاني ، ويعرض أهدافه ومقاصده على غريزة حبّ الحقيقة والواقع في الإنسان بدلائل كافية وافية . فالإسلام ـ في الحقيقة ـ يقول بقيمة خاصة واعتبار كثير للقوة المدركة والقوى الحسّاسة في الإنسان .

إنّ الإسلام يريد أن يتقدّم الإنسان ـ بصفته ظاهرة من ظواهر الخلقة والذي يمتاز عن صفوف سائر الحيوانات بقوة العقل والمنطق ـ يتقدّم إلى الغاية المركّزة في هيكله الوجوديّ بإدراكه وشعوره الفطري .

إن الإسلام قد أودع إدارة الأمور الفردية والإجتماعية إلى العقل ، وأولى هذه الموهبة العظمى الأهمية والقيمة حتى أنه جعلها الحجّة الباطنية ، وحتى أنه منع بشدة عن أيّ شيء يحبط نشاط العقل ويخلّ بالعمل الطبيعي لهذه الموهبة الإلهيّة ، وحتى أنه لا يسمح بذلك حتى للحظة واحدة !

والمشروبات الكحولية من جملة ما يؤثر على جهاز العقل ، وتترتّب عليها آثار مشؤومة من حيث الأخلاق والصحة والنفس في المجتمعات البشرية . لا

شيء يؤسف له أشدّ من أن يفتقد الإنسان عقله وإدراكه الصحيح والنزيه بمئات الليترات من المشروبات الكحولية ، بل الملايين منها ، وبذلك ينحرف عن مسيرة التكامل الإلهي في العالم ، ولا ينبغي لنا أن نتوقّع السعادة العامة لمجتمع يفتقد عقله وإدراكه باستعماله للمشروبات الكحولية أي انّه يفتقد بها المائز الوحيد لإنسانيته عن الحيوانية !

إنّ المشرّع الإسلامي صاحب النظرة الصائبة فيما يصلح للبشرية قد حرّم شرب المسكّرات التي تخمّر العقل وتستره وتسكّر عليه بابه ، منع ذلك منعاً شديداً ليست فيه رخصة ولا لشرب قطرة منها .

استعيدوا النظرة إلى المجتمع الذي بدأ فيه الإسلام بتحريم شرب الخمر قبل أربعة عشر قرناً والذي كان الجهل والفساد قد أوغل مخالبه في أفكارهم وأرواحهم ، وكان يسود فيهم البؤس والتعاسة والشقاء والغرور وإرادة الشر والضلال والضياع ، وفي هكذا جوّ وبيئة قام رجل إلهي وأقام قواعد سعادة البشر على أساس الإيمان والتقوى ، وهدى الناس إلى مهبع الحياة ومنهجها اللاحب بأوامره الكريمة والعميقة الغور .

وإن توفيق الإسلام في تنفيذ حكم التحريم والمؤدي إلى ترك هذه العادة العامة من قبل العموم كان توفيقاً غريباً للغاية . وان كان الإسلام قد سلك إلى اجتثاث هذه العادة سبيل المداراة والتدرج ، ولأول مرة انّما أشار إشارة إجمالية مبهمة إلى مفاسدها الفردية والإجتماعية وأطلق على ذلك عنوان الإثم فقال : **﴿يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾**(١) .

ولكنّه في المرة الأخيرة ذكّر بمفاسدها وأضرارها بشكل صريح وأصدر حكمه الحاسم بالتحريم : **﴿إنّما يريد الشّيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصُدّكم عن ذكر الله وعن الصّلاة فهل أنتم منتهون﴾**(٢) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢١٩ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٩١ .

وحينما نزلت هذه الآية كان عدد من المسلمين مشتغلين بالخمرة ، وبعد سماعهم لهذا الحكم الحاسم أراقوا خمورهم وكسّروا أوانيهم .

وقد نُفّذ هذا القانـون من قبل المسلمين بحيث كـانت الأراضي والمدن المفتوحة بأيديهم ترفع فيهـا موائـد الخمور وتمنـع في فترة قصيـرة . وفي هذا العصر أيضاً مع ما تغلغل من أنواع المفاسد والضلال والتي هي هدية الحضارة الحديثة بين صفوف المسلمين ، مع ذلك يوجد ملايين منهم في نواحي العالم لا يلوّثون شفاههم بـالخمرة حتى الـدقائق الأخيـرة من حياتهم ، بـل وحتى لا يتصورون ذلك لأنفسـهم أبداً قط .

أمـا القانـون الوضعي البشـريّ فمن نقائصـه أنه يتلوّن بتلوّن الإنسـان ، وبتلوّن القـانون تتلون حيـاة البشر وتصبـح معرضـاً لتغيّرات وتـطوّرات أُخـرى كثيرة ، لاحظوا هاتين التجربتين : تجربةَ نزول آية تحريم الخمر بين المسلمين في الصدر الأول ، والتجربة الأمريكية إذ أرادت أمريكا أن تحمل النـاس على ترك هذه العادة المضرة التي هي منبع كبير للضلال والشقاء ، وأن تصلح أخلاق المجتمع بوضع قانون لتحريم المسكرات وتنفيذه بالقوة .

قبل أن يلحق الأمريكان المادة الثامنة عشر الإصلاحية بالدستور الأمريكي بـدأت دعايـات واسعة وطـويلة الأمد من قبـل جمـع من النـاس الخيّـريين من المجتمع الأمريكي ، ضد شرب الخمرة في تلك البلاد ، إنّهم وفي مدة عشرة أعوام ذكّروا الناس بالمفاسد والأضرار الروحية والجسمية والأخلاقية والإقتصادية للمشروبات الكحولية ، من خلال تأليف الكتب وطبعها ونشرها ، وبثّ مختلف الأفلام عن الحياة المنكوبة للكحوليّين المُدمنين ، وإيراد الخطابـات العامـة ، وبسـعي لا يعرف الاعياء حذّروا شعب أمريكا من إدمان الخمرة .

بدأت هذه الدّعايـات منذ سنـة ١٩٢٥ حتى سنة ١٩٣٣م وصُـرف عليها خمس وستـون مليـون دولاراً ، ثم قـدّم المشـروع إلى مجلس الكـونجـرس الأمريكي ، وبعد ملاحظة الموضوع ومنافعه ومضاره بدقة صودق على المشروع في الكونجرس ومجلس الشيوخ الأمريكي .

وفي فترة أكثر من عشر سنين بقليل تبدّل الناس عن آرائهم السابقة إلى الاشتياق إلى المشروبات الكحولية ، وعلى أثر ذلك دارت وشاعت البارات السرّية ، وكانت تُباع فيها أكثر المشروبات ضرراً ، وللفرار عن العقوبات القانونية أقدموا على البيع والشراء بمختلف السبل والوسائل ، وزادت مراكز بيع المشروب غير القانوني حتى بلغت أضعاف عددها السابق ، فقبل الإقتراع والتصويب على هذا القانون كان عدد مصانع المشروبات في حدود الأربعمائة وبعد سبعة أعوام من التحريم تكاثرت المعامل حتى بلغت ثمانين ألفاً ، وشاع الأمر حتى شمل اليافعين واليافعات ، وأصبح عدد من الباعة المتجوّلين يرتادون البيوت والمنتزهات والفنادق والهوتيلات وحتى الثانويات والجامعات ، وتدرّج هذا الشراب الممنوع حتى شمل القرى والأرياف ، وتصاعدت أرقام الجرائم والجنايات ، ووفقاً لاحصاء ديوان القضاء الأمريكي قتل قرابة مائتين شخصاً في سبيل تنفيذ هذا القانون ، وصودرت من الأموال أربعمائة مليون دولاراً ، وأُخذ من المتخلّفين مليوناً ونصف المليون دولاراً من الغرامات . وزادت الجرائم بين الأطفال حتى أعلن قضاة أمريكا : أنه لم يكن من المعهود سابقاً أن يقبض على هذا العدد من الأطفال في حال السكر ، فوفقاً لتقرير الشرطة زاد شرب الخمر والسكر بين الشباب حتى بلغ عدد المدمنين منهم إلى ثلاثة أضعاف ما قبل التحريم منذ سنة ١٩٢٠ حتى ثمان سنين فحسب . وتصاعد عدد الوفيات على أثر صرف المشروبات الكحولية : ففي سنة ١٩١٨م كان عدد المصابين بأمراض الكحول في نيويورك يصل إلى ٣٧٤١ والمتوفين بها ٢٥٢ ، وفي سنة ١٩٢٧ أي بعد التحريم بثمان سنين ، وصل عدد المرضى بآثار شرب المشروبات الكحولية إلى أكثر من أحد عشر ألفاً ، والمتوفين بها إلى سبعة آلاف وخمسمائة شخصاً .

وعلى أثر كل هذه الخسائر التي تحمّلتها أمريكا في الأموال والأرواح على أثر تنفيذ قانون تحريم المسكرات انهزمت الدولة وتراجعت في هذا القانون ، فسمحت في أبريل سنة ١٩٣٣ بصرف المشروبات التي نسبة كحولها أقل من ٣٣٪ وفي أوائل ديسمبر من نفس السنة صدر إعلان رسمي أُلغيت بموجبه المادة الثامنة عشر الإصلاحية من الدستور الأمريكي القاضية بتحريم

المشروبات الكحولية ! وعاد شعب العالم المتحضّر إلى شرب الخمرة بحرية بعد أن تألّموا من تحمّل قانون تحريمه أربع عشرة سنة تقريباً .

وفي بريطانيا أيضاً على أثر زيادة احتساء المشروبات الكحولية زيادة مدهشة ، زاد زعماء الوقت في وضع الضرائب الثقيلة عليها وصوّتوا عليه في البرلمان الإنجليزي بهدف تقليل شرب الكحول ، وبعد التصويت عليه هاج الشعب الإنجليزي وعطّلوا الأسواق والمؤسسات اعتراضاً على القانون وإضراباً ضدّه ، فاضطرت الدولة أن تصرف النظر عن قرارها بتنفيذ القانون إلى تجميده رأساً .

هذا التضادّ في وضع القوانين نتيجة اتضادّ مصالح المجتمع مع ميوله وأهوائه .

وفي الإسلام إنّما يُنظر إلى سلامة المجتمع وسعادته ثم لا يُلتفت إلى مشتهياتهم وأهوائهم بأيّ وجه كان أبداً قط .

وكلّما توسّع العلم وأُجريت تجارب ودراسات أكثر تبيّنت المضار المختلفة للكحول أكثر ، ففضلاً عن الفساد وسفك الدماء والخسارات الإجتماعية والخلافات الأسرية والعائلية التي توجبها الكحول ، لا تنكر صدماتها الفتاكة على هيكل السلامة الإنسانية في مجال الطب والصحة .

ومع ملايين الكتب وآلاف المجلات الإختصاصية التي انتشرت بمختلف اللغات في أضرار الكحول منذ قرنين من الزمان ، وما قاموا به من نشاطات ملفتة للنظر للحدّ من شربه ومنعه ، مع كل ذلك . . . فإنّ كل تلك المحاولات لا يمكن قياسها مع النتيجة التي حصل عليها الإسلام بحكم بالتحريم الحاسم ، أما هؤلاء فلم يقدروا على مثل ذلك حتى في بلد واحد من باب النموذج .

وأمّا في الإسلام فلم ينعقد لذلك مجلس ولا محفل ، ولم يقوموا لذلك بتبليغات ودعايات ضدّ المسكرات ، ولم يصرف الإسلام لتنفيذ قانونه بالمنع ديناراً واحداً ، وانّما أعلن رسول الله صلّى الله عليه وآله للمسلمين أن الله قد حرّم الخمر ، وحينما أبلغ هذا الحكم للناس لم يكن للعرب أية لذّة أحبّ من شرب الخمر ، وكان الخمر رائجاً بين كل المجتمعات يومئذٍ ما عدا اليهود

فقط . ولم يكن نداء الرسول صلّى الله عليه وآله قد انتهى حتى ترك المسلمون الخمرة وودّعوها للأبد .

إن من إحدى المميّزات الكبرى للقوانين الإلٰهية على القوانين الوضعية البشرية أن المنظّمات التشريعية البشرية لا تعير أهمية ولا تفتح حساباً للعواطف والأحاسيس الإنسانية ، وليس لهم سبيل لدعوة الناس إلى رعاية القانون والعمل وفق القرارات القانونية .

وإنما يمتنع الناس عن كسر طوق القانون والتعدّي عن حدود القرارات القانونية خوف العقوبة والإبتلاء في مخالب الأجهزة القضائية والجنائية بينما يعتمد المبدأ الإلٰهي على العواطف الإنسانية ، وهو في الدرجة الأولى يطلب من الناس العمل بالقوانين استناداً إلى الصفات الإنسانية السامية ويفيد من جميع القوى والعواطف الإنسانية في سبيل العمل بالقرار الشرعي .

إن الناس يستوحشون من القانون والعقوبات القانونية ، ولكن لهم مكامن لا ينفذ إليها القانون أبداً قطّ . والإنسان يتابع اللّذة طبعاً ولا ينصرف عنها لخاطر الدولة فقط . بل يحاول بكل قواه أن يُروي عطش مشتهياته في خُفية عن القانون .

لو تصدّت الدولة لتعقيب الجرائم اللّاأخلاقية حسب القوانين العرفية فانّها لا تقدر على المنع من وقوع الجرائم كليّةً وأن تعقّب كل المجرمين ، بل يبقى كثير من الجرائم لا يمكن إثباتها ويبقى مجرموها بلا عقوبة .

ما لم تقم في باطن نفوس الناس محكمة ، ولم يتوفّر فيهم ما يحدّد فيهم ميولهم وشهواتهم فإنّ كلّ خطوة إلى الإصلاح ستبوء بالفشل والهزيمة .

ولو آمن الناس بالله وخافوا من عقوبة تلك القدرة الخالدة الخالقة لنظام الوجود والنافذة في جميع شؤون السموات والأرضين ، فإلى أين يفرّون ؟ وأيّ مكمن يخفيهم عنه ؟!

ولذلك فلا ضمان لامتناع الناس عن القيام بكثير من الجرائم إلّا الإرتباط بالله تعالى .

فبالإيمان بالله تكتمل صورة الحياة ، إذ حينما يعتقد الإنسان أنه لا ينتهي كل شيء بانتهاء هذه الحياة عندئذ يجد طمأنينة خاصة في نفسه ، وسيخطو في حياته باعتدال .

أضف إلى ذلك أن القانون الإلهي سيهب الإنسان دستوراً ثابتاً للحياة لا يتزلزل ، ولا يتلوّن ، وهو بعيد عن أمواج التغيرات والتطوّرات ، فلا يمكن للشيء الذي كان حراماً وممنوعاً بالأمس أن يصبح اليوم لا مانع منه ، فهي قوانين وضعت على أساس النظرة الواقعية ولا هدف منها سوى تنفيذ الحقّ ، والحقّ أمر ثابت بعيد عن التحوّل والتزلزل . ولذلك فالقوانين والقرارات التي تحاول إبراز الحقّ ينبغي أن تكون ثابتة باقية خالدة ، وليس لإرادة الناس وميولهم أن تتدخل فيها أو أن تتجاوزها وتتعداها .

العالم المتحضّر اليوم يفخر بأنه ضمن حرّية الإرادة لأفراد الإنسان ، وأنه جعل « سيادة الإرادة الوطنية » أصلاً ثابتاً ومقدّساً في تشريع القوانين .

وعند تحليل هذه الدعوى تبيّن أنّ سيادة إرادة الأكثرية تستلزم محكومية الإرادة وسلب الحرية عن الأقلية (تأمّل)[٣] .

مثلاً لو أراد الأكثرية (واحد وخمسون بالمئة) تشريع قانون لا توافق عليه الأقلّية (تسع وأربعون بالمئة) فإنّ القانون سينفّذ وفقاً لنظر الأكثرية ، وعلى الأقلية أن تقبل بنظر الأكثرية وتخضع لها . وبديهي أنّ هذا تحمّل إضطراري لا ترضى به الأقلّية أبداً .

والآن لنلاحظ أليست الأقلية من البشرية حتى تمنع عن حقّ الحرية في الرأي ، ولا يكون لرأيها أية قيمة أو اعتبار ؟! أليست حقيقة العبودية سوى حرمان العبد عن حقّ الرأي ؟! أليس حمل إرادة الأكثرية على إرادة الأقلية رقيّة جمع بأيدي جمع آخر .

---

(٣) إنّما يتكلّم المؤلف عن مقارنة الدستور الإلهي بالدساتير الوضعية ، أما القوانين العادية في منطقة الفراغ عن النصوص والأحكام الشرعية فلا مانع من أن تكون على نظر الأكثرية ـ المترجم .

إذن ففي حقيقة هذه الحرية عبودية ورقّيّة !

أمـا في القوانين الإلٰهيّـة : فهي تحرّر البشـر عن رقيّة أبنـاء جنسـه وعن عبوديتهم ، فلا معنى هناك لإرادة الأكثرية والأقلية ، بل بُنيت هذه القوانين على أساس المصالح العامة ولصالح العموم ، والهدف منها ضمان سعادة المجتمع البشري .

حسب عقيدة الشخص المتدين حيث أن المشرّع المطلق هو الله تعالى ، وهو يؤمن أن إطاعة تلك القوانين إنّما هي في مسار منـافع العمـوم ومصالحهـا وخيرها ، فهـو يراقب أعمـاله لكي يبقى دائمـاً في إطار طـاعة الله والقـرارات الإلٰهيّة ، ولا يقترب الحدود الممنوعة في الظاهر والباطن من دون أن تكون هناك قوة قاهرة تراقبه من قريب .

إن التجـارب المكرّرة بشـأن القوانين الـوضعية البشـرية تثبت أن هكـذا قـوانين نشأت من فكـر البشر لا تقـدر أن تحدث في وجـود الإنسـان الـدافـع الأخلاقي فتنصره على شهواته وميـوله غيـر الصحيحة . إن دنيـا البشريـة مهما تقدمت في فنونها وعلومها ومهما ارتفع مستوى أفكار الأمم والشعوب ، فإنّهم لا يزالون أسراء تحت مخالب شياطين الأهواء . وإنّما يمكن النجاة من قيود الميول والشهوات والإمتناع عن القبائح والأرجاس ، في ظلال الإيمان بالله والخضوع للقوانين الإلٰهيّة . وإن التجربة البشرية في طـوال القرون المتمـادية قـد أثبتت حقيقة هي : أنه إمـا أن يتّجه الإنسـان إلى هدايـة الله ، أو أن يتورّط في بحـر الشهوات والميول المختلفة والمتنوعة .

وهنا ننقل مقاطع من اعترافات عدد من العلماء غير المسلمين بشأن قيمة قانون تحريم المسكرات : قال العلاّمة الإنجليزي « بنتام » في كتاب « أصـول الشرائع » ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا ، تحت عنوان « الجرائم الشخصية » ما نصّه :

« النبيـذ في الأقاليم الشمـاليـة يجعـل الإنسـان كـالأبله ، وفي الأقـاليم الجنوبية يُصيّره كالمجنون ، ففي الأول يكتفى بمعاقبة الأوّل على السكر كعمل وحشي ، وفي الثانية يجب منع ذلك بطرق أشد . وقد حرّمت ديانة محمّد صلّى

الله عليه وآله جميع المشروبات ، وهذه من محاسنها »[٤] .

ويقول فولتير : « إنّ دين محمّد (ص) دين معقول وجدّي وطاهر ومحبّ للإنسانية . معقول لانه لم يتلوث بجنون الشرك والوثنية ، ولم يجعل لله شريكاً ولا شبيهاً ، ولم يبن أصوله على أسس أسرار متناقضة بعيدة عن العقل . وجدّي لانه حرّم القمار والخمر وسائر وسائل اللهو واللعب ، وأقر بمكانهن خمس صلوات في اليوم والليلة ، وطاهر ونزيه لانّه حدّد عدد النساء اللواتي كنّ يرتمين على فرش شيوخ آسيا في أربعة فقط . ومحبّ للإنسانية لانّه جعل الزّكاة ومعونة الآخرين أفضل من الحجّ ، وهذا كله من ملامح حقيقة الإسلام »[٥] .

ويقول المسيو « جول لابوم » : « كان العرب يفرطون في شرب الخمر ويتباهون بلعب القمار ، وكان الرجل يتزوّج ما شاء من النساء ويطلّق متى ما شاء ، وكنّ ـ النساء ـ يُحسبن من تركة الرجل وبعد موته يتزوجُهنّ أبناؤه من سواها . والإسلام نسخ كل ذلك »[٦] .

ويقول البروفيسور « ادوارد مونته » : « إن القرآن منع من التقرب بضحية الإنسان ، ومن قتل البنات ، واستعمال المسكرات ، ولعب القمار الذي كان متداولاً بين العرب . والتقدّم الذي حصل للبشرية نتيجة لهذه الإصلاحات كان من الكبر والعظمة بحيث جعل محمّداً (ص) من أكبر مريدي الخير للبشرية »[٧] .

---

(٤) تفسير الجواهر للجوهري الطنطاوي ١ : ١٩٦ .
(٥) بالفارسية : اسلام از نظر ولتر .
(٦) عن دائرة معارف القرن العشرين .
(٧) بالفارسية : أفكار وعقائد .

الإسلام وأنواع التمايز

كما أن المسائل العقائدية والفكرية في الإسلام بُنيت على أساس التوحيد ، كذلك يشكّل التوحيد البنية التحتية للمجتمع الإسلامي ، فالإنسانية في نظر الإسلام وحدة كبرى وكل البشر أعضاء مجتمع واحد . وعلى أساس تطوير فكري واسع يمكن نفي جميع عوامل التشتّت والإختلاف والتفرقة بين البشر في هذا المجتمع الكبير ، فإنّ هناك أواصر أُخوّة إنسانية وروابط أُلفة وعاطفة تربط بين جميع أفراد البشر على كثرتهم .

وحيث أن الإسلام تقدم بأُطروحة المجتمع الإنسانيّ الواحد على مقياس عالميّ ، لذلك لم يفتح أيّ حساب ولم يُعر أيّة أهمية لأُمور تشكل قومية خاصة وتسبّب في انفصال البشر وتمايز بعضهم عن بعض ، من مثل : اللغة والعنصر والوحدة الثقافية والإشتراك في الآداب والعادات والمراسيم والتقاليد والطقوس ، بل وصف هذه الأُمور بأنها عوامل تخلّ بوحدة المجتمع وتسبّب انفصال بعضه عن بعض ، وإنّ أول أساس للتعاون بين الأفراد والإحترام المتبادل فيما بينهم ، والذي ينبغي أن يسود المجتمع الإسلامي العالمي بل وبين كل أفراد الإنسان ومختلف فرقه ، ينبع من هذا النبع الصافي ، والإسلام يبني مجتمعه العالميّ على مثل هذا الأساس بنظرة واقعية ، ولكي ينكر ويشجب جميع أنواع التمايز ، ويؤكد على أن لا فضل لأيّ فرد على آخر بلونه أو نسبه أو عنصره أو لغته ، ركّز على أنّ جميع أفراد البشر خلقوا من عرق واحد ، وأن

الرجل والمرأة ، والأبيض والأسود ، والفقير والغنيّ ، والمتحضّر والوحشي يشتركون في المميزات الإنسانية الأصيلة ، وأن الوحدة تسودهم بالنظر إلى خلقتهم ، وأنهم يرجعون إلى أصل واحد : ﴿يا أيُّها النَّاس اتَّقوا ربّكم الّذي خلقكم من نفس واحدة﴾[1] وهكذا جعل « القومية » : « الناسيوناليزم » القوميّ والوطنيّ شيئاً موهوماً وأنهى كلّ تفوّق عنصري ، وأبطل كل فخر باللون أو اللغة ، وكذلك سائر المميزات التي لا أساس لها في أصل الخليقة .

إن الإسلام عدّ اختلاف الألوان والألسن من سمات قدرة الخالق جلّ وعلا ، ودعى الناس إلى دراسة هذا الموضوع والدقة في أن البشر الذين وجدوا من عنصر واحد وعرق واحد كيف تنوعت ألوانهم وصورهم وأصبحوا يتكلّمون بألسنة مختلفة ، نتيجة سلسلة من العوامل الطبيعية والتكوينية : ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾[2] و ﴿كان النّاس أُمة واحدة فبعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين﴾[3] .

وقد صرّحت هذه الآية بنقطة أن الفواصل والتفرقة الموجودة لم تكن موجودة في المجتمع البشريّ ، بل كانوا يتمتّعون بوحدة وتعاون تام .

وقد ذكَر الإمام علي عليه السلام بهذه الحقيقة في عهده التاريخي خطاباً إلى « مالك بن الأشتر النخعي » :

« وأشْعِر قلبَكَ الرحمةَ للرّعيّة والمحبّة لهم واللطف بهم ، ولا تكونَنّ عليهم سبُعاً ضارياً تغتنم أكلَهم ، فإنّهم صنفان : إما أخٌ لك في الدّين ، أو نظير لك في الخلق »[4] .

وبهذه الرؤية الواسعة يُعتبر مختلف العناصر من أعضاء المجتمع عند

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١ .
(٢) سورة الرّوم ، الآية : ٢٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢١٣ .
(٤) نهج البلاغة : ٤٢٧ ، ط . صبحي الصالح .

الإسلام بمختلف ألسنتهم وثقافاتهم .

ثم إن اتّحاد الأفراد في ظل الوحدة الفكرية والروحية والعقيدية وفي الأهداف سيبقى ـ هذا الإتّحاد ـ ثابتاً ، بل لا تبقى أيّة وحدة ثابتة ومنتظمة إلاّ في ظلال العقيدة . فلو كان مجتمع ما فاقداً للمحور الفكري والعقائدي كانت روابط أُلفتهم هيّنة متزلزلة ، فعند التناقص مع المنافع المادية ستتبدل تلك الوحدة ـ لو كانت ـ إلى اختلاف أو نفاق . وعليه فانّ أقوى وأثبت الروابط بين الأُمم والشعوب هي الرابطة الدينية والمذهبية ، والتي تربط مختلف الطبقات والعناصر والقوميات بعضهم ببعض على أحسن الوجوه .

وإنّ الإسلام قد ضمن ترابط جميع أفراد البشر بهذه الوسيلة الفكرية ، وبذلك قد كسّر أغلال الإختلالات والإختلافات وأيّ تشتّت وتفرّق ، وفي دعوته إلى توطيد أُسس الوحدة دعا أفراد المجتمع المؤمن إخوة لدين واحد ، وانّ رابطة الأُخوة من أوثق الروابط بين أفراد البشر وأكثرها طبيعيةً ، ورابطة الأبوة والبنوة وإن كانت أقوى من رابطة الأخوة لكن لا مساواة بينهما بالنظر إلى مراتب الأكرام والشخصية .

إذن فرابطة الأُخوة مظهر كامل للعلاقة القلبية الشديدة بين فردين من البشر ، يعيشون في مستوى وأفق واحد تقريباً . ولهذا فالقرآن في دعوته هذه يريد أن يثبّت أسمى مراتب المحبة المتبادلة بين المسلمين ولذلك فهو يدعوهم أخوة بعضهم لبعض ، وبهذا التعبير يكون قد هدى أفراد المجتمع الإسلامي إلى ألطف صداقة وأجمل صورةٍ للمساواة بينهم .

وليست هذه الأُخوة الدينية والمذهبية عنواناً تشريفياً ، بل إنّ الهدف من تشريع هذا العنوان هو أن يقبل كل مسلم على القيام بتكاليف الأخوة بالنسبة إلى إخوته في الدين .

لا ريب في أن العقيدة هي أغلى وأحبّ شيء عند المعتقد بها ، فهذا الترابط بين أفراد المسلمين الذي ينبع من الوحدة الروحية والعقيدية عندهم هو أعلى وأعمق حتى من الأخوة الطبيعية لديهم . حينما يشترك شخصان في هدف واحد وتسودهما الوحدة الفكرية فإنّهما سوف يكونان أقرب من الأُخوة في النسب

بعضهم لبعض ، فإن أقرب القرب هو قرب القلوب .

﴿إنّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتّقوا الله لعلّكم تُرحمون﴾(٥) .

وروي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : « «إنّما المؤمنون في تراحمهم وتعاطفهم . بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمّى والسهر »(٦) .

إن الإسلام دين الحرية والعدالة ، الحرية عن سلطة الظالمين الجبارين الذين يستخدمون القوى الفعّالة البشرية في سبيل غرورهم وأغراضهم الشخصية ، ويذهبون بشرفهم وماء وجوههم وأموالهم وأنفسهم ويجعلونهم عبيداً يخضعون لميولهم اجباراً وصغاراً . وفي الأنظمة الإستبدادية والديكتاتورية والرأسمالية والعماليّة « البروليتارية » يحمّلون الناس هكذا عبودية ، ويحملون المجتمع قهراً على التبعية من القوانين والمقررات المخالفة للحقّ والعدالة .

والإسلام إذ يحصر شؤون القدرة في ذات الله المقدّسة ، يحرّر الناس من قيد أسر الطغاة الجبّارين ، وعن رقّ العبودية ، كي يتمكّنوا من أن يصلوا إلى الحرية الواقعية ، تلك الحرية المطلقة التي لا يجدونها في ظلّ أي نظام سواه .

إن الإسلام يريد أن يُشعر البشر في قرارة نفسه بشرف الإنسانية ، ولا يتحقق هذا الإحساس إلاّ في ظلّ تساوي جميع أفراد المجتمع في مقام العبودية لله تعالى ، إذ لا يتمكّن أحد من أن يجعل أفراد المجتمع يخضعون لإرادته ويطيعونها مكرهين ، وأن يتظاهر أمام الآخرين وكأنه أرفع منهم ويتولّى شؤونهم بغير رضىً منهم .

إن الإسلام اعتبر القيم الإنسانية ، وإن هدفه الأوسع هو الحفاظ على الحقوق الطبيعية للبشر وتثبيت العدل في كل شؤون الحياة الفردية

---

(٥) سورة الحجرات ، الآية : ١٠

(٦) سفينة البحار ١ : ١٣

والإجتماعية ، إن القانون في المجتمع الإسلامي قد ضمن أسمى تساوٍ لعامّة الناس ، فالكلّ سواسية أمام قانونه .

لو كان الإسلام يركز على العنصر أو القومية أو الوطنية أو على عنصر خاص لم يكن ينال كل هذا التقدّم المشرق والمدهش ، وإن هذه الميّزة هي رمز هذا التقدّم السريع لهذا الدين حيث نفذ في فترة أقل من قرن من الزمان في أكثر نقاط العالَم يومئذٍ ، وفي جميع النقاط واجهه الناس كحركة معنوية باستقبال حارّ ، واتّجهت إليه القوميات والأمم والشعوب المختلفة اتّجاهاً خاصاً .

والتاريخ يُبدي لنا بوضوح أن هناك في كل عصر عقائد وأفكار موهومة ولا أساس لها ، يمكن ان نعدّ من أعمقها وأهمّها التفوّق العنصري ، والقومية ، وسوء الفهم للعقائد الدينية والأحاسيس المذهبية ، كانت تمنع عن تحقق الوحدة بين المجتمعات الإنسانية وكانت دائماً تُشعل نيران الحروب بين مختلف الفرق البشرية ، وكان لها دور مهم في تأجيج المنازعات والمماطلات الواسعة المتطاولة دائماً .

والإسلام قبل أن يُعير أهمية لعوامل الخلاف بين المجتمع اعتبر عوامل الوحدة في الإنسانية والإيمان أصلاً ، فهو يقول لليهودي والمجوسي والنصراني : ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله**﴾[٧] .

واليوم على الأمم والشعوب التي تريد الوحدة والعدالة والتحرّر من يد المستعمر ، والإنطلاق من ضغط التمييز العنصري وغيره ، أن تبحث عن أمنياتها في ظل أنظمة الإسلام . ففي ظل الإسلام تتحقق وحدة الأمم ومساواة أفراد البشر ، وبإمكان الفرق والعناصر البشرية البيضاء والسوداء والصفراء والحمراء أن تعيش في مساواة الإنسانية وبحرّية تامّة .

إن التفاضل بين الناس في نظر الإسلام إنما يبتنى على عمادين أساسيّين هما : العلم والعمل ، وإنما يدور الإمتياز بينهم فيه حول محور الفضائل

---

(٧) سورة آل عِمْرَان ، الآية : ٦٤ .

الأخلاقية وطهارة الروح . إن الإسلام أقرّ قاعدة الشرف والشخصية على أساس التقوى والخوف من الله تعالى ، ولم يعترف لأحد بأيّة فضيلة أو مزيّة عداه : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾(٨) .

وأعلن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله بصراحة تامّة يقول : « ألا لا فضل لعربيّ على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلاّ بالتقوى » .

وحينما فتح رسول الإسلام مكة خاطب جماعة المتكبرين الذين كانوا يفخرون ويتمايزون باللغة والعنصر ، فقال لهم : « الحمد لله الذي أذهب عنكم نخوة الجاهلية وكِبرها » .

وقال رجل للرّضا عليه السلام : « والله ما على وجه الأرض رجل أشرف منك آباءً . فقال عليه السلام : التقوى شرّفهم وطاعة الله أحاطتهم »(٩) .

كان هذا الرجل يريد القول بالتفضيل بالنَسَب للإمام ، ولكنّ الإمام أنكر ذلك وذكّره بفضيلة التقوى في الإسلام .

وقال له آخر : « أنت والله خير الناس » فقال عليه السلام : « لا تحلف يا هذا ، خيرٌ مني من كان أتقى لله تعالى وأطوع له ، والله ما نُسخت هذه الآية : ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾(١٠) .

والتقوى حرية وليست رقيّة أو عبودية ، فان ذلك يحرّم على الإنسان موهبة السعادة بينما التقوى درع الروح وصون للإنسان ويمنحه الحريّة المعنوية التي تحرّره من قيود رقّية الهوى ، ويضع عن رقبته أغلال الشهوة والغضب والحرص والطمع . والتقوى في الحياة الإجتماعية أيضاً تمنح الفرد حرية فيه ، فالمتقيّد بقيد رقيّة المال والجاه لا حرية له في حياته في المجتمع أيضاً .

ويقول مولى المتقين علي عليه السلام : « فانّ تقوى الله مفتاح سداد وذخيرة معاد ، وعتق من كل ملكة ونجاة من كل هلكة ، بها ينجح الطالب

---

(٨) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .
(٩) تفسير البرهان ٤ : ٢١١ .
(١٠) تفسير البرهان ٤ : ٢١١ .

وينجو الهارب وتنال الرغائب »[١١] .

في ذلك العالَم المظلم الذي كان فيه التنازع الطبقي والعنصريّ قائماً على أشدّه بين الناس ، وكانت الإمتيازات المضادة للعقل والفضيلة والحرية رائجة شائعة بمقياس واسع ، وفي أيام كان فيها الضعفاء والفقراء محرومين عن جميع حقوقهم الفردية والإجتماعية وكان عامة الناس فيها يتخبّطون تحت مخالب الأشراف والأمراء الدّمويّين . . . في تلك الأيام ألغى قائد الإسلام العظيم وبشهامة لا نظير لها كل الإمتيازات الموهومة والسنن الخاطئة ، وأعلن المساواة التامّة لجميع الأفراد ، وأعاد للناس حريتهم المطلقة والمعقولة في ظلّ عبودية الله سبحانه وتعالى ، حتى تأيّدت في ظلّ قوانين الإسلام العادلة تلك الطبقات الفقيرة والمحرومة في المجتمع والذين لم تكن لهم جرأة على أيّ ردّ فعل أمام إرادة الكبراء والأشراف المترفين ، حتى أصبحوا يتماشون مع أولئك الرؤساء والكبراء جنباً إلى جنب .

أما الذين يتصورون أن سائر المدارس والمبادىء الإجتماعية تستطيع أن تدافع عن المعذّبين والمحرومين والمظلومين في المجتمع البشري ـ كما فعل الإسلام ـ وتجعلهم يكافحون الطغاة والبغاة والظالمين والجبّارين . . . هؤلاء في وهم فاضح ، وإنّما لم يدركوا من الإسلام شيئاً .

حقاً إن الإسلام قد أحدث أكمل صورة من العدالة الإجتماعية وأكثرها إنسانية ، بحيث لم يقدر أي نظام أو مبدأ إجتماعي على أن يقوم بمثله ، وحتى أن الشيوعيين أعداء الدين يعترفون بالدور الأساس والمؤثر لتعاليم الإسلام في تحرير الشعوب وإنقاذ الأمم ، بصراحة تامّة .

فقد كتبت مجلة حزب توده الإيراني تقول : « إن ظاهرة الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي من الوقائع التاريخية الأساسية التي غيّرت صورة الحضارة البشرية ، وتركت آثاراً عميقة في مسيرة التطوّر لما بعدها . إن هذه الواقعة العظمى أي ظهور الإسلام الذي اتّسعت فتوحاته في أقل من قرن حتى

(١١) نهج البلاغة : ٣٥١ ، ط . صبحي الصالح .

ساحل السند وجيحون من جانب وإلى ساحل « لوآر » من جانب آخر ، تملأ باباً آخر غريباً من كتاب حياة البشرية .

لقد كانت في جزيرة العرب مراكز أُخرى لنشر العقائد الدينية اليهودية أو المسيحية ، وكان عرب مكة وقبائلها وثنيّين ، ومكّة مركز تجارتها واستغلال المرابين بها ، ومركز الشعور القومي العربي (؟!) ومركز تضارب الأديان المختلفة وتطور النظام القبلي إلى النظام الإقطاعي الفئودالي (؟!) .

وانتشر الإسلام في البداية بين صغار الكسبة والفلاحين والعبيد ، وكان يشكّل حركة ديمقراطية ضدّ استغلال الربويّين الكبار ، ولهذا اضطر إلى ترك مكّة إلى المدينة .

إن دين الإسلام كان يحتوي من ناحية على خصائص سائر الأديان أيضاً ، ولكنه من جانب آخر كانت فيه جوانب حيويّة ومادّية ، فاجتنابه عن الرهبنة ، واتّجاهه إلى التساوي بين العناصر والقبائل ، والتساوي النسبيّ بين حقوق الرجل والمرأة ، ودفاعه عن العبيد والفقراء وأبناء السبيل ، وسذاجة أُصوله وبساطته ، كل ذلك من مميّزاته عن سائر الأديان ، والتي تمنحه عنوان نهضة إجتماعية متحركة وحيوية .

نزل الإسلام على رأس الحكام الدّمويّين والمغرورين كأقوى ضربة دامغة ، وتلقاه الفلّاحون وصغار الكسبة والتجار المدنيين كرحمة وإنقاذ . وأورد الإسلام ضربته القوية في فرصة مناسبة على الجسد العظيم ولكنه الواهي للامبراطوريتين ، فسقطتا من تلك الضربة القاضية ، ثم شكّل هو امبراطورية عظمى من حدود الصين حتى حدود إسبانيا والأندلس »(١٢) .

وحينما بلغ علياً عليه السلام تقرير بأن أغنياء البصرة قد رتّبوا لعامله عليها « عثمان بن حنيف » مجلس ضيافة لتكريمه ، ثقل عليه (عليه السلام) أن يتوثّق بين عامله وبين طبقة الأشراف في المدينة علاقات خاصة تستتبع احرازهم لامتيازات خاصة تزيد في قدرتهم . ولذلك كتب إليه كتاباً اعترض فيه عليه

---

(١٢) بالفارسية : ما هنامة مردم = مجلة الشعب العدد ٢ ، السنة الثالثة .

ولامه بشدة[١٣] .

إن الإسلام في كفاحه ضدّ التمييز العنصري من أكثر مبادىء العالم تقدّمية . واليوم وإن كان نداء التساوي القانوني بين البيض والسود نداءً مرتفعاً في كافة أنحاء العالَم ، ولكن بين القول والعمل فواصل كثيرة ، والتمييز بمختلف أشكاله وصوره قائم على قدم وساق كما كان في العصور المظلمة ، فما فائدة كل هذه العناوين الخدّاعة بالمساواة والحرية وخلفها يختفي الواقع المُرّ ، وهل لنا مع كل هذه الفجائع والإمتيازات الجائرة أن نصف الأمم المتحضرة اليوم بأنها تنادي للحرية حقاً ؟!

إن « إعلان حقوق الإنسان » الذي صودق عليه بعد الثورة الفرنسية ، وإعلان حقوق الحرية والمساواة ، الذي صادق عليه جميع الدول المقتدرة ، إنّما يُنَفّذ ما يوافق منها مع مصالحهم ومنافعهم الخاصة ومع ميولهم وأهوائهم ، وإلاّ فإنهم سوف يتخلّون عنهما بمختلف الحجج والمعاذير .

لا يزال من المشكل أن يدرك كثير من شعوب الدول المتحضّرة أن اختلاف الألوان والعناصر لا يشكل فضلاً وتفوقاً . ولم يشكل « التمييز العنصريّ » في طول تاريخ الإسلام مسألة أو مشكلة ، وما زال ولا يزال السود أو الملوّنون يشتركون في أيّ مجتمع أو مجمع إجتماعي إسلاميّ دينيّ من دون أيّ شعور مزاحم ، وهم يتمتّعون بكافة الحقوق في جميع الشؤون الإجتماعية .

إن قائد الإسلام العظيم الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله قد أبدى هذه المساواة عملياً في ذلك العالَم المظلم قبل أربعة عشر قرناً ، ومن أجل تحقيق ذلك عملياً زوّج ابنة عمّه من زيد بن حارثة مولاه .

وروى الكليني في « الكافي » بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام ، قال : « إن رجلاً من أهل اليمامة يقال له « جويبر » أتى رسول الله صلّى الله عليه وآله منتجعاً الإسلام ، فأسلم وحسن إسلامه . وكان رجلاً قصيراً دميماً محتاجاً عارياً ، وكان من قباح السودان ، فضمّه رسول الله لحال غربته وعراه ، وكان

---

(١٣) راجع نهج البلاغة : ٤١٦ ، ط . صبحي الصالح .

يجري عليه طعامه صاعاً من تمر ، وكساه شملتين ، وأمره أن يلزم المسجد ويرقد فيه بالليل . فمكث بذلك ما شاء الله .

حتى كثر الغرباء ممّن يدخل في الإسلام من أهل الحاجة بالمدينة ، وضاق بهم المسجد ، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيّه : أن طهّر مسجدك ، وأخرج من المسجد من يرقد فيه بالليل ، ومُر بسدّ أبواب من كان له في مسجدك باب ، إلّا باب عليّ عليه السلام ومسكن فاطمة عليها السلام ، ولا يمرنّ فيه جنب ، ولا يرقد فيه غريب . . .

ثم إن رسول الله صلّى الله عليه وآله أمر أن يُتّخذ للمسلمين سقيفة . فعُملت لهم ، وهي الصُفّة ، ثم أمر الغرباء والمساكين أن يظلّوا فيها نهارهم وليلهم . فنزلوها واجتمعوا فيها . فكان رسول الله يتعاهدهم بالبرّ والتمر والشعير والزبيب إذا كان عنده ، وكان المسلمون يتعاهدونهم ويرقّون عليهم لرقة رسول الله ، ويصرفون صدقاتهم إليهم .

وإنّ رسول الله نظر إلى جويبر ذات يوم برحمة منه له ورقة عليه فقال له : يا جويبر لو تزوّجت امرأة فعففت بها فرجك ، وأعانتك على دنياك وآخرتك ؟

فقال جويبر : يا رسول الله بأبي أنت وأُمي مَن يرغب فيّ ، فوالله ما من حسب ولا نسب ولا مال ولا جمال ، فأيّة امرأة ترغب فيّ ؟

فقال له رسول الله : يا جويبر إن الله قد وضع بالإسلام من كان في الجاهلية ذليلاً ، وأذهب بالإسلام ما كان من نخوة الجاهلية وتفاخرها بعشائرها وباسق أنسابها ، فالناس اليوم كلهم أبيضهم وأسودهم وقرشيّهم وعربيّهم وعجميّهم من آدم إنّ آدم خلقه الله من طين ، وإن أحبّ الناس إلى الله عزّ وجلّ يوم القيامة أطوعهم له وأتقاهم ، وما أعلم - يا جويبر - لأحد من المسلمين عليك اليوم فضلاً إلّا لمن كان أتقى لله منك وأطوع .

ثم قال له : انطلق - يا جويبر - إلى زياد بن لُبيد ، فانّه من أشرف بني بياضة حسباً فيهم ، فقل له ، إني رسول رسول الله إليك وهو يقول : زوّج جُويبراً ابنتك الزلفاء .

فانطلق جويبر برسالة رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى زياد بن لُبيد وهو

في منزله وجماعة من قومه عنده ، فاستأذن ، فأعلم فأذن له ، فدخل وسلّم عليه ، ثم قال : يا زياد بن لبيد ، إنّي رسولُ رسولِ الله إليك في حاجة لي ، فأبوحُ بها أم أُسّرها إليك ؟ فقال له زياد : بل بُح بها فانّ ذلك شرف لي وفخر .

فقال له جويبر : إن رسول الله يقول لك : زوّج جُويبراً ابنتك الزّلفاء .

فقال له زياد : أرسول الله أرسلك إليّ بهذا ؟

فقال له : نعم ، ما كنتُ لأكذب على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم .

فقال له زياد : إنّا لا نُزوّج فتياتنا إلاّ أكفاءنا من الأنصار ، فانصرف يا جُويبر حتى ألقى رسول الله فأخبره بعذري .

فانصرف جويبر وهو يقول : والله ما بهذا نزل القرآن ولا بهذا أظهرت نبوّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم .

فسمعت مقالته الزّلفاء بنت زياد وهي في خدرها ، فأرسلت إلى أبيها : أُدخل إليّ . فدخل إليها فقالت له : ما هذا الكلام الذي سمعتهُ منك تحاور به جُويبر ؟

قال لها : ذكر لي : أن رسول الله أرسله وقال : يقول لك رسول الله : زوّج جويبراً ابنتك الزّلفاء . فقالت له : والله ما كان جويبر ليكذب على رسول الله بحضرته ، فابعث الآن رسولاً يردّ عليك جويبراً .

فبعث زياد رسولاً فلحق جويبر ، فقال له زياد : يا جويبر مرحباً بك ، إطْمئِنّ حتى أعود إليك .

ثم انطلق زياد إلى رسول الله فقال له : بأبي أنت وأُمّي ، إنّ جويبراً أتاني برسالتك وقال : إنّ رسول الله يقول لك : زَوِّج جويبراً ابنتك الزلفاء . فلم ألِن له بالقول ، ورأيت لقاءك . ونحن لا نزَوّج إلاّ أكفاءنا من الأنصار !

فقال له رسول الله : يا زياد ، جويبر مؤمن ، والمؤمن كفو المؤمنة ، والمسلم كفو المسلمة ، فزوّجه يا زياد ولا ترغب عنه .

فرجع زياد إلى منزله ودخل على ابنته فقال لها ما سمعه من رسول الله صلّى الله عليه وآله . فقالت له : إنك إن عصيتَ رسولَ الله كفرت ، فزوِّج جُويبراً .

فخرج زياد فأخذ بيد جويبر ثمّ أخرجه إلى قومه ، فزوّجه على سنّة الله وسُنّة رسوله ، وضمن صداقه . فجهّزها زياد وهيّأوها ، ثم أرسلوا إلى جويبراً فقالوا له ، ألك منزل فنسوقها إليك ؟ فقال : والله ما لي من منزل . قال : فهيّأوها وهيّأوا لها منزلاً ، وهيّأوا فيه فراشاً ومتاعاً . وكَسَوا جويبراً ثوبين . وأُدخلت الزّلفاء في بيتها وأُدخل جويبر عليها مُعتّماً . . »[١٤] .

وهكذا زوّج رسول الله صلّى الله عليه وآله ابنة أحد أكبر أشراف القبيلة برجل أسود فقير لا جمال له سوى إيمانه ومعرفته بالله تعالى .

وكتب العالم الفرنسيّ الشهير الدكتور « غوستاف لوبون » يقول : « إن المساواة في المسلمين تبلغ إلى درجات الكمال ، هذه المساواة التي تذكر في أوروبا بكل حرارة وهياج وهي وِردُ على ألسنة مختلف الطبقات من الناس ، ولكن لا نرى منها أثراً في الواقع الخارجي سوى في بطون الكتب . . . كانت موجودة بين المسلمين عمليّاً وفي سلوك الشرقيّين . وهذا الخلاف الشديد الذي نراه بين مختلف طبقات أصحاب الثورة الأوروبية (الفرنسية) لا نرى له نظيراً بين المسلمين ، فقد ألغى الإسلام التمايز الطبقي والأسري والعائلي والشخصي بصورة كلية ، والمسلمون كلهم في نظر رسول الإسلام إخوة متساوون .

قامت في العالَم العربيّ هذه الشخصية التي جمعت مختلف القبائل تحت كلمة واحدة ، وربطتهم وقيّدتهم بسلسلة من القوانين والأنظمة الخاصة ، فهم من أيّ عنصر وبلد كانوا ليس بعضهم أجنبياً على الآخرين منهم ، فللمسلم الصينيّ بإسلامه من الحقوق في البلد الإسلاميّ نفس ذلك الحقّ الذي يكون للمسلم العربيّ ، وإن كان بينهم بالنظر إلى عناصرهم وقومياتهم اختلاف كثير ، ولكنهم لهم بدينهم ارتباط معنويّ خاصّ يسهّل عليهم اجتماعهم تحت لواء

---

(١٤) الكافي ٥ : ٣٣٩ ، الحديث الأول من الباب ٢١ من الكتاب ١٨ . وعنه في مفتاح الكتب الأربعة ١١ : ١٣٥ - ١٣٩ .

واحد »[١٥] .

وكتب الدكتور « لوبلاي » يقول : « لم يظهر في مجتمع المسلمين ما أصيبت به أوروبا من النتائج والآثار السيّئة والمحاذير الجانبية للأنظمة الإصلاحية لأوضاع العمّال والكادحين ، فانّ بين المسلمين أنظمة أساسية توطّد فيهم أسس التعايش السلميّ بين الأغنياء والفقراء ، ويكفي أن نقول : إن أولئك الذين تدّعي أوروبا أنّ عليهم أن يتعلّموا ويتثقّفوا وأن تربّيهم هي بتعاليمها وثقافتها ، عليها أن تتعلم منهم . فليس في الإسلام طبقات ممتازة ولا مناصب موروثة ، وإنّ أصول الأنظمة السياسية في الإسلام ساذجة بسيطة ، وأنّ كلّ من يُساسون بتلك الأنظمة السياسية من الوضيع والشريف والغنيّ والفقير والأسود والأبيض متساوون جميعاً »[١٦] .

وكتب « جوب » يقول : « للإسلام وحده لا يزال القدرة على أن يخدم الإنسانية خدمة كبيرة وعُليا ، وليس هناك أيّ نظام أو مبدأ أو منظمة أو فرقة سوى الإسلام يستطيع أن يلمع بانتصار كبير في الجمع بين العناصر البشرية المختلفة في جبهة واحدة على أساس المساواة . إن المجتمع الإسلامي الكبير من أفريقيا والهند وأندونيسيا وهذا المجتمع الصغير في الصين وذلك المجتمع الصغير في اليابان كلّ ذلك يدلّ على أنّ للإسلام القدرة على أن ينفذ في كلّ هذه العناصر والطبقات المختلفة والمتنوّعة . وحينما نزن اختلاف الدول الكبرى الشرقية والغربية بميزان التقييم نجد أن لا علاج لاقتلاع جذور الخلافات فيهم سوى الإلتجاء إلى الإسلام » !

إن تعاليم الحجّ في الإسلام هي الأخرى مبنيّة على أساس وحدة الفكر والعمل أيضاً ، فلا يُرى هناك أيّ أثر للإمتيازات الظاهرية ، فالكعبة تجتذب إليها جميع الفرق الإسلامية المختلفة بجاذبية كبرى عجيبة ، ويتبع عامة الناس حولها قانوناً عجيباً على قدم المساواة ، ويقوم بالعبادة وبأداء هذه الشعائر العظيمة حولها الأبيض والأسود والأحمر والأصفر في صف واحد من دون أيّ

(١٥) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب : ٥١٦ ، ٥١٧ .
(١٦) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب : ٥١٥ ، ٥١٦ .

ميزة لبعضهم على بعض .

كتب « فيليب حتّي » أستاذ جامعة « برينستون » يقول : « أصبحت فريضة الحجّ في الإسلام على طول العصور والقرون من العوامل الإجتماعية المهمة ، فهي من أكبر أسباب الوحدة في المجتمع بين الأمم الإسلامية ، إذ يجب على كل مسلم (مستطيع) أن يقوم بهذه السفرة المقدّسة في العمر مرّة واحدة على الأقل ، ولهذا الإجتماع العظيم الذي يشارك فيه المؤمنون من كافة أنحاء الأرض ويدعو بعضهم بعضاً إخواناً ، أثر عظيم لا يمكن إنكاره .

فهناك عند بيت الرّبّ يتصافح الزنوج والبربر والصينيّون والإيرانيون والأتراك والهنود والعرب السوريون والأردنيّون واللبنانيون مع غيرهم ، غنيّهم وفقيرهم وعاليهم ودانيهم ، يتصافحون تصافح الأخوة ، وينطق جميعهم بكلمة الشهادتين معاً . والظاهر أن الإسلام هو الوحيد بين كلّ أديان العالَم الذي رفع الحدود والفواصل بين مختلف الدماء والعناصر والقوميات ، والذي بذلك أوجد وحدة كبرى في اطار المجتمع الإسلامي ، بحيث جعل الخط الفاصل الوحيد بين أفراد البشر في نظر الإسلام مسألة الكفر والإيمان فقط .

ولا شك في أنّ هذا الإجتماع العظيم في موسم الحجّ يؤدي خدمة كبرى بهذا الصدد ، وينشر الدين الإلهيّ بين ملايين البشر الذين يعيشون في أماكن مختلفة »[١٧] .

ومن المؤسف اليوم أن الوحدة الإسلامية قد تصدّعت كثيراً فيما بين بعض الدول الإسلامية تحت ضغط مختلف الهتافات العنصرية والأحاسيس القومية ، وبدت اتّجاهات خاصة إلى الجهات القومية والوطنية التي لا تنسجم مع روح الإسلام أبداً .

وفي النظام القضائي في الإسلام نشاهد عدة مشاهد من المساواة بصورة واضحة تماماً ، مما لا يوجد في أسلوب الجهاز القضائي في هذا العالَم المتحضّر اليوم نموذج واجد منه ، مع أن المساواة بين جميع الأفراد أمام القانون

---

(١٧) بالفارسية : اسلام آز نظر گـاه دانشمندان غرب : ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

كانت من أهداف العالَم المتحضّر في النظام الإجتماعي وهو يسعى للوصول إليه ويحاول .

إن الشُعل المتّقدة التي أوقدها الإسلام في باطن ضمائر أفراده لم تنطفىء ولم تخمد حتى في أحلك أيام التاريخ سواداً وظلاماً ، لان يقظة الضمير لديهم كانت قد بلغت الحدّ النهائي من الدقة والعناية .

يُحكى أنّ الخليفة هارون الرشيد كان عليه في قضيّة أن يحلف في حضور القاضي ، وأن يشهد الفضل بن الربيع له ، ولكنّ القاضي لم يقبل شهادته ، فغضب الخليفة وقال : لِمَ لَمْ تقبل شهادته ؟ قال القاضي : سمعته يقول لك : أنا عبدك . فان كان صادقاً فلا تقبل شهادة العبد لمولاه ، وإن كان كاذباً فلا تقبل شهادة الكاذب !!

واكترى الخليفة العباسي المنصور جِمالاً لسفر الحجّ وبعد السفر وأداء شعائر الحجّ امتنع من أن يدفع لهم كراية الجِمال بمختلف الحجج والمعاذير ، فشكاه الجمّالون إلى قاضي المدينة ، فأحضر القاضي المنصور وأجلسه إلى جانب الجمّالين وحاكمه وحكم عليه بدفع الكراية وأخذها منه ورفعها للجمالين في المجلس فوراً .

كتب العالم الفرنسي الشهير الدكتور « غوستاف لوبون » بشأن الأمور القضائية في الإسلام يقول : « إن الأمور القضائية وترتيب المحاكمات في المسلمين بسيط ساذج ومختصر جداً ، فالذي يُعيّن من قبل أمير العصر بمنصب القضاء يحاكم جميع الدعاوى ويفصل فيها الحكم شخصياً ، والحكم يكون حكماً قطعياً ، يُحضر طرفا الدعوى فيشرحون قضاياهم ويقيمون دلائلهم ، ثم يقضي القاضي ويصدر الحاكم في نفس تلك الجلسة من دون أيّ تأخير .

اتّفق لي أن حضرت إحدى المحاكم في مراكش والقاضي كان يستمع إلى الدعاوي والأدلة فشاهدت المجلس وقضاء القاضي ، كان القاضي جالساً في مكان متصل بدار الحكومة من دون حصار حوله ، وكل واحد من طرفي الدعوى وشهوده حوله وبيّن كل واحد منهم مطالبيه في ألفاظ ساذجة مختصرة ، وإذا كان أحدهم يحكم عليه بعقوبة السياط كان الحكم ينفّذ في نهاية الجلسة

وفي نفس المكان .

ومن أكبر الفوائد في هذا الأسلوب من القضاء أن لا تتلف أوقات أصحاب الدعوى ، ولا يخسر هنا أحدهم تلك الخسائر الباهظة التي نراها اليوم على أثر التعقيدات المحكمية الكثيرة اليوم ، ويُنفّذ بالعدل والإنصاف كل الأحكام الصادرة بصورة ساذجة ومن دون تشريفات كثيرة » .

إذا اطمأنّ أفراد المجتمع إلى أنّ القانون الذي يسودهم قانون إلٰهي من قبل إلهٍ عادل ، وأنّ الأمير المتعهد بإدارة أمورهم لا يتمتّع إلاّ بحقوق متكافئة لحقوقهم ، وأن القاضي المستند إلى مسند القضاء يأخذ حكمه من القانون الإلٰهي ولا يستلهمها من أهوائه حينئذٍ تجفّ جذور القلق والإضطراب الناتج من العدوان على العدل ، ويتمتّع جميع أفراد المجتمع بطمأنينة وأمان كامل تام .

فلو أراد العالَم أن يمنع من العدوان وأن ينجو بنفسه من مخالب التمييزات المختلفة وأن يعيش في ظل طمأنينة وسلام ، فعليه أن يستلهم من تعاليم الإسلام القيّمة وأصوله وأنظمته الإجتماعية والسياسية . إن مختلف الأحلاف في العالَم اليوم بما أنها تدور في دائرة محدودة حول محور القومية أو المنطقة الجغرافية أو العنصر ، فإنها لا يمكنها أن تحلّ مشاكل العالم اليوم ، وأن تربط بين جميع الأمم على الأرض بما لهم من خلافات فيما بينهم ، وأن تدعوهم إلى توحيد الأفكار والتعاون من أجل بناء عالم جديد على أساس العدالة والمساواة . بل إنّ الإحساس القوميّ الحديث الذي يُدعم في كثير من الدول هو منشأ كثير من الإختلافات والنزاعات والتفرقات الأكثر بين أمم العالَم .

يبيّن هذه الحقيقة أحد أساتذة جامعات أمريكا الدكتور « لويس سنايدر » يقول : « لقد ثارت في ظل « القومية الحديثة » نزاعات كثيرة على الحدود التاريخية والطبيعية فيما بينهم ، واضمحلّت المناسبات الثقافية والإقتصادية القديمة فيما بينهم وانجرّت نتيجتها (فقدان الأمان) في كثير من الموارد إلى تحديد الحرية الفردية ، وزيادة التسلّح وتأزّم العلاقات الدولية .

إن الإستقلال والسيادة الذاتية وان كان قد توسع توقّعها في هذه العشرة الأخيرة من عمر القرن العشرين وأصبحتا تعدّان في عداد المقدّسات ، لكنهما

ليستا سبيلاً يُطْمأنّ إليه إلى الحرية الفردية وإلى سلام دوليّ أكثر طمأنينة »[١٨] .

إنّ الوسيلة الوحيدة التي بإمكانها أن تجمع الجميع تحت راية واحدة وأن تقدّم هذه الخدمة الثمينة إلى المجتمع البشري إنما هي الوحدة التي تدور حول محور الإيمان بالله والفضائل الروحية والأخلاقية ، ففي هكذا وحدة تستيقظ روح الأخوة والصداقة الصحيحة وترتبط القلوب والأفكار ، ولا تقدر الإمكانيات المادية والإختلافات القومية والجغرافية والعنصرية أن تدخل عليها خللاً أو وهناً .

وبحكم الإشتراك في الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد والإعتقاد بالأصول الإسلامية الأساسية والإحساس بالمسؤولية الباطنية أمام التكاليف الإنسانية ، يتمتّع جميع أفراد المجتمع في المجتمع الإسلامي بمزايا حياة هادئة متعاونة ومتواسية ومع تفاهم عميق فيما بينهم بما فيهم من أنواع العناصر واللغات والرسوم والعادات والمراسيم المحلية المختلفة ، ومع كل الإختلاف العميق في مختلف المستويات .

إن الإسلام جدّ جاد في تصعيد المجتمع إلى المستوى الإنساني الرفيع والعالي ، ويريد أن يكون التعاون والوحدة في المسلمين فيما بينهم نافذاً على أساس المحبة والعواطف ، وأن تكون قلوبهم ترتبط فيما بينهم بالمشاعر الإنسانية الطاهرة والنزية . إن الله لا يخلق أفراد البشر مريداً أن يكون فيما بينهم فواصل عميقة ، أو أن تنفصم عواصمهم وعلاقاتهم فلا يعرف بعضهم بعضاً :

﴿يا أيُها النّاس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لِتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[١٩] .

إن الأخوة الإسلامية ليست مسألة فارغة جوفاء ، بل هي واقعية قيّمة يجب أن تصبح منبعاً لأيّ نوع من العواطف والمحبة المتبادلة . إن تشكيل كل هذه المجتمعات وتواجد القبائل وأنسابها إنّما هو ليتمكّن الإنسان من إن يقرّر علاقاته

---

(١٨) بالفارسية : جهان در قرن بيستم : ٣٤ ، ٣٥ .
(١٩) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .

بسائر الأفراد فيتكامل في ظل تلك العلاقات .

واليوم مع أنه على أثر نفوذ الأفكار الغربية المغلوطة إلى الأجواء الإسلامية قد توسّعت وانتشرت فيها الروحية المادية والنفعية ، مع ذلك لا زالت تضلّل على أجواء حياة كثير من المسلمين العواطف الإنسانية والفضائل الأخلاقية والصداقة الصحيحة ، أكثر من أيّ شيء آخر .

وقد تأثّر بهذه المزايا الروحية للمسلمين الفيلسوف المعروف « لاينتر » فقال : « إنّ إشفاق الشرقيين وملاطفتهم مع الغرباء وطبيعة استضافتهم للضيوف ولا سيّما بفضل تعاليم الإسلام السامية ، قد أضفى عليهم رونقاً وصفاءً خاصاً بهم دون سواهم ، بحيث لا يوجد من كل ذلك حتى القليل في الجوّ الماديّ والرجال القاسية قلوبهم والنفعيّين الأوروبيين » !

دَوافِعُ الجِهادِ الإسلامِي

لم يكن هدف الإسلام ولا دوافعه في الحروب والجهاد والقتال العام مع المشركين ، دوافع مادّية كفتوح البلدان والتوسّع على حساب الآخرين ، ولا من أجل أهداف استعمارية كالسلطة على المنابع الإقتصادية للآخرين . فهنا يختلف حساب الإسلام مع سائر الطرق والمبادىء فهو يعقّب في ذلك أهدافاً إنسانية كبرى وعميقة .

إن الإسلام في بدء طلوعه وإشراقه كان يهدّد الوضع القائم للظالمين والأشراف المغترّين بما فيه هو من خصوصيات حيويّة ومثيرة ، ولذلك قد تشكّلت ضدّه القوى المضادّة ليمانعوا انتشار هذا الدين الجديد واشاعته وتقدم الإسلام . وأفادوا في ذلك من كل الإمكانيّات والوسائل والقوى المادية لمضادّة الإسلام . وحتى أنهم كانوا يعذّبون كل من كان يدرك حقيقة هذا الدين ويعتقد به تعذيباً فجيعاً .

وحتى أنّ قريش قطعت علاقاتها وارتباطاتها مع صحابة الرسول ، فلجأ هو وأصحابه إلى أحد شعاب جبال مكّة لمدة ثلاث سنوات ، وتحمّلوا هناك كل مشقة وألم ، وحتى أنهم كانوا يعانون الآلام من شدة الحاجة إلى أقواتهم قبل أن يموتوا من شدة الجوع !

وبعد أن استقرّ رسول الإسلام بالمدينة المنوّرة وشكّل للمسلمين مجتمعاً

قوياً أمام المشركين مع ذلك لم يسكت عنه المشركون ، بل كان كيان الإسلام يشعر بخطر الهجوم منهم في كل لحظة ! في هكذا أوضاع أُذن للمسلمين في أن يدفعوا عن كيانهم .

إن لأكثر غزوات الرسول صلّى الله عليه وآله جهة دفاعية ، والفرق العسكرية التي كان يرسلها لقمع الجموع المتواطئة للهجوم على المدينة كان الهدف منها في الواقع الجواب على هجمات الأعداء ليحطّموهم من قبل أن يتجهّزوا للهجوم على المدينة ، ولكي يقضوا على الحركات المضادّة للإسلام والتي كانت في طور التكوّن ، وهي في مهدها .

وفي هذه الآيات التالية قد بيّن الله الدوافع الأولى لتشريع الجهاد وهو الإجابة على تعرّض الأعداء الظالمين ، قال تعالى :

﴿أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربّنا الله . . .﴾[1] .

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا . . .﴾[2] .

وبما أن الإسلام مبدأ عالميّ لجميع البشرية وعليه أن يبلغ بفيضه الرّباني كل الوجود الإنساني ، فلا يقدر على حصر نفسه في الحدود الجغرافية لمنطقة محصورة ، بل عليه أن ينقذ البشرية من مخالب الشرك والتلوّثات الروحية ، وأن يبلغ كلمته الحقة ورسالته العالمية إلى آذان كلّ الجماهير في سائر أقطار العالَم .

وبصورة عامة فإنّ كل نظام ودين يريد أن يحطّم الأنظمة البائدة والعقائد الفاسدة ، وأن يأتي بنظام جديد بدل تلك الأنظمة البالية والقديمة ، فإنّ ذلك لا يمكن بلا جهاد وحروب وكفاح . وهل تحقّقت الثورات العالمية في طول التاريخ وانتجت من دون اصدام وحروب ؟ بإمكاننا أن ندرك هذه الحقيقا بدراسة اجمالية في الثورات الفرنسية ، والهندية ، والأمريكية ، والروسية . . .

---

(١) سورة الحج ، الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٩٠ .

فهل أثمرت هذه الثورات بدون حروب وسفك دماء ؟ هل تمّت للثوار فيها بصورة ساذجة بسيطة وسهلة بلا دفع ثمن باهظ ؟!

وحيث كان هدف الإسلام تغيير العادات والأفكار الفاسدة السائدة ، وإلغاء الإمتيازات الموهومة ، فهكذا ثورة واسعة في كل طبقات المجتمع وشرائحه ستتعرّض من قبل الفرق التي تصطدم في مطامعها ومنافعها لمعارضة شديدة لا محالة سواءً شاءت أم أبت وذلك طبعاً يستتبع الحرب والصِّدام .

إن قوّة القلم والبيان ليست منتجة مئة بالمئة لإشاعة مبدأ عالمي يريد الإصلاح في جميع شؤون الناس ، فإن ثورة القلم والبيان ومهما كان البيان قوياً وحاسماً لا يمكن أن يكون لها دور مؤثر في الإطاحة بكل عوامل الفساد والإنحراف والبؤس والتعاسة والشقاء في المجتمع ولإيجاد جوّ متحرّر من كل ذلك بما لها من سوابق ممتدة وطويلة .

فهناك أُناس يُصرّون على عاداتهم ورسومهم بحيث لا يؤثّر في هدايتهم أي برهان أو منطق ، فهم لا يرفعون أيديهم عن عاداتهم القبيحة وأساليبهم الخرافية والباطلة ولا يستسلمون للحقّ والحقيقة إلاّ في ظلّ قوة السيف والضغط ، ورسول الإسلام يحكي عن هذا الواقع فيما قال :

« والخير كلّه في السّيف ، وتحت ظلّ السّيف ، ولا يقيم الناس إلاّ السّيف ، والسيوف مقاليد الجنّة والنّار »[٣] .

فلو أن القوى المضادّة وعساكرها النظامية أحدثت أمام نفوذ الحقّ وبسط العدل والدين الإلهي سدّاً منيعاً ، ومنعت من نشر الحقائق ، هل هناك من سبيل إلاّ التوسّل بقدرة عسكرية نظامية متكافئة تقابلها وتقاومها ؟

وإنّما صدر الأمر بالحرب والتوسّل بالقدرة العسكرية في عهد كانت قد انتفت فيه الأرضية المساعدة للتفكير الحرّ وإمكانية اختيار الطريق الأصلح . وإنما بدأ الإسلام الكفاح المسلّح لقمع الظالمين المعتدين الجبّارين الذين كانوا يمانعون حريّة الدعوة الإسلامية وذلك لكسر طوق الإختناق الفكري ، وليتحرّر

(٣) وسائل الشيعة ١١ : ٥ باب ١ من أبواب جهاد العدوّ عن الكليني والصدوق والطوسي .

الناس من العوامل السلبية والهدامة ، ولتتمكّن الجماهير البشرية من أن تختار الطريق الصحيح في الحياة في فضاء فكريّ متحرّر بكل إرادتها واختيارها ، وإلاّ فقد كانت الحقيقة الحقّة تنطفىء وهي في مهدها .

إن الحرب التي يبدؤها الإسلام انّما هي في الحقيقة حرب التحرير للبشرية بالمعنى الواقعي لهذه الكلمة ، من أجل تحرير العقول من قيود الخرافات والأوهام ، وتحرير البشر من كل القيود اللاإنسانية . حرب بعيدة عن الأهواء والطغيان والأمور المادية ، حرب ضد الضلالات حتى ولو كانت باسم الله وهي تسعى في الأرض فساداً وتحرم الإنسان من التمتّع بالعدل والتنوّر بالنور الكامن في اسم الله سبحانه وتعالى .

إن الإسلام يحارب في سبيل تركيز المقاييس الإنسانية الصحيحة ، وهو بذلك يمنح العزة والكرامة للبشرية .

إنَّ الإسلام يريد الخير والصلاح لعموم الناس ، ويريد أن يُعدم كلّ ما يوجب فساداً ، وكل عوامل إحباط الصالح العام ، من دون أن تكون له أهداف منفعية أو أهواء .

بينما كان المسلمون في مكّة (الضعفاء عن الهجرة) يرزحون تحت تعذيب المشركين وضغوطهم لأنّهم مسلمون فقط ، كُلّف المسلمون ـ بموجَب دستور سماوي ـ بتحرير الجماهير المظلومة عن سلطة الظالمين ومخالبهم ، وأن يهدموا عوامل الإستعباد الفكري بالتوسّل بالقوة العسكرية ، ليحافظ على كيان المجتمع الإسلامي الحديث العهد وليستمر ويطرّد في نموّه بكل حرّية .

﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾(٤) .

لا مفهوم للحرب في بادىء النظر سوى القتل والقتال والسبي والأسر وإعدام الأعداء والشقاء . ولكنّ الإسلام يفسّر الحرب تفسيراً آخر فيقول :

---

(٤) سورة النّساء ، الآية : ٧٥ .

الحـرب تعني الجهاد ضـدّ الظالمين والمعتـدين والمفسـدين والمستكبـرين ، واقتـلاع الظلم والعـدوان ، لإحياء الحقّ والحقيقـة ، وبكلمة هي آخـر السُبل لمحو الضلال ونشر العدالة والفضيلة .

إن أساس دعوة الإسلام يبتني على أن يتحرّر الناس من عبادة أي معبـود سـوى الله ، وأن لا يحكم الأفكار والقلوب شيء سـوى شرائـع الله وأحكـامـه وإرادتـه . وأي ضـلال أضـلّ من أن يخضـع العبـاد ويتعبّـدوا أمـام الأحجـار والأخشاب وسائر الموجودات غير ذات الشعـور ! إنّ هذا لأعـظم إنحراف عن المسيرة الصحيحة للفطرة الإنسانية والعقل البشري .

وما تقرّر في أحكام الإسلام أن يدعو المسلمـون أعداءهم إلى الإسـلام قبل التحام الحرب يبيّن بنفسه هدف الإسلام ومنظوره في حروبه وجهاده .

حينمـا تواجهت قـوات الإسلام مـع الجيش الايراني السـاساني ، طلب رُسْتَمْ فَرُّخْ زاد ، الذي كان يتكفّل بقيادة جيش إيران يومئذٍ ، طلب من سعد بن أبي وقّاص قائد جيش المسلمين ممثّلاً ، ليقف من خلال مفاوضته على الهدف من الجهاد الإسلامي ، فبيّن له ممثل المسلمين الهدف من الجهاد الإسـلامي هكذا :

قال له رستم : ما هو دينكم ؟

قال : « أما عموده الذي لا يصلح منه شيء إلاّ به ، فشهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله ، والإقرار بما جاء به من عند الله تعالى .

قال : ما أحسن هذا ! وأيّ شيء أيضاً ؟

قال : وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى .

قال : حسن ، وأيّ شيء أيضاً ؟

قال : والناس بنو آدم وحوّاء ، إخوة لأب وأم .

قال رستم : ما أحسن هذا ! ثم قال : أرأيت لـو أني رضيت بهذا الأمـر وأجبتكم إليه ومعي قومي كيف يكون أمركم ؟ أترجعون ؟

قال : أي والله ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلّا في تجارة أو حاجة »[٥] .

ثم سرّح سعد بن أبي وقّاص إلى رستم ربعيّ بن عامر اليربوعي التميمي (وهو أبو شبث بن ربعي) فقال له رستم : ما جاء بكم ؟

قال : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل منّا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله »[٦] .

ثم رجع . . . فلما كان من الغد بعثوا إلى سعد : أن ابعث إلينا ذلك الرجل .

فبعث إليهم سعد : حذيفة بن مِحصَن . . . ثم ردّه رستم .

فلما كان من الغد أرسل رستم إلى سعد : ابعثوا إلينا رجلاً .

فبعثوا إليهم المغيرة بن شعبة . . . وتكلم . . . فلم يختلفوا وسلكوا طريقاً واحداً ولزموا أمراً واحداً . . . وقالوا : ندعوكم إلى الإسلام وحكمه ، فان أجبتمونا تركناكم ورجعنا وخلّفنا فيكم كتاب الله[٧] .

وقد روى الكليني في « الكافي » والطوسي في « التهذيب » بإسنادهما إلى الإمام الصادق عليه السلام : أن رسول الله لما بعث علياً عليه السلام إلى اليمن قال له : « يا علي ، لا تقاتلنّ أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام ؟ ، وأيم الله لئن يهدي الله عزّ وجلّ على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت ، ولك ولاؤه يا علي »[٨] .

---

(٥) تاريخ الطبري ٤ : ٥١٨ ، ط . دار المعارف . ومحادثة زهرة بن عبدالله بن الحارث أمير مقدمة سعد بن وقّاص .

(٦) تاريخ الطبري ٤ : ٥٢٠ ، ط . دار المعارف .

(٧) تاريخ الطبري ٤ : ٥٢٤ ـ ٤٢٨ ، ط . دار المعارف .

(٨) وسائل الشيعة ١١ : ٣ عن فروع الكافي : ٢٣٥ ، ٢٣٧ والتهذيب ٢ : ٤٧ .

إن منطق الإسلام في الحرب قد بُني على أساس الجهاد في سبيل الله وللقربة إليه ونيل السعادة الأبدية بذلك . ولم يقل الإسلام للمسلمين أن حاربوا وافتحوا المدن واستعمروا واستعبدوا الأمم والشعوب . ولذلك فإن الحروب الإسلامية لا يمكن أن تقاس بفتح البلدان من قبل الطغاة في طول التاريخ والذين لم يكن لهم في فتوحاتهم أي دافع إلهي ، بل لم يكن لهم أيّ هدف سوى المطامع المادية وطلب الإستعلاء واستعمار بل استعباد الأمم والشعوب .

إنّ المسلم يزاول الحرب أداءً لوظيفة دينية خطيرة بل عبادة . إن المسلمين كانوا يجاهدون بلا هوادة في سبيل إعلاء كلمة الله والحقّ والحقيقة ، وهم يعتقدون أن كلمة الله إذا طبّقت وجه الأرض قاطبة انحسر عنه الظلم قاطبة ، واستقرت المساواة التامّة بين كافّة أفراد البشر ، وقد قال الله عزّ من قائل :

﴿إنّ الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بُنيانٌ مرصُوصٌ﴾[٩] .

وحينما كان جمع من المجاهدين ناظرين على عاداتهم الجاهلية إلى الغنائم المادية لامهم الله ووبّخهم بشدة فقال تعالى :

﴿تريدون عَرَضَ الدّنيا والله يريد الآخرة﴾[١٠] .

ولا ريب في أن تلك مزية كبرى للإسلام في سوح الكفاح البشري في سبيل العدالة والحرية والكرامة الإنسانية . كتب الدكتور مجيد خدّوري يقول :

« يجب أن نلتفت إلى أنّ الإسلام قد نظر إلى الحرب كوسيلة يبدّل بها « دار الحرب » إلى « دار الإسلام » ولو كان يتحقق هذا يوماً ما لكانت تنتفي دار الحرب والغاية من الجهاد ألّلهمّ إلاّ لقمع أعداء الإسلام الداخليّين ، وكانت هي أيضاً تنتفي بدورها .

وعليه فبالإمكان القول بأنّ الحرب لم تكن هدفاً في النظرة التشريعية في

(٩) سورة الصّف ، الآية : ٤ .
(١٠) سورة الأنفال ، الآية : ٦٧ .

الإسلام ، بل عرفها الإسلام كآخر وسيلة لتأمين السلام[11] .

وفي أحكام الجهاد في الإسلام روعيت الأخلاق بصورة تامّة ، وقد كانت أخلاقية المسلمين وعطفهم وكرامتهم في سوح الكفاح والحروب الدامية ملفتة للنظر جداً . إن برنامج الجهاد في الإسلام مزيج بالشرف والفتوة والأخلاق بحيث لا نرى له اليوم مثيلاً في أيّ من القوانين العسكرية والحربية . لقد حطا الإسلام في سبيل حفظ النفوس والمنع عن الحروب خطوات بارزة ، وقد مانع عن سفك الدماء حتى الإمكان .

فمثلاً ليس سبيل ترك الخصام والصِّدام ووقف إطلاق النّار والقتال في الإسلام محصوراً في استسلام الأعداء ، بل يكفي في ذلك أن يأمن المسلمون من شر أعدائهم والإخلال بهم وأن يتعهّدوا لهم بأن يمتنعوا عن التعدي على حقوق الآخرين وعلى المقدّسات الإسلامية ، وأن يمتنعوا عن الطغيان والفساد والفتنة بين المسلمين .

ولو كان أحد المسلمين المجاهدين يعاهد العدوّ أو يؤمنه لم يكن من الجائز لصاحب أعلى منصب إسلامي أن ينقض تلك المعاهدة !

وقد حرّم في القتال التخريب والتحريق للمزارع والتغريق لهم ، وأعطى بذلك حصانة للأطفال والشيوخ والنساء والمجانين والمرضى ، فلا يحق للمسلمين أن يلوّثوا أيديهم بدماء هؤلاء من أجل أن يصدموا عدوّهم ، وكذلك لا يجوز لهم أن يتعرّضوا للمندوبين والممثّلين وسفراء الأعداء .

كتب البروفسور الدكتور محمّد حميد الله المستوفي أُستاذ جامعة باريس في كتابه قال :

« كان محمّد (ص) يحكم على أكثر من مليون ميلاً مربعاً من الأرض ، وهذه المساحة تعادل كل أراضي أوروبا باستثناء روسيا ، ومن المقطوع به أنّ هذه النقطة كانت مساكن ملايين من العرب ، وقد قتل منهم ضمن عملية

---

(١١) بالفارسية : جنگ وصلح در اسلام : ٢١٤ .

استيلائه عليهم مائة وخمسون رجلاً منهم في ساحات الحروب ، أما من جانب المسلمين فقد كانت خسائرهم في أرواحهم في مدة عشر سنين تعادل كل شهر شهيداً . ولا نظير لهذه المشابة من تقدير الدم البشريّ وحرمته في تاريخهم الطويل »[١٢] .

وهنا نأتي بمقاطع بارزة تبيّن هذه الحقيقة كنماذج شاهدة :

روى البرقي في « المحاسن » والكلينيّ في « الكافي » بسندهما عن الصادق (ع) قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم إذا أراد أن يبعث سريّة دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول : « سيروا باسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملّة رسول الله ، لا تغلّوا ولا تغدروا ، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبيّاً ولا امرأة ، ولا تقطعوا شجراً إلاّ أن تضطرّوا إليها . وأيما رجل من أدنى المسلمين أو أقصاهم نظر إلى أحد من المشركين فهو جار حتى يسمع كلام الله ، فان تبعكم فأخوكم في الدين ، وإن أبى فأبلغوه مأمنه واستعينوا بالله »[١٣] .

وروى الكلينيّ في « الكافي » والطوسي في « التهذيب » بسندهما عن الإمام عليّ بن الحسين قال : إن علياً عليه السلام كتب إلى مالك (الأشتر) وهو على مقدمته في يوم البصرة بأن : « لا يطعن في غير مقبل ، ولا يقتل مدبراً ، ولا يجهز على جريح ، ومن أغلق بابه فهو آمن »[١٤] .

وقد يرتكب العدو في معمعة الحرب أعمالاً تحرك في المسلمين غريزة حبّ الإنتقام ، فعلى المسلمين في هذه الموقعة الحسّاسة أن لا ينسوا هدفهم الأصليّ وهو الدفاع عن حريم الحقّ والفضيلة . وأن يتغلّبوا على أحاسيسهم وهياجهم للإنتقام .

إنّ الإسلام أحدث شعوراً إنسانياً بالنسبة إلى كل أفراد البشر ولم يرخّص

---

(١٢) بالفارسية : رسول اكرم در ميدان جنگ : ٩ .
(١٣) وسائل الشيعة ١١ : ٤٣ عن فروع الكافي ١ : ٣٣٤ والمحاسن : ٣٥٥ .
(١٤) وسائل الشيعة ١١ : ٥٥ عن فروع الكافي ١ : ٣٣٦ والتهذيب ٢ : ٥١ .

في الجور في أية لحظة . والمسلمون الذين يجاهدون في سبيل الله لا يحقّ لهم أن يتجاوزوا عن حدود العدل فيفكّروا في العدوان ، وقد حدّد الإسلام العدوان على العدوّ بخدود عدوان العدوّ ويذكّر صريحاً بهذا الموضوع فها هو نداء القرآن يقول :

﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتّقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتّقين﴾[١٥] .

﴿يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شنآن قومٍ على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتّقوى﴾[١٦] .

﴿ولا يجرمنّكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾[١٧] .

لقد جاء الإسلام لنشر العدل على وجه الأرض بكل معنى الكلمة ، وليقيم العدالة الإجتماعية والعدالة بين مختلف الأمم والشعوب ، ولهذا فلو أنّ جمعاً من المسلمين أرادوا أن ينحرفوا عن مسيرة الحقّ والعدل فيتّجهوا إلى سبيل الظلم والعدوان وجب على سائر المسلمين بحكم الإسلام أن يقمعوا المسلمين المعتدين ولو بالحرب ضدّهم :

﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾[١٨] .

والنقطة الملفتة للنظر في هذه الآية أنها تؤكّد على المصلحين أنّ الإصلاح بين الطائفتين المتخاصمتين يجب أن يكون على العدل التام ، ليصل كل من الطرفين إلى حقوقهم المشروعة لهم . ذلك أنه في هكذا موارد حيث

---

(١٥) سورة البقرة ، الآية : ١٩٤ .

(١٦) سورة المائدة ، الآية : ٨ .

(١٧) سورة المائدة ، الآية : ٢ .

(١٨) سورة الحجرات ، الآية : ٩ .

بدأت الحرب بين الطرفين بعدوان أحدهما على الآخر ، لو أراد المصلحون الذين يريدون أن ينهوا الحرب بالصلح أن يجعلوا جهدهم في الإصرار على العفو والاغماض من جانب ، ويحصلوا على رضا أحد الطرفين بإعراض أحدهما عن حقوقه لصالح الطرف الآخر ، فمن الممكن أنّ نفس هذا العفو من طرف يقوى في الطرف الآخر روحية العدوان حيث حصل على امتيازات ومكاسب بالحرب . ومن المؤسف أنّ المصلحين غالباً ما يحاولون أن يُقنعوا المعتدي بوقف الحرب من خلال منحه بعض ما كان يريد (وإن كان باطلاً بلا حقّ) .

إنّ العفو والاعراض عن الحقّ وإن كان في نفسه عملاً صالحاً مرغوباً فيه مندوباً إليه ، ولكنّه في هكذا موارد يترك في روحية الشخص المعتدي أثراً غير صالح لا تحمد عاقبته . بينما هدف الإسلام أن يطوي موائد الظالمين والمعتدين في مجتمع المسلمين ، وأن يطْمئن الناس إلى أنهم سوف لا يحصلون على شيء من طريق الظلم والعدوان على الآخرين .

إن المعاملة الإنسانية من المسلمين بالنسبة إلى الشعوب المغلوبة سبّبت في أنهم أينما كانوا يتّجهون كان الرأي العام يستقبلهم ويُرحّب بهم :

فأهالي مدينة « حِمص » مثلاً أغلقوا أبواب مدينتهم بوجه عسكر « هِرَقل » ولكنهم أرسلوا إلى المسلمين : أن حكمهم العادل أحبّ إليهم من ظلم الرّوم

وحينما وصل عساكر المسلمين بقيادة « أبي عبيدة الجرّاح » إلى أراضي الأردن كتب النصارى إلى المسلمين يقولون :

أيّها المسلمون ، أنتم أحبّ إلينا من الروميين ، فإنهم وإن كانوا معنا على دين واحد ولكنّكم أوفى لنا وأعدل بنا وأرحم وأرْأف وأكثر إحساناً بالنسبة إلينا ، فإنّهم لم يحكمونا فقط بل نهبوا بيوتنا !!

وكتب المستشرق الشهير « فيليب حتّي » في احتلال إسبانيا من قبل المسلمين يقول :

« أينما كان يحلّ عسكر الإسلام كان الناس يتقبّلونهم برحابة صدر

ويحضّرون لهم الماء والطعام ، ويخلون لهم خنادقهم . والذين يعلمون بجرائم سلاطين ويزيگوت وظلمهم يعلمون بسبب ذلك »(١٩) .

إنّ المسلمين لم يكونوا يُجبرون الناس في البلاد المفتوحة على ترك أديانهم .

إن النظام الإسلامي قد ضمن الحرية التامّة في العقيدة للأقليات الرسمية في بلاده ، ولا يصطدم معهم في عباداتهم وأسلوب حياتهم الداخلية ، وبكلمة : فإنّ العقيدة الإسلامية وسائر العقائد الدينية الأخرى تتمتع بحقوق قانونيّة .

إنّ الضرائب المالية التي تؤخذ من المسلمين بعنوان الزّكاة هي عبادة وضريبة ، ولكن الإسلام لم يكلّف بها أتباع سائر الأديان ، بل انّهم يدفعون بدل الزكاة ضريبة أخرى باسم « الجزية » وهم بدفعهم لهذه الضريبة « الجزية » يتمتّعون بالحماية الكاملة من جانب الحكومة الإسلامية ، ويفيدون من كافة التسهيلات والمزايا التي توفّرها الحكومة الإسلامية لأفراد شعبها .

وعليه فإن النظام الإسلامي لم يلاحظ مشاعر أتباع سائر الأديان السماوية بشأن الأحوال الشخصية فحسب بل في دائرة التشريع بصورة عامّة ، وحتى أنه راعى أموراً ترتبط بالعقائد الدينية في قوانينه الجزائية والمدنية والتجارية ، لكي تبقى للأقليات الرسمية الحرية التامة في هذه الأمور مما يرتبط بعقائدها الدينية .

إن القرآن الكريم يعيّن كيفية علاقة المسلمين بأتباع الأديان الأخرى ، ويرغبهم في الإحسان والمودّة مع المساكين من غير المسلمين ، وإنّما منعهم عن المودة مع غير المسلمين المحاربين المعتدين والذين لهم مع الإسلام والمسلمين عداوة وخصومة سرّاً أو جهاراً : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحبّ المقسطين * إنّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولّهم فأولئك هم

---

(١٩) عن الترجمة الفارسية : تاريخ عرب ٢ : ٦٣٨ .

الظالمون﴾[٢٠] .

إنّ السياسة الإسلامية مع الأقليات المسيحية واليهودية التي كانت تعيش في الحكومة الإسلامية كانت مبنيّة على أساس المعاهدات المتقابلة والتعايش السلميّ ، ومع كل ما كان للحكومة الإسلامية من قوة وقدرة ما كان المسلمون ليعاملوهم معاملة خشنة . واليهود حول المدينة ما داموا يعملون على معاهداتهم المتقابلة كانوا يعيشون إلى جانب المسلمين من دون أي ظلم أو خشونة معهم ، وحتى روي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : من آذى ذميّاً فقد آذاني ألا ومن ظلم مُعاهداً أو كلّفه ما لا يطيق أو أخذ منه مالاً بغير رضاه فأنا خصيمه يوم القيامة !

وروى الطوسي في « التهذيب » بسند مرسل قال : مرّ شيخ مكفوف كبير يسأل ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام ما هذا ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، نصرانيّ . فقال أمير المؤمنين عليه السلام : « استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه ؟! أنفقوا عليه من بيت المال »[٢١] .

ويقول الدكتور « واجليري » أستاذ جامعة نابولي : « إن حياة الشعوب المغلوبة المفتوحة وحقوقها المدنية وأموالها أصبحت موضع حماية الحكومة الإسلامية بحيث كانت حقوقهم تقريباً تشابه الحقوق التي كان المسلمون يتمتعون بها . إن العرب في أوج قدرتهم وانتصارهم كانوا مستعدين دائماً ليقولوا لأعدائهم : لا تحاربونا وادفعوا إلينا ضرائب مالية معتدلة ثم تمتّعوا منا بحماية كاملة ، تكون لكم من الحقوق مثل ما لنا . إنّنا لو التفتنا إلى أقوال محمّد (ص) أو فتوحات أصحابه في صدر الإسلام لرأينا بسهولة ويُسر كيف أن القول بأن الإسلام حمل نفسه على الناس بقوة السيف من الكذب القبيح ، فالقرآن يقول : ﴿لا إكراه في الدين﴾[٢٢] .

---

(٢٠) سورة الممتحنة ، الآيتان : ٨ ـ ٩ .

(٢١) وسائل الشيعة ١١ : ٤٩ عن التهذيب ٢ : ٨٨ .

(٢٢) سورة البقرة ، آية الكرسيّ .

إن تاريخ الإسلام يضع في متناولنا نماذج عديدة عن المداراة التي كان يعملها المسلمون بالنسبة لاتباع سائر الأديان الرسمية ، كما ضمن شخص الرسول لنصارى نجران أن تبقى معابدهم في حماية المسلمين ، ونهى قائد القوات التي أرسلها إلى اليمن أن يؤذي أحداً من اليهود في حيطته ، كذلك عامل المسلمون مع أتباع سائر الأديان غير الإسلام ، فكانوا يسمحون لهم بالحرية في سننهم الدينية وآدابهم ، وأن يتمتعوا بحماية الدولة الإسلامية بدفعهم لضريبة « الجزية » التي كانت أقل من ضرائب المسلمين !

وكتب المستشرق الشهير « آدم متز » يقول : « إنّ مما ميّز الممالك الإسلامية عن أوروبا المسيحية هو وجود عدد كثير من الأقليات الدينية غير المسلمة وهم يعيشون في الأراضي الإسلامية بحرية ، في حين لم يتّفق مثل ذلك في أوروبا المسيحية . ويُشاهد أن الكنائس والمعابد للأديان الأخرى في الأراضي الإسلامية في حرية تامّة وكأنها خارجة عن حدود حكومة المسلمين ، وهذه الحرية كانت من آثار عهود ومعاهدات حصل بها اليهود والنصارى على حقوقهم ، بينما لم تكن أوروبا تدرك شيئاً من هذا التعايش السلمي »[٢٣] .

وكتب المستشرق المسيحي والكاتب المعروف « جاك ديون بورت » :

« إن الإسلام قرّر وعمل بأصول العدالة المطلقة لا فيما بين أتباعه فقط بل فيما بين الشعوب المغلوبة المفتوحة عَنوةً وكانوا يعيشون في ظل الحكومة الإسلامية ، وحتى أنه أعفى علماء سائر الأديان عن أداء الضرائب التي كانت على الكنائس وسائر الأجهزة الروحانية ، وعن أنواع الضرائب التي كانوا يدفعونها للطبقة الحاكمة »[٢٤] .

وكتب العالم والمؤرخ الفرنسي الدكتور « غوستاف لوبون » يقول :

« إن المسلمين كانوا خلال بضع قرون قد غيّروا بلاد الأندلس علمياً واقتصادياً حتى جعلوها تاجاً من الفخر على مفرق أوروبا ، ولم تكن هذه الثورة

---

(٢٣) نقلاً عن روح الدين الإسلامي لعبد العفيف طبّارة .
(٢٤) بالفارسية : عذر تقصير به پيشگاه محمّد وقرآن : ١٠٥ .

في الأمور المالية والعلمية فقط بل حتى في الأخلاق ، فإنّهم علّموا النصارى خصلة قيّمة إنسانية عالية ـ أو حاولوا أن يعلّموهم ـ وهي التعايش السلميّ مع أتباع سائر الأديان . إن سلوك المسلمين مع الشعوب المغلوبة كان من اللين بحيث كان يُسمح لرؤساء الأساقفة أن يشكّلوا لأنفسهم مجالس دينية ، كما أقاموا لأنفسهم مجالس دراسة دينية سنة ٨٧٢ ميلادية في اشبيلية ، وسنة ٨٥٢ ميلادية في قرطبة .

ومن الكنائس الكثيرة التي كانت قد بُنيت في عهد الحكومة الإسلامية يمكننا أن ندرك مدى احترامهم وتقديرهم لأديان الشعوب المغلوبة .

نعم أسلم كثير من النصارى في حين لم تكن ضرورة تدعو إلى ذلك .

في حكومة المسلمين كان اليهود والنصارى يشاركون المسلمين في حقوق متقاربة . وكان بإمكانهم أن يتسنّموا مناصب ومقامات ويزاولوا أشغالاً في بلاط الخلافة »[٢٥] .

ولا بأس بأن نقارن بين فتوّة المسلمين ومروّتهم وحرّيتهم من جانب والأعمال الشنيعة والمُخجلة للنصارى في الحروب الصليبية كي نقف على مغزى الغزوات في الإسلام . لقد كان فتح بيت المقدس على أيدي المسيحيين في الحروب الصليبية فتحاً وحشيّاً ! فقد اتّفق في ذلك اليوم وقوع أبشع المجازر وأوقح الأعمال بالنسبة إلى أهاليها على أيدي النصارى الفاتحين ، حتى تشكّلت تلال من الأيدي والأرجل والرؤوس المقطوعة في ميادين هذه المدينة ومعابرها ، وقد استطعمت سيوفهم في مسجد عُمر عشرة آلاف شخص كانوا قد التجأوا إلى ذلك المسجد ، وجرى من الدم في معبد سليمان ما كان يبلغ رُكب الأفراس وتسبح فيها أجساد الضحايا !

ويقول الكاتب الأوروبي « كلللداك » :

« من المقطوع والمسلّم به أن عالَم الأخلاق لم يرَ أيّ بركة أو خير من المحاربين الصليبيّين ، ذلك أنه لم تبلغ أية قوة مهاجمة من أيّة أمة في أي عصر

(٢٥) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب : ٣٤٥ .

وزمان ما بلغه هؤلاء المحاربون من الفسق والفجور والشر والفساد وإشباع الشهوات .

إن المحاربين الصليبيّين روّجوا ورغبوا في أشد نماذج التعصب المقيت والسخيف ، كانت الحرب مقدّسة عندهم وبدل الدعاء والإحسان وأعمال الخير كان القتل وسفك الدماء كفّارة لذنوبهم ! »(٢٦) .

وبعد حكم الصليبّيين في فلسطين أكثر من ثمان وثمانين من السنين أخذ المسلمون يفكّرون في استرداد فلسطين وبدأوا لذلك الحرب ، وأرسلت أوروبا ما كان في حوزتها من القوات إلى آسيا لحفظ سلطتها على بيت المقدس ، وبالتالي سقطت أركان حكومة الصليب في فلسطين على يد القائد الإسلاميّ الكبير صلاح الدين بن أيوب الكردي ، ورجع جنود الصليب إلى أراضي أوروبا .

وفي شهر رجب من سنة ٥٨٣ هجرية (الموافق لعام ١١٨٧م) إذ استسلمت مدينة القدس لجيش الإسلام وافتتحت أبواب المدينة بوجه جنود الإسلام الفدائيين أعلن الملك الغيور والعاقل صلاح الدين الأيوبيّ العفو العام عوضاً عن الإنتقام للمجازر العامة للمسلمين من قبل عسكر الصليب ! وبذلك أضاف صفحة أخرى على مفاخر الفتوحات الإسلامية ، في هذه الحروب المؤلمة كان كل الجيش الإسلامي متأثراً بالروح الإسلامية العالية وكان سلوكهم بعيداً عن أيّ قسوة أو غلظة .

أعلن صلاح الدين أنّ كل أهالي البلد في أمان فإن أرادوا الخروج من القدس إلى بلادهم فعلى كل رجل عشرة دنانير وعلى كل امرأة خمسة دنانير وعلى كل طفل ديناران ثم ليذهبوا بكل مالهم وثرواتهم حيث شاؤوا . وحيث كان بيت المقدس أكثر أمناً من سائر مدن الدولة الرومانية لذلك كان أمراء الرومان الذين يعيشون في غير القدس قد أودعوا أزواجهم وأولادهم في القدس . وأراد الأسقف الكبير الخروج من القدس بكل أمواله الكثيرة ، اقترح

---

(٢٦) بالفارسية : عذر تقصير به پيشگاه محمّد وقرآن : ١٣٩ .

بعضهم على صلاح الدين أن يصادر أمواله فيقسّمها بين المسلمين المجاهدين . فقال صلاح الدين : لا يمكن أبداً أن أرتكب هذه الخيانة فآخذ منه أكثر من العشرة دنانير المقرّرة !

وكتب « جان ديون بورت » يقول :

« حينما استرجع صلاح الدين سلطان سوريا للمرّة الثانية هذه المدينة (القدس) لم يقتل حتى رجلاً واحداً بل أظهر رحماً فائقاً بالنسبة إلى الأسرى النصارى »[27] .

ولم يكن توحش المسيحيين في المغرب (الأندلس) بأقل من ويلات الصليبيين في الشرق ، فبعد كل تلكم الخدمات التي قام بها وقدّمها المسلمون في أسبانيا أفتى قادة الدين المسيحي بقتل الشيوخ والشباب من النساء والرجال من المسلمين ، وأمر فيليب الثاني بإخراج المسلمين من أراضي إسبانيا ولكن قبل أن يتوفّق المسلمون إلى ترك البلاد وقع ثلاثة أرباعهم ضحايا مضرّجين بدمائهم بحكم الكنيسة والذين سلموا من هذه المجازر الدامية الكبرى حكم عليهم في محاكم تفتيش العقائد بعد هذا بالإعدام ، وبكلمة فقد قتل في هذه المدة ما يقرب من ثلاثة ملايين من المسلمين .

وكتب الكاتب المسيحي الشهير « جان ديون بورت » يقول :

« من هو الذي لم يلزم الحداد لفقد بقايا آثار الفتوة أي سقوط الأمبراطورية الإسلامية في إسبانيا ؟ ومن الذي لم يمتلىء فضاء صدره من التمجيد والتكريم بالنسبة إلى تلك الأمة الشجاعة والكريمة ؟ تلك الأمة التي لم يستطع المؤرخون حتى المخالفين لهم أن يكتبوا أقل نموذج من ظلم صدر منهم في طول ثمانمائة سنة من الحكم على إسبانيا .

ومن الذي لم يخجل من تحريكات الأجهزة المسيحية ، تلك التحريكات التي هيّجت القوى الداخلية بما فيها من تعصّب عنيف وظلم شيطاني ضدّ المسلمين ، فارتكبت مظالم مؤلمة بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا قد أبدوا من

---

(٢٧) بالفارسية : عذر تقصير به پيشگاه محمّد وقرآن : ١٣٩ .

أنفسهم كل تلك الإنسانية بشأن هؤلاء الجماعة أي الاسبانيين »[٢٨] .

وكتب المؤرخ الشهير « جرجي زيدان » يقول :

« وبعد أن انتصر النصارى في الأندلس أجبروا المسلمين ـ كاليهود ـ على أن يحملوا معهم علامة يُعرفون بها . وبالتالي خيّروهم بين تقبّل المسيحية أو الموت »[٢٩] .

« النصارى الإنسانيّون (!) بعد أن ظفروا بالحكم في دولة إسبانيا بدّلوا مساجد المسلمين إلى كنائس ، وحرموا المسلمين حريتهم في إقامة شعائرهم الدينية ، وخرّبوا وهدموا مقابرهم ، ومنعوهم عن النظافة والاستحمام ، وهدموا حمّاماتهم »[٣٠] .

« المجاهدون النصارى الصليبيّون الإسبان تحرّكوا ضدّ أهالي قصبة « دولان » المسلمين في عهد « هانري الرابع » فهجموا عليهم بشراسة ووحشية فخنقوهم بأيديهم وقالوا : إنّهم كانوا أربعمائة ألف نسمة »[٣١] .

أجل ، كان هذا هو معنى مسالمة المسيحيين في طول التاريخ !

وفي عالمنا الحاضر حينما نلاحظ سلوك المستعمرين المتحضّرين مع الشعوب المغلوبة على أمرها والأسيرة في أيديها ، ندرك كيف أنهم يسحقون عزّتها وكرامتها ويحرمونهم من المزايا الحقيقية للحضارة ، وأنهم يستعملون كل تعاليمهم وأساليبهم المرئية وغير المرئية لاستغلال النفوس والأفكار وحتى الأرواح ، وللحفاظ على مصالحهم يحرمون الجماهير من حرية التفكير بشدة ، ويجعلونهم في موقعية خاصة لا يتمكنون معها على أن يخطوا خطوة واحدة على خلاف مسيرة مصالح أولئك المستعمرين ، وأنهم كلما ارتفعت صيحة تبحث عن العدالة الحقّة خنقوها في الحناجر قبل أن تنطلق .

---

(٢٨) بالفارسية : عذر تقصير به پيشگاه محمّد وقرآن : ١٣٣ .
(٢٩) بالفارسية : تاريخ تمدن اسلام ٤ : ٢٨٢ .
(٣٠) بالفارسية : عظمت مسلمين در إسبانيا : ٢٤٣ .
(٣١) جنگهاى صليبى ١ : ٤٧ .

إنّ الدفاع عن السّلام مُستمسك تتشبّث به الدول الكبرى دائماً ، فهل أنّ هؤلاء الذين يدّعون أنّهم حماة السلام قد نبذوا الحروب جانباً يحلّون خلافاتهم مع الآخرين عن طريق الديبلوماسية والمفاوضات فقط ؟! أم ماذا ؟!

أما الإسلام فقد قرّر السلام على أساس تهذيب الأنفس وتنظيم الدوافع ، وهو يبدأ خلق الأمن والإستقرار من خلال بواطن الأفراد ، وهكذا يتقدم نحو السلام العالمي والأممي ، ذلك أنه ما دامت بواطن أفراد البشر لم تتمتع بالصلح والسلام الداخلي فإنّ الأمن سوف لا يستقر في هذا العالَم ، وما لم يحكم على أفكار الجماهير البشرية ضمان أخلاقي ، فإن جميع النظريات والمؤسسات الطويلة العريضة سوف لا تكون أكثر من رسوم على وجه المياه ! ولا تتمكن من أن تدير شؤون المجتمع البشري حيث السلام والتعايش السلميّ كأسرة واحدة كبيرة .

إن الفرد في الحقيقة لبنة تحتية أُولى لبناء المجتمع ، ومن هنا فإن الإسلام يبذّر بذور الأمن والإستقرار من خلال العقيدة والإيمان في وجدان الإنسان ، فهذا الإيمان سوف يتجّلي في سلوكه وأفعاله وأعماله كحقيقة واضحة تدريجيّاً ، فإنّ الواقع في الحقيقة انّما هو ترجمة عملية لعالَم الوجدان والباطن (الضمير) .

ثم هو لا يترك الإنسان على عهدة عقيدته الباطنية والروحية ، بل يضع له قرارات وضمانات مُطَمئنة لا يشعر الفرد في ظلالها بشيء سوى الأمن والعدالة . فالذين يعيشون في الجوّ الإسلامي يشعرون بأن أنفسهم وأعراضهم وأموالهم في الأمان ، فهو في الواقع يجعل أفراد المجتمع في تأمين عن الحوادث .

بينما يرى بعض المبادىء البشرية علاقة الفرد بالآخر علاقة صدام ومزاحمة ويقولون إن علاقة أيّة طبقة بأيّة طبقة أُخرى مبنيّة على الضغط والاجبار . . . يريد الإسلام أن تكون علاقة كلهم بعضهم ببعض علاقة تعاون وأمن واستقرار ، وارتباطهم ارتباط محبّة ومودّة ، ثم هو يساعد الإتجاه نحو هذا الهدف المقدس بسلسلة من الآداب الفردية والإجتماعية والتعاليم الأخلاقية الوضّاءة والمشرقة ، ويمنع بذلك عن إحياء روحية الحقد والعداوة والبغضاء في

النفوس .

وحينما تعرّفت لحمة كيان الإنسان وسداه على الأحاسيس اللطيفة والمشاعر الطاهرة غير المشوبة ، واستيقظ في ضميره احساس الأخوة والقرابة ، اتّقدت في قلوب الناس أنوار الرحمة والالتئام والعفو والإنسجام ، وضَعُفَت فيهم العوامل الأصلية في الخلافات والإنفصالات والمنازعات والمعارضات والحروب ، وحلّقت على مجتمعهم طيور الصفاء والسلام .

لا يمكن لأيّ نظام على الأرض أن يعمل بالعدل لكل أفراد البشر وفي جميع الأحوال ، وإن العدالة الإجتماعية في العالَم مهما بلغت لا تقدر على رفع جميع المظالم عن جميع الناس أبداً .

إنّ تنفيذ العدالة بصورة تامّة كاملة لا يمكن للإسلام تحقيقه بما في يديه من وسائل ، إذ هناك بعض المظالم تقع في العالم لا تقدر العدالة في الأرض أن تدركها وتفهمها ، وقد يقع بعض أنواع العدوان لا يلاحظه حتى صاحب الحق نفسه .

وحينما لا يعتقد كثير من الناس بالعدل الإلٰهي المطلق الذي سينتقم للمظلومين من الظالمين يوم القيامة ، فماذا يُتوقع منهم مع ذلك ؟

والآن لنلاحظ ما هو مفهوم الصلح والسلام في نظر الإسلام وفي العالَم المتحضّر ؟ إنّ الصلح الذي يريده الإسلام يتفاوت تفاوتاً عميقاً مع صلح قادة الدول الكبرى والأحزاب التي تمسك بمصائر شعوبها ، ذلك أن صلحهم يعني استقرار الصلح والسلام والوئام والإنسجام بين الدول الكبرى الإستعمارية كي يتمكّنوا من تقسيم منابع الثروات للدول الصغرى بينهم تحت عنوان السلام ، ولكي يدخلوا مناطق العالَم تحت نفوذهم الإستعماري بسلام أيضاً .

وبعبارة أُخرى : إن الهدف من سلامهم هو : التفاهم فيما بينهم لنهب الآخرين ! ولذلك فإنهم لا يبدون أقل إقدام إيجابيّ وأيّ حسن نيّة في سبيل السلام الحقيقي . وأما الهتافات وعقد المجالس والأبحاث والمفاوضات فإنّما هي أعمال تشريفية ومساعٍ ظاهرية تنتهي من دون أيّة نتيجة عملية .

وأما السلام الذي يُريده الإسلام فهـو يستقر على أسـاس تساوي حقـوق مختلف شعوب العالم ، وأن يظلّل الصلح الحقيقي من دون أيّ تميز على رأس جميع أُمم العالَم الضعيفة منها والقوية . إن الإسلام يرسم لكل البشرية طريق الصلح الحقيقيّ الصلح الكامل الشامل والبعيد عن كل عدوان وفساد .

إن « بيان حقوق الإنسان » وإن كان قد أعلن عن هدفه بأنـه على أساس السلام العالمي ومن أجل إحباط عوامل الإختلاف والتهاجمات ، ولكن حتى لو تحقق هذا الهدف للبيان بالنسبة إلى السلام العالمي ، فهل تحقّق حرية الفكر والإرادة لكل الأُمم ؟ أم هل يسود في حال السلم الإستعمار وخنق الحريات بين الشعوب ؟

إن أصحاب المعسكرين الشرقي والغربي يقولون : انّهم يريدون استقرار نظام عالمي . ولكن هل من الممكن أن يستقر نظام عالمي من دون حرية تامّة كاملة ؟

بل لا يحق الحياة للمعارضين السياسيين في معسكـري الشرق والغـرب عملياً ، انهم بدل أن يكتفوا بعرض أُسلوب أفكارهم بصورة صحيحة يحاولون أن يقضوا على عقائد الآخرين وآرائهم ومسالكهم بالضغط والقوة .

ولكنّ الإسلام لا يرى السلام كافياً لسعادة الإنسان ، بل انّه يقرّر أُصولاً وقيماً خاصة على أنها هي أساس الحياة الإجتماعية ، فهـو يهدف إلى هـدف أشمـل وأكمل . إن الإسـلام يريـد أن يضمن حرية الفكـر للبشـر كي تتمكن المجتمعـات البشريـة من أن تشخّص الطرق الصحيحـة والسعيـدة في الحيـاة فتختار سلوك الطرق ، ولذلك فقد أنكر الإكراه وتحميل العقيـدة على الآخرين في دعوته العالمية ، وعنون أنّ العامل الوحيد لرقيّ عقيـدته وايـديولـوجيته بين الأمم والجماهير المختلفة هو العقل والنموّ الفكريّ : ﴿لا إكراه في الـدين قد تبيّن الرشد من الغيّ﴾[٣٢] .

﴿فذكّر إنّما أنت مذكّر * لست عليهم بمصيطر﴾[٣٣] .

---

(٣٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٦ .

(٣٣) سورة الغاشية ، الآية : ٢١ و٢٢ .

إن الإسلام يقول بالحرية العقائدية ولا يرى صحة تقبّل الدين بالإجبار ، إذ أنّ العقيدة والإيمان من الأمور القلبية ، ولا يتحقّق بالإجبار والضغط من دون ميول إنسانية باطنية ، وانّ هناك عوامل مختلفة لانعقاد العقائد والأفكار في الناس ، ولذلك فإن أي اصلاح أو تغيير يجب أن يتحقق من طريق التعليم والتربية الصحيحة والدليل ، وإلاّ فانّ القوة والإكراه لا يتمكّن من أن يزيل ما انعقد في فكر البشر من الرأي والعقيدة .

ولكن الإسلام حينما يحرّر البيئة من خلال القدرة العسكرية ويزيل منها كل اختناق فكريّ حاكم ، كان بإمكان الناس أن يعتقدوا بدين الإسلام بلا خوف ولا وجل ، أو أن يتقبّلوا أي دين آخر من الأديان السماوية .

وعليه فان الإسلام لم يعمل بأي ضغط أو اكراه لاتّجاه الناس إلى الإسلام .

إن المبشّرين المسيحيين والذين استنتجوا من وجود الجهاد الإبتدائي أن الإسلام قد تقدّم بقوة السيف ، إنّ هذا الإستنباط مغرض وبعيد عن الواقع جداً .

« إنهم إن يستنتجوا هذه النتيجة الخاطئة من قانون الجهاد وغزوات رسول الإسلام ، فليس ذلك عجيباً ، بل العجيب الغريب أن أصحاب هذه الشبهة ليس لهم أي شغل شاغل إلاّ الحروب وسفك الدماء والسلب والنهب والإستثمار ، وحتى المقدسين والبابوات والرهبان منهم أوردوا من الضغوط وتفتيش العقائد على ما عدا المسيحيين ، والمسيحيين المعروفين بالإنحراف عن أفكار الكنائس وآرائها ، ما لم يكن بأقل وحشية من توحّش المغول والتاتار »[٣٤] .

إنّ عهد صلح « الحديبية » الذي عقده رسول الإسلام مع مشركي قريش ، كان لاستقرار السلام العام والأمن الإجتماعي في البيئة العربية بمكّة والحجاز ، وإنّ مواد هذا العهد تعكس روح الإسلام والأصول الإنسانية فيه ،

---

(٣٤) بالفارسية : اسلام مكتب مبارز ومولّد : ٩ .

وهو جواب دامغ بالنسبة إلى أولئك المغرضين الذين يحاولون أن يعلنوا أنّ السبب في تقدم الإسلام هو القوة والإكراه . كان من بنود هذا العهد المهم قوله : « وأنه من أتى محمّداً بغير إذن وليّه يردّه إليه ، وأنّه من أتى قريشاً من أصحاب محمّد لم يردّوه إليه » .

فلما أجابهم رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى الصلح أنكر عامة أصحابه ، وقال بعضهم : يا رسول الله ، ألسنا على الحقّ وعدونا على الباطل ؟

قال : نعم . قال : فنعطى الدنيّة في ديننا ؟

قال : إن الله قد وعدني ولم يخلفني . . . وقال : من جاءهم من رجالنا فلا حاجة لنا فيه ، ولكن على أن المسلمين بمكّة لا يؤذَون في إظهارهم الإسلام ولا يُكرَهون ولا يُنكَر عليهم شيء يفعلونه من شرائع الإسلام . فقبلوا ذلك »[٣٥] .

وكان كما قال رسول الله سيهيّىء لهؤلاء المسلمين المستضعفين في مكّة طريقاً لخلاصهم ، فقد جرت حوادث طلبت قريش على أثرها أن تُلغي هذه المادة من المعاهدة .

إن وجود الحروب والنزيف الدمويّ في مختلف نقاط العالم مظهر واضح من عجز الحضارة المادية عن بناء العالم على أساس القيم الإنسانية وتأمين السلام العالمي .

أما الإسلام فبالأصول العامة التي فيه بشأن الحرب والسلم ، قد حكم على عوامل نشوء الحروب الحاضرة وعلى جميع مؤجّجيها بالشجب بشدة ، ويشنع على جميع الحروب التي أقامها العالم المتحضّر في سبيل منافعه المادية واسترقاق الشعوب .

ولا شك في أنه ما لم تحكم القيم المعنوية والإنسانية أفكار المجتمع ،

---

(٣٥) بحار الأنوار ٢٠ : ٣٥٢ عن تفسير القمي ٢ : ٣١٣ وعن إعلام الورى في ٢٠ : ٣٦٢ .

ومنها تقييم حقوق الآخرين والإستسلام أمام الحقيقة ، فان من غير الممكن أن يرى العالَم تباشير السلام ، وفي عالَم تحطمت فيه المقاييس الأخلاقية والأصول الإنسانية لا يمكن أن نتوقّع وضعاً أفضل من الوضع القائم الآن .

كلّما تطوّرت الوسائل التكنولوجية والحضارة المادية ، وسعت الشعوب في إعداد أخطر الأسلحة الفتّاكة بحجّة أنها للحفاظ على سلامها عليها أن تكون مُعدة مستعدة ، تجّلت حقيقة هي أنّ على البشرية أن تختار لعاقبة أمرها أحد طريقين لا ثالث لهما : فامّا الإنهيار التام وذوب الشعوب في نيران الحروب ، أو الإيمان بالله والإتّجاه إلى الأصول الأخلاقية والإنسانية التي هي أرقى هدية من أنبياء الله إلى المجتمع البشري ، لكي تصرف البشرية كل تلكم القوى البدنية والفكرية في سبيل سعادتها بدل أن تصرفها في سبيل فنائها وعدمها . وعلى الإنسان أن يختار بين الله والضلال ، أو قل الفلاح والفناء أحد الطريقين .

ونحن نرى أن البشر سيجد يوماً قابليّة أن يتعرّف على كل أُصول التعاليم لقادة الإسلام الكبار ، ويتمكّن من أن يتمتع من المنبع الفيّاض في سبيل سعادته التامّة ، ذلك أنه ليس للبشرية أي مفرّ أو مناص من الضلال والإضطراب وبالتالي الضياع في الحياة سوى أن يتمسك بذيل عناية الإسلام ورعايته ، تماماً كما قال الفيلسوف الروسي الشهير « تولستوي » : « إن شريعة محمّد (ص) لتوافقها وانسجامها مع العقل والحكمة فإنها سوف تسود العالَم » !

مَكانَةُ الأُسرَةِ في الإِسلامْ

كما أنّ بدن الإنسان قد تركّب من وحدات مختلفة تربط بينها روابط طبيعية ، كذلك المجتمع البشري قد تشكل من وحدات صغيرة هي الأسرة ، فإذا ساد حسن التفاهم والعواطف الإنسانية على هذه الأعضاء العائلية ، فكانت هذه الأعضاء الأسرية بمثابة سلسلة متصلة تربط حلقاتها الإرتباط بل اتّحاد خاص ، كانت لدينا من ذلك وفي ظل هذا الإنسجام منظّمة صحيحة كاملة تامّة ، وبالتالي يتأسّس بذلك بناء مجتمع قويّ وسليم تتعبّأ قواه في مسيرة السعادة العامّة .

وعلى العكس فيما لو تلاعبت الفوضى بهذه الوحدات الصغرى التي تشكّل المجتمع فابتعدت عن مسيرة الإعتدال ، توقّفت عجلات المجتمعات الإنسانية عن النمو والتكامل ، وقطع التشتّت والتفرقة أواصر نظام المجتمع بعضها عن بعض .

إن الإنسان بمقتضى خلقته يحبّ البقاء ودوام الحياة ، وهو للوصول إلى هذه الطلبة الباطنية لا يأبى عمل أي سعي أو محاولة . وإن خير وسيلة وأيسرها إلى تأمين هذا الهدف الإنساني هو استمرار نسله لا نفسه ، فالولد جزء من كيان الإنسان وذيل حياته ووجوده ، وتبدأ مرحلة الإستجابة لهذه الطلبة الفطرية بتشكيل الأسرة والتعهّد بمسؤولية العائلة .

وإنّ شطراً مهمّاً من الفعاليات والمساعي لإدارة عجلات الحياة والنشاطات الإقتصادية إنما تتحقق وتتنجّز من خلال العلاقة بإدارة الحياة العائلية .

وهناك أساليب تفكير مختلفة في علل تواجد الأسرة : فالزواج وتشكيل الأسرة في نظر أولئك القائلين بأصالة الغرائز الجنسية إنما هي الوسيلة الوحيدة إلى تأمين الأهداف الجنسية وإرضاء الأهواء الشهوانية فقط ! وهناك طائفة أخرى لهم ميول نفعية إقتصادية فيضفون على الزواج والأسرة بصبغة إقتصادية فهم يزعمون بأن العلاقة الزوجية نوع من أنواع المعاملات التجارية بين الأسرتين والعائلتين ! وبين هذه الأساليب من التفكير وبين الهدف الأصيل من الزواج والذي هو ضرورة إجتماعية من أجل حفظ النوع وبقاء النسل ، فواصل كثيرة وكبيرة .

إنّ ذلك الصفاء المعنوي والعاطفي بين الزوجين يطرد احتمال صحة قصة العامل الإقتصادي الذي يُعد أكبر تهمة متجهة إلى الطبيعة الإنسانية والذي يعده البعض العامل الوحيد في حاجة المرأة إلى الرجل . فالرجل وإن كان بلحاظ المال والإقتصاد لا حاجة له إلى المرأة لكنّه لا يشعر بالنشاط والإنبساط في الحياة من دون زوجة معه . وهناك حقيقة تقول بأن هذا الإحساس الباطني بالحاجة شعور مُودع في أعماق النفس الإنسانية ، وإن كان هذا الهدف الأصلي مشوباً بالطلبات والميول الجنسية ومزيجاً بالأمور والجوانب المادية .

ويقول العالم الإجتماعي الألماني « مولير » بشأن علل الزواج :

« هناك عوامل ثلاثة دفعت بالأفراد إلى الزواج ، هي عبارة عن : الحاجة الإقتصادية (المادية) والهوى والغرام ، وطلب الأولاد . وهذه العوامل وإن كانت تتواجد في جميع المجتمعات ، لكن أهمّيتها كانت تختلف حسب اختلاف الأدوار والعهود ، ففي المجتمعات الأوليّة (البدائية) كان للعامل الإقتصادي (المادي) أهمية أكبر ، وفي بدايات المدنيّة البشرية كانت الأهمية لطلب الولد ، وفي الحضارات اليوم يحتل الهوى والغرام المقام الأهم »[1] .

---

(١) بالفارسية : جامعة شناسى ، ساموئيل كينگ : ٢٣٢ .

والإسلام بترغيبه في تشكيل الأسرة استجاب لنداء الفطرة الطبيعية كأفضل وسيلة للحفاظ على العفّة العامّة ، وعرّف الزواج بصفته الطريق المشروع الوحيد لطلب الأولاد الصالحين واستمرار النسل في الباقين :

﴿والله جَعَل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيّبات . . .﴾[٢] .

إن الإسلام يوصي مسؤوليّ الأسر والعوائل بأن يُعدّوا لتزويج الشباب البالغين ، للحدّ من انحراف الغريزة الجنسية لديهم عن مسيرتها الطبيعية ، ولإنقاذهم من ضغط هذه الغريزة .

فربّما بل كثيراً ما يتّفق أن الشباب غير المتوفّر لهم إمكانية تشكيل الأسرة يتعرّضون للفساد والضلال على أثر ضغط القوة الغريزية ، ولذلك فقد جعل الآباء والأمهات مسؤولين عن تزويج أبنائهم ، ورغّبهم كثيراً على العمل بهذه الوظيفة الإنسانية والوجدانية التي تورث استقرار الروح والحفاظ على الأخلاق والإيمان .

إنّ الإسلام يرى أنّ تشكيل الأسرة والعمل بأحكام الزواج هو السبيل الوحيد المشروع للمنع عن مفاسد الإفراط في الجنس ، ولإسعاد المجتمع الإنساني .

روى الصدوق في كتابيه : علل الشرائع ، وعيون أخبار الرضا عليه السلام بسنده عنه قال : « نزل جبرائيل على النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال : يا محمّد ، إنّ ربّك يقرؤك السلام ويقول : إن الأبكار من النساء بمنزلة الثمر على الشجر .

وزاد الكليني بحذف السند : إن الأبكار بمنزلة الثمر على الشجر إذا أدرك ثمارها فلم تُجن أفسدته الشمس ونثرته الرياح ، وكذلك الأبكار إذا أدركن ما يدرك النساء فليس لهنّ دواء إلاّ البعولة ، وإلاّ لم يؤمن عليهنّ الفساد لانهن

---

(٢) سورة النحل ، الآية : ٧٢ .

بشر .

فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله ، فمن نُزوّج ؟ فقال : الأكفاء . فقال : ومن الأكفاء ؟ فقال : المؤمنون بعضهم أكفاء بعض . المؤمنون بعضهم أكفاء بعض .

وزاد الصدوق : ثم لم ينزل (عن المنبر) حتى زوّج ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب المقداد بن الأسود الكندي ، ثم قال : أيها الناس إنما زوّجتُ ابنة عمي المقداد ليتضَع النكاح »[3] .

وروى السيد ابن طاوس في كتاب (الاستخارات) نقلاً عن كتاب (الرسائل) في رسائل الأئمة عليهم السلام لمحمّد بن يعقوب الكلينيّ ورواه الطوسي في (التهذيب) بسنده عن علي بن مهزيار الأهوازيّ قال : قرأت كتاب أبي جعفر عليه السلام إلى ابن أبي شيبة الأصفهاني ، وفيه : « فهمت ما ذكرت من أمر بناتك وأنك لا تجد أحداً مثلك . فلا تنظر في ذلك رحمك الله ، فانّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « إذا جاءكم من ترضون خُلُقَه ودينه فزوّجوه إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير »[4] .

إذن فالإسلام لا يعقّد مشكلة على طريق الزواج ، بل هو يفيد من هذه القوة الطبيعية (الجنسية) لمصلحة الحياة الفردية والإجتماعية ، وبالإضافة إلى ملاحظته للراحة الجسدية للإنسان في حياته الزوجية يريد أن يؤمّن في ظلال العلاقة الزوجية إحدى قواعد السعادة الإنسانية وهي الطمأنينة الروحية والفكرية والسكون الأخلاقي ؛ ذلك أنّ من كانت روحه مضطربة فانه لن يدرك القيمة الحقيقية للسعادة أبداً !

والإسلام يرى أنّ هذه العلاقة الإنسانية علاقة مقدّسة بين القلوب ، وهي من عوامل السكون والطمأنينة ، ومن أجل الحصول على الإستقرار والراحة ، ولكي يبني الطرفان في ظلّهما حياة سليمة هادئة ، ولذلك فهو يضفي عليها

---

(٣) وسائل الشيعة ١٤ : ٣٩ .

(٤) وسائل الشيعة ١٤ : ٥١ .

صورة نزيهة وطاهرة ، ويبذر في أعماق قلوبهما بذور المودّة والمحبة ، وينفخ فيهما روح الإنسانية ونسيم الرحمة :

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾(٥) .

إنّ الإسلام قرّر قوانين وأحكاماً من أجل تحكيم العلائق بين أعضاء العائلة الواحدة وبين العوائل والأسر بعضها ببعض ونظّم علاقاتهم بأسلوب دقيق عميق .

عبّر عن الزواج بقوله سبحانه : **﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾**(٦) وقد أبعد عن نظرته إلى الزواج كل المسائل المادية (تقريباً) وقد قسّم الوظائف والتكاليف لإدارة هذه المؤسسة أو المنظمة بصورة عادلة بين الطرفين ليتمتع أعضاء العائلة بوحدة معنوية وصورية ولتدور روابطهم حول محور الوحدة التامّة ، بحيث يتعهد كل منهم بمقتضى استعداده ومهارته في فنّه بإدارة شطر من أمور الحياة العائلية :

﴿ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف﴾(٧)

وقد لاحظ في صعيد العمل والشغل كل الإمكانيات الطبيعية وفطرة كل من الرجل والمرأة بصورة دقيقة ، فمن جانب يتعهد الرجل بالشؤون الإقتصادية والإنتاج المادي وسائر الأمور المتعلقة بذلك ، ومن جانب آخر تتقبّل المرأة التوليد الإنساني وتربية النسل والإشراف على أمور الأسرة كوظيفتها الأصلية .

إن الإسلام جعل المرأة بذلك تتعهد بوظيفتها الفطرية ، ولم يبخل عليها بحمايتها والدفاع عن حقوقها بهذا الشأن ، وهو يمنع من أن تفسد فيها أبعادُها الطبيعية ، وأن تذهب سدى مساعيها وأتعابها ولحمة محاولاتها المستمرة في داخل الدار وخارجه متقطعة منهكة ومبعثرة .

---

(٥) سورة الروم ، الآية : ٢١ .
(٦) سورة النساء ، الآية : ٢١ .
(٧) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٨ .

نعم هو يجوّز لها أن تقدم المرأة على أعمال أُخرى خارجة عن شؤون البيت والدار ، حسب الحاجات الإجتماعية أو حاجاتها الفردية ، ولكنّه لا يجوّز أبداً أن تقوم علاقات المرأة والرجل في ساحة المجتمع على أساس التمتع والأهواء الشهوانية الحيوانية فتبرز المرأة بصورةٍ محركة مهيّجة للرجال في مجال المجتمع وتُباشر الرجال مباشرة جنونية لا نتيجة لها سوى إثارة ما يورث الفتنة والشر والفساد والضلال والضياع .

لا شك في حاجة كل منظمة إلى الوليّ والقيّم ، والأسرة والعائلة منظمة لا تستغني عن مقام مسؤول ووليّ قيّم ، وإلاّ فانّ المنظمة من غير مسؤول ستُصاب بالفوضى وتنجرّ إلى الفناء والدمار . ولهذا فلا بدّ من أن نعهد برئاسة الأسرة وولايتها وقيمومتها إلى واحد من الرجل أو المرأة ، والآن لنلاحظ أن أي واحد من الرجل والمرأة كفؤ لهذه الولاية والقيموميّة .

والرجل أجدر من المرأة بقبول المسؤولية عن هذه المنظمة وعن إدارة شؤون الأولاد والقيام بوظائف الولاية وتحمّل عبء القيموميّة الثقيل ، بل هو الوحيد الذي بإمكانه أن يتحمّل ثقل المسؤولية بقدرة واستقامة فيحفظ كانون الأسرة من الفوضى .

لقد ثبت أنّ الأنثى أكثر تأثراً بالعواطف ، فهي بالنظر إلى نفسيّتها قد خُلقت بحيث تكون العواطف أعمق أثراً وأشد في ضميرها ، بحيث تتأثر وتتهيّج بالأحاسيس أسرع من الذكر ، بينما الرجل بالنظر إلى فطرته وطبيعته أطوع للعقل وأقرب .

وعليه فان « الفكر » أحرى من « العاطفة » بقبول المسؤوليات ، ولهذا فقد اختار الإسلام الذكر لرئاسة الأسرة[٨] ولا منافاة بين هذا وبين المشاورة والتفاهم التام بين الزوجين ، ولا يمكن أن نستنتج من ذلك أن للرجل أن يسلك في محيط الأسرة سبيل الإستبداد والديكتاتورية كيفما يشاء ، فمع أن الإسلام أودع هذه الولاية إلى عهدة الذكور منعهم في نفس الوقت عن أي ظلم أو

(٨) وقد صرّح القانون الفرنسي في المادة ٢١٣ بقوله : إن زعامة الأسرة على عهدة الذكر .

اجحاف بالنسبة إلى النساء :

﴿وعاشروهنّ بالمعروف﴾[9] .

صحيح أن مسؤولية أُمور الأسرة على عهدة الرجال ، ولكن لها في محيط البيت الإستقلال الداخلي ، فهي المسؤولة عن تنظيم وسائل العيش وتربية الأولاد ، فقد روي عن رسول الإسلام صلّى الله عليه وآله قوله :

« الرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم ، والمرأة راعية على أهل بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم »[10] .

أما ما نراه من أن العلاقات الزوجية في عصرنا هذا أصبحت رخيّة هيّنةً بلا دوام حتى أنها أصبحت تضمحل بكل سهولة بحوادث صُغرى وبلا أهميةً . . . فذلك لعلةٍ هي أن في مثل هذه الزيجات لا تلاحظ واقعيات الحياة ، وأنها إنما كانت مبنيّة منذ البداية على أساس سلسلة من الأفكار والرؤى والتصورات الصبيانية غير الناضجة .

هناك الكثير من الناس لا ينظرون في زواجهم إلى الإنسجام في الأفكار والتلاؤم في الروحيّات بين الرجل والمرأة ، بل يسعون وراء الثروة والشهرة وسائر العناوين الوهمية والظواهر المغرية ، ثم هم يغضّون عن القيم المعنوية والروحية ويسحقون مصالحهم الواقعية بأرجلهم ؛ فطبيعي أن يكون لهكذا زيجات مستقبل مظلم مؤسف ، فانّ التناقض الفكري والروحي العميق بين الرجل والمرأة يجعلهما كقطبين متخالفين متقابلين متواجهين وجهاً لوجه ، وسيزيد يوماً بعد يوم في عمق الإنفصام والخلاف بين الطرفين ، وسيولّد بينهما نوعاً من الفوضى وعدم الإلتئام . إن حصول الإستقرار الروحي والفكري في الحياة العائلية والتقوى بين الطرفين ، وإنّ ملاحظة شرائط المحيط والبيئة والجوّ العائلي لتربية المرأة ، والتوافق بين أفكار الطرفين وأخلاقهما ، من العوامل المهمة في تحكيم بناء الأسرة جداً .

(٩) سورة النساء ، الآية : ١٩ .

(١٠) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بمجموعة الشيخ ورّام بن أبي فراس : ٦ ، ط . طهران .

ما لم يكن للطرفين أفكار أُصولية مقدّسة ، وما لم تُلاحظ مسائل الحياة الحقيقية بمنظار صحيح فان الإضطراب والقلق سيزداد بينهما يوماً فيوماً .

والإسلام بالنظر إلى كل المفاسد التي تحصل في هذا السبيل يطرد بشدة أُسلوب التفكير هذا (الماديّ) الذي لا ثمرة له سوى البؤس والتعاسة والشقاء والنزاع والإختلاف . إن الإسلام لا ينظر في تشكيل الأسرة إلى الثروة والشهرة والظاهر المُغري والأمور المادية ، بل انه يقرّر الزواج على محور الإيمان والفضائل والعفة والنزاهة ، فهو يلاحظ الصفات والمزايا الروحية وطهارة النفس والتقوى في الذكر والأنثى بصورة خاصة .

روى الطوسي في (التهذيب) بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال : « من تزوّج امرأة لا يتزوّجها إلاّ لجمالها لم ير فيها ما يحب ، ومن تزوّجها لمالها لا يتزوّجها إلاّ له وكله الله إليه . فعليكم بذات الدين »[11] .

وكما رغّبت النصوص الإسلامية في الزواج وتشكيل الأسرة على مبنى الدين حتى :

روى الصدوق في (كتاب من لا يحضره الفقيه) بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال : « ما بني في الإسلام أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من التزويج »[12] .

وقد أنكر بشدة على الذين يمتنعون عن تشكيل الأسرة لعلل غير صحيحة ولا معقولة ، ويستنكر كل ذريعة تؤدي إلى الضلال والإنحراف في القوى الجنسية :

فقد روى الكليني في « فروع الكافي » بسنده عن الصادق عن علي عليهما السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « من أحبّ أن يتّبع

---

(١١) وسائل الشيعة ١٤ : ٣١ عن التهذيب للشيخ الطوسي ٢ : ٢٢٦
(١٢) وسائل الشيعة ١٤ : ٣ عن الفقيه ٢ : ١٢٣ .

سنّتي فانّ من سنّتي التزويج »[١٣] .

وروى الصدوق في (الخصال) بسنده عن علي عليه السلام قال : « تزوّجوا فانّ التزويج من سنّة رسول الله ، فانه كان يقول : من كان يحب أن يتّبع سنّتي فان من سنّتي التزويج »[١٤] .

ونقل المحدث القميّ في « سفينة البحار » عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال : « النكاح من سنّتي فمن رغب عن سنّتي فليس مني »[١٥] .

ولا يوافق مع إحداث العلاقة الزوجية مع مفتقدات الكمالات والفضائل النفسانية ، ولا يرى من الصالح الزواج من أسر وعوائل تعوزهم النجابة والذين لا حظّ لهم من التربية الأخلاقية والدينية :

فقد روى الكليني في « فروع الكافي » بسنده عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قام خطيباً فقال : « أيُّها النّاس ، إيّاكم وخضراء الدمن ، قيل : يا رسول الله وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في منبت السوء »[١٦] .

وطبيعي أن هكذا أزواج لا يتقيّدن بالأصول والقوانين الأخلاقية والدينية سوف لا يؤمنّ سعادة الأسرة ، ومن الطبيعي أن نتيجة هكذا زيجات ستكون أولاداً يفتقدون الطمأنينة والإستقرار الروحيّ .

فالإسلام له عناية خاصة بتأمين السعادة للطرفين ، وهو بنهيه عن الزواج من الأسر المنحطة أخلاقياً والمتلوّثة بالآثام حاول الحدّ من تواجد جيل فاسد ومنحرف . فلو أنّ الشباب حين اختيارهم لأزواجهم كانوا يلاحظون الأمور الواقعية والحيوية على أساس المقرّرات والقوانين الإسلامية بدلاً من ملاحظة

---

(١٣) وسائل الشيعة ١٤ : ٦ عن فروع الكافي ٢ : ٥ .
(١٤) وسائل الشيعة ١٤ : ٣ عن الخصال ٢ : ١٥٧ .
(١٥) سفينة البحار ١ : ٥٦١ .
(١٦) وسائل الشيعة ١٤ : ٢٩ عن فروع الكافي ٢ : ٥ والفقيه ٢ : ١٢٦ والتهذيب ٢ : ٢٢٧ .

الظواهر المغرية ، وكانوا يجتنبون اتباع الأفكار الخاطئة والأهواء الفانية ، لكانوا يأمنون بذلك من البؤس والتعاسة والشقاء والإضطرابات العائلية التي قد ضيّقت الخناق على الكثير من أتباع الأهواء والشهوات .

يزعم بعض شباب عصرنا هذا أنّ الطريقة الصحيحة لاختيار الزوجة هي أنهم من خلال المعاشرة والسلوك يحصلون على الزوجة الموافقة والمثاليّة ، وبهذه الطريقة يؤمّنون سعادة الحياة المشتركة . . . في حين أنّ هذا السلوك الإختباري بالإضافة إلى ما فيه من مفاسد وأضرار ليس طريقاً مفيداً لتشخيص الخصائص والصفات الروحية للتي يختبرونها هكذا للزواج بها ، فان معرفة مزايا كل أحد وصفاته الأخلاقية تستلزم مرور زمان ومعاشرات طويلة ، ولا يمكن أن نصل إلى زوايا وأعماق طبائع الخلائق في طيّ معاشرة قصيرة غير ممتدة . ثم إن هناك إمكانيات واستعدادات وروحيات لشخصية كل فرد سوف تظهر بسبب حوادث الحياة ، إن الحياة بمختلف أصعدتها وساحاتها هي التي تبدي الشخصية الروحية الباطنية لأي إنسان ؛ فالصبر والحلم ، والأناة والمتانة ، والتحمّل والقناعة والفداء والتضحية انّما تتجلّى ضمن ضغوط الحياة ولا تحصل هذه الصفات والمزايا إلاّ فيها ، وإلاّ فكيف ندرك هكذا خصائص أخلاقية في عهود السرور والإستقرار وتجوال الراحة والنزهة ؟! فهل أن اللقاء في محيط السينما مثلاً أو المنتزهات يمكن أن يصبح مقياساً للتعريف بروحيات الطرفين بعضهما لبعض ؟! بينما يسعى الطرفان في المعاشرات البدائية أن يغطّيا على ما فيهما من نقائص ونواقص ، وحتى أنهما سيصطنعان لأنفسهما بعض الحالات الخيرة والجيدة والحميدة .

هل إن الشباب وهم في أشد أدوار الإنفعالات الغريزية وأكثرها قلقاً واضطراباً وتموجاً وهياجاً يمكنهم أن يلاحظوا عدم وجود أية نقاط ضعف واختلاف روحي بينهم ؟ بينما هم في دور من الشباب لا يفكّرون فيه بشيء سوى إشباع الأطماع الجنسية وتحقيق أحلام هي من قبيل الأوهام !

هل أن الشباب الذين يختارون أزواجهم بأساليب السلوك والمعاشرة يأمنون حتى آخر أعمارهم من الخلافات والمشاجرات فيما بينهم ؟! وهل

سيتمتعون في ظل هـذا الزواج بحيـاة سعيدة بعيـدة عن أي مشاجـرة وعن أيّ خلاف رغبة ؟! بل إنّ حوادث الحياة وواقعياتها تثبت خلاف ذلك .

فكم من زيجات من هذا القبيل يدرك كل واحد منهم المعايب والنواقص والنقائص في الطرف الآخـر تدريجيـاً ، في حين لم يعثر أي واحـد منهما في المراحل الإبتدائية حتى على واحدة من تلك المعايب والنواقص والنقائص .

على كـل شـاب أن يعلم بحقيقـة هي أنّـه من المشكـل جـدّاً بـل من المستحيل أن نحصل على التوافق وانسجام روحي من كل الجهات والجوانب بين نفرين من البشر ، كما انّ الإتّحاد في كل الجوانب الظاهرية الشكلية بعيدٌ بل ممتنع . أضف إلى أن تلك العواطف والأحاسيس المختلفة المتواجـدة في أسلوب تفكيـر المرأة وآرائهـا تبعد بهـا شيئاً مـا عن أسلوب الفكر والعمـل من الرجل سواء شئنا أم أبينا .

نعم نظراً للأهمية التي يوليها الإسلام للزواج يجوّز للرجل أن يرى ظواهر مخطوبته قبـل وقوع العقـد ، ويسمح لـه أن يحصل على خصـائصها الـروحية والأخلاقية من خـلال الناس المـطّلعين عليها حتى الإمكـان ويستثني ذلك من التجسّس الحرام والغيبة المحرّمة .

إن سعادة الأسرة ترتبط في الدرجـة الأولى بكيفية روابط المـرأة بالـرجل وتعـايشها السلميّ ، فكلمـا كـانت الأواصـر الـروحيـة والأخـلاقيـة بين هـذين العضـوين الأصليين أثبت وأوكد وأوطـد ، كانت السعـادة في ذلك البيت أكثـر بنفس النسبة .

والسعادة الواقعية تحصل على أثر الملكات الأخلاقية والفـداء والتضحية بين الزوجين ، وحقّاً إن لين الكلام والسخاء والعفو والفداء هي التي تمنع بناء الأسرة عن التزلزل والإنهدام .

إن الإسلام بالإضافة إلى القوانين والقرارات الشاملة التي وضعها للرجل والمرأة في محيط الأسرة ، وبالإضافة إلى تعيينه المسؤوليـات والوظـائف لكل منهما بطريقة عادلة . . . يسوق الأسر والعوائـل بسلسلة من التعاليم الأخـلاقية

القيّمة باتجاه السعادة الواقعية والحقيقية .

فهو من جانب يوصي الرجل أن لا يبخل بالنسبة إلى أسرته بأيّ إحسان :

فقد روى الصدوق في (كتاب من لا يحضره الفقيه) عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال :

« ألا خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائي » أو قال : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي »[١٧] .

وهو من جانب آخر يَعدّ حسن السلوك مع الزوج « جهاداً مقدّساً » للمرأة :

« جهاد المرأة حسن التبعّل »[١٨] .

ومن العوامل المهمة في العصر الحاضر التي سبّبت في ركود عملية تشكيل العوائل والأسر بين الشباب وتقليل أرقام الزيجات ، هي المهور الثقيلة والتشريفات الكثيرة والمصاريف الباهظة ، فإذ لا يقدر كثير من الشباب على تحمّل هكذا مصاريف يحول ذلك دون الإقدام على الزواج .

إنّ كل هذه القيود الإجتماعية الزائدة والتي لا أساس لها على صعيد تشكيل الأسرة لا تنطبق مع أهداف الإسلام ، فالإسلام يسّر حصول هذا الأمر الحيويّ كثيراً من أجل تحقيقه بسهولة ، وكافح كل العوامل التي من شأنها أن تمنع الناس عن العمل بهذا التكليف ، فيأمر بتقليل المهر وتيسير مقدّمات الزواج :

فقد روى الكليني في « فروع الكافي » بسنده عن الصادق عليه السلام عن النبيّ قال :

---

(١٧) وسائل الشيعة ١٤ : ١٢٢ عن الفقيه ٢ : ١٤٢ ، ١٨٣ .

(١٨) وسائل الشيعة ١٤ : ١١٦ عن فروع الكافي ٢ : ٦٠ والفقيه ٢ : ١٤١ والخصال ٢ : ١٦١ .

« أفضل نساء أمّتي أصبحهنّ وجهاً وأقلّهنّ مهراً »[١٩] .

ولا ريب أن المرأة عند حدوث الخلاف بينها وبين زوجها تعتمد على « مهرها الثقيل » فتبدي أمامه الصعوبة واللجاجة ولا تكون مستعدة للعفو والصفح ، ولعل كثيراً من هذه الخلافات تؤدي إلى انحلال كانون الأسرة وواضح كم يكون هكذا زواج شؤماً .

روى الكليني في « فروع الكافي » بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام قال :

« جاءت امرأة إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم فقالت : زوّجني .

فقال رسول الله : مَن لهذه ؟ فقام رجل فقال : أنا يا رسول الله زوّجنيها . فقال : ما تعطيها ؟ فقال : ما لي شيء . فقال : لا .

ثم أعاد رسول الله الكلام ، فلم يقم أحد غير الرجل .

ثم أعادت . فقال رسول الله (للرجل) : أتُحسن من القرآن شيئاً ؟ قال : نعم ، قال : زوّجتكها على ما تُحسن من القرآن فعلّمها إياه »[٢٠] .

فالإسلام لا يرى المشاكل المالية تمنع عن تشكيل الأسرة ، ولا يسبّب الحرمان الماليّ لحرمان آخر للطبقة الفقيرة في الحياة ، بل يسمح للفقراء الذين لا مال لهم أن يفيدوا من قانون تشكيل الأسرة بما لديهم حتى ولو كان تعليم بعض السور القرآنية .

إن الاستيحاش من الفقر والمشاكل المالية من العوامل التي تسبّب في أن يتخلّى كثير من الناس عن تحمل عبء هذا الأمر الحيوي فلا يتحمّلوا ثقل الزواج ، بينما الإسلام لا يرى هذه الذرائع حججاً مانعة عن وقوع الزواج ، بل يؤمّل الناس بأن الله يجبر فقرهم بزواجهم فيقول : ﴿وأنكحوا الأيامى منكم

---

(١٩) وسائل الشيعة ١٥ : ١٠٠ عن فروع الكافي ، والصدوق في الفقيه ٢ : ١٢٤ والتهذيب ومعاني الأخبار : ٤٩ .

(٢٠) وسائل الشيعة ١٥ : ٤٢٣ عن فروع الكافي ٢ : ٢١ والتهذيب ٢ : ٢١٤ .

والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾[٢١] .

لا ريب أن حاجات الحياة تدفع بالإنسان إلى النشاط والسعي الدؤوب ، وحينما يتعهد الفرد بمسؤولية الأسرة فإنه لإدارة حياته وقضاء حاجاته وحاجات أسرته سوف يزيد في فعّالياته ونشاطاته ، ولهذا فمن الصحيح أن نرى الزواج أحد عوامل التقدم والرّقي على صعيد الحياة .

أما في بلدان الغرب من العالم المتحضّر فإنّ الإنحلال الجنسيّ قد سبّب في تقليل علاقة الشباب وميلهم إلى تشكيل الأسرة وعدم اعتنائهم بفطرتهم وطبيعتهم فضلاً عن معنويتهم ، وهم بذلك سيسحقون هذا الأصل الإجتماعي الضروري لسلامة المجتمع . إن انتشار وسائل العيش واللذة والحرية اللاّمحدودة ورفع الحواجز قد غيّر محاور حياة الشباب وصعّد من مستوى الإنحرافات فيهم كثيراً .

إن تقليل أرقام الزواج وزيادة الخلافات العائلية وزيادة الطلاق شواهد ناطقة بتزلزل كيان الأسرة في العالم الغربي .

كتب العالم الإجتماعي الشهير « ويل دورانت » يقول :

« حيث أن الزواج لا يقع في مجتمعنا الحديث بمعناه الصحيح ، إذ يقع على أساس العلاقة الجنسية فقط لا الشعور بالأبوة ، لذلك فهو ينجر إلى الإنحلال بسرعة ، ذلك أن هكذا زيجات تفتقد العلاقة بالحياة وحبّ النوع ستنحلّ بسرعة ، وحينئذٍ تصبح المرأة والرجل ـ وكأنهما جزءان منفصلان مستقلان ـ يعيش كل واحد منهما لنفسه ، وبالتالي يتبدل حبّ النوع ـ المتمثل في العشق ـ إلى حبّ الذّات والظواهر الكاذبة .

وعندئذ يعود إلى الرجل الميل إلى أن يجد كل يوم لنفسه طُعمة جديدة ، حيث انه يفتقد ذلك الإنس الخاص الذي كان يخفّف من همومه ويمنحه الإستقرار ، لا يجد من زوجته شيئاً جديداً غير ما كان لها وعرضته له حتى اليوم . . .

---

(٢١) سورة النور ، الآية : ٣٢ .

نحن نسبح في خضمّ التغييرات ، وسينتهي مصيرنا إلى حيث لا اختيار لنا فيه .

إنّ من الظواهر التي تبدو اليوم مع كل هذه الأمواج العاتية في تحديث السنن والرسوم والأنظمة هو أن تشكيل الأسرة قد اتّجه في مدننا الكبرى إلى حيث الزوال ، إن الزواج الذي كان يقنع الرجل بالتفكير في زوجة واحدة قد فقد أهميته ، ولا ريب أن عدد الزيجات التي تقع على أساس اللّذّة فقط في ازدياد واطّراد يوماً فيوماً . . .

ومع أن الرجل هو الذي يتمتع في هذه الزيجات بحرية أكثر ، لكنّ المرأة تدعم هكذا زيجات أيضاً لانها تراها أفضل من الوحدة والعُزلة بلا صديق ولا رفيق .

أجل سيحدث اختلال شديد في صعيد الزواج الأصيل ، وستصبح الأنثى تبعث الذكر على القلق والإضطراب وعلى أن يجرّب أحدهما الآخر قبل الزواج ، ثم بازدياد الطلاق سيحدث ضحايا الطلاق والأسر المنكسرة اغتشاشاً شديداً في البلدان ، مما سيجعل أسلوب الزواج على صورة حديثة لا نعرفها اليوم »[٢٢] .

إن الذين يبحثون اليوم بحرارة عن حرية المرأة في الغرب ، لا علم لهم بالنهضة الفكرية الإسلامية بشأن المرأة والتي كانت قفزة ثورية حسب شرائط المحيط يومئذٍ ، وإنّ من يدرس واقع هذا الدين وروحه وتاريخه بعضها مع بعض يدرك تماماً أن الحضارة الغربية ما زادت على القفزة الثورية الإسلامية شيئاً بشأن المرأة سوى الحرية الأكثر لمفاسد الأخلاق والإنحلال والميوعة والمجون .

بينما الإسلام يمنع عن نشر الفساد والإنحلال والميوعة والمجون والإبتذال الخلقي ولكن هل أن منع المرأة عن ذلك يحول دون تقدمها وتطوّرها ؟ وأيّ هذه الأمور تسبّب في كرامتها ورفعة شخصيتها وتساميها ؟!

---

(٢٢) بالفارسية : لذات فلسفه .

إن الإسلام يرى أن الرجل والمرأة قد قدما إلى دائرة هذا الوجود كي ينالوا المدارج الإنسانية السامية والكمالات الروحية والمعنوية ، وهو خلافاً للكتب المحرّفة من اليهود والنصارى إذ تقول : لا يوجد بين كل ألف من الرجال رجل من أولياء الله ، ولا يوجد بين جميع نساء العالَم حتى امرأة واحدة تكون موضع عناية إلٰهية خاصة(٢٣) . هو يقول : لا ميزة لأيّ من الذكر والأنثى بعضهما على بعض ، إنّما مقياس امتياز الأفراد من الذكر والأنثى المزايا الروحية والأعمال الصالحة ، وسيرون ثمار أعمالهم ونتائجها يوم القيامة على قدم المساواة ، وكذلك أمّل كل واحد منهما في العفو والمغفرة والإحسان :

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾(٢٤) .

إن الذكر والأنثى في نظام الإسلام يكمل أحدهما الآخر والظرافة والخشونة وسائر الأوصاف لا توجب مزيّة لأحدهما على الآخر :

﴿ . . . فاستجاب لهم ربّهم أنّي لا أُضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أُنثى بعضكم من بعض﴾(٢٥) .

فكم هناك من النساء من نالت مراتب إنسانية سامية بل بلغت إلى غاية مراحل السعادة بطاعتها لحكم العقل وامتلاكها للفضائل الأخلاقية ، وفي المقابل كم هناك من الرجال من سقط في هوة التعاسة والشقاء باتّباعه لميوله وأهوائه وانحرافه عن أحكام العقول .

لقد تطوّرت شخصية المرأة بعد طلوع الإسلام إلى مكانة أصبحت تشرف على أعمال الحكومات وأوامرها وسلوكها وتتدخّل في ذلك . يشهد لذلك هذا النموذج التاريخي الذي يرويه السنّة والشيعة يقولون :

نقل ابن الجوزي في « المنتظم » قال : صعد عمر « رضي الله عنه » المنبر فقال :

---

(٢٣) بالفارسية : تمدن اسلام وعرب : ٥١٩ نقلاً عن الكتاب المقدّس .
(٢٤) سورة النحل ، الآية : ٩٧ .
(٢٥) سورة آل عمران ، الآية : ١٩٥ .

« أيها الناس ، لا تزيدوا في مهور النساء على أربعمائة درهم ، فمن زاد ألقيت زيادته في بيت مال المسلمين » فهاب الناس أن يكلّموه .

وقامت امرأة في يدها طول فقالت : كيف يحلّ لك هذا والله يقول :

﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذ منه شيئاً﴾[٢٦] .

فقال عمر « رضي الله عنه » : « إمرأة أصابت ورجلٌ أخطأ »[٢٧] .

وحينما نقيس هذه الحادثة وما يشابهها بالوضع المؤسف للنساء قبل الإسلام ندرك جيّداً مدى التفات الإسلام إلى شخصية المرأة واستقلالها ، حتى أن المرأة تُطلق لسانها أمام الخليفة بالإعتراض عليه وعلى قراره ، حتى تحمله على أن يعترف في الملأ العام بخطئه واشتباه الأمر عليه ، وتجعله يصرف النظر عن قراره المخالف لنصّ كتاب الله الكريم .

أجل ، هذا هو الإسلام الذي سحب الرجال وأنزلهم عن رتبة مالكيّتهم لرقبة المرأة فأنقذ بذلك النساء عن قيد الأسر والرقيّة ، ثم أثبت تساويهما في مرتبة الإنسانية .

إن المساواة التي قرّرها الإسلام بين الرجل والمرأة في أصل الإنسانية والحقوق المتعلقة بنفس هذا الأصل مساواة فطرية طبيعية ، أما التساوي المطلق في الذّات والماهية وفي الوظائف وتكاليف الحياة وأساليبها فهي مما لا يمكن إلاّ في عالَم الخيال والوهم ثم لا تتحقّق في عالم الواقع الخارجي أبداً .

إن الإسلام في تشريعه ناظر إلى الحاجات الطبيعية والفطرية للبشر ولهذا فقد ساوى بين الرجل والمرأة في الموارد التي يكون تساويهما فيها منطبقاً مع الفطرة والطبيعة ، وفيما لو كان المنطبق مع الفطرة والطبيعة تفاوتهما فيه قال بتفاوتهما فيه .

أما القوانين في الدول الأوروبية المتحضّرة فقد كانت تحرم المرأة عن

---

(٢٦) سورة النساء ، الآية : ٢٠

(٢٧) الغدير ٦ : ٩٥ ـ ٩٨ .

جميع حقوق الملكية والتصرف في الأموال :

في القانون الذي وضع في بريطانيا في سنة ١٨٥٠م لم تعد المرأة من أتباع البلاد ، ولم يكن لها حق الملكية ، حتى أنها لم تكن تملك الملابس التي عليها . وأصدر « هانري الثامن » مرسوماً منع فيه النساء عن قراءة الكتاب المقدس(٢٨) .

وفي سنة ١٨٨٢م صدر قانون في بريطانيا استحقت النساء به عدة امتيازات لا نظير لها من قبل ، منها أنه يحق لها أن تصرف ما تحصل عليه كيفما تريد ولا تجبر على تقديمه إلى زوجها !

بينما قد أثبت الإسلام الإستقلال الماليّ للمرأة وحقّ الملكية وانواع التصرفات منذ أربعة عشر قرناً من دون رقابة الرجل وقيمومته عليها ، وأعطاها الحقّ في أن تعمل فيما تحصل عليه من الأموال من طريق الكسب والتجارة أو الهبة والهدية ، وما شاءت من التصرفات من دون أن تكتسب لذلك إذن زوجها أو أيّ شخص آخر . وهذا حقاً من مفاخر الإسلام :

﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبنّ﴾(٢٩) .

وبالإضافة إلى الحقوق المتعلقة بالملكية فقد أمّن الإسلام شخصية المرأة واستقلالها وحرّيتها في مسألة الزواج الذي هو أهمّ مسائل حياتها وأكثرها حسّاسية ، وقرّره حقاً مطلقاً من حقوقها وباختيارها وإرادتها ، فهي التي بإمكانها أن تختار الرجل الذي تريده .

أجل ، لقد أعطى الإسلام هذه الحقوق للمجتمع النسوي منذ ظهوره ، بينما حصلت نساء أوروبا على هذه الحقوق والمزايا قبل قليل من السنين بحكم الضغط والضرورة .

وعلى ما مرّ نقول : ليست هناك أية مشكلة من المشكلات التي تتعلق بحياة المرأة ومكانتها وشخصيتها لم يحلّها الإسلام على أحسن الوجوه .

---

(٢٨) عن روح الدين الإسلامي لعبد العفيف طبّارة : ٢٣١ .
(٢٩) سورة النساء ، الآية : ٣٢ .

واليوم وإن كانت حالة كثير من النساء في الشرق حالة غير مرضية ، ولكنّ هذا النقص ليس من نقص في النظام والقانون الإسلامي ، بل إن عمدة الإشكال في الأمر يتعلق بالأوضاع السياسية والإجتماعية والإقتصادية وكذلك النظام اللاّإسلامي الذي يسود مجتمع المسلمين اليوم ، ولذلك فان علينا أن نفتّش عن منشأ هذه النقائص في تلك الأمور لا الإسلام .

فالفقر العام أحد علل الإضطراب في أوضاع النساء في المشرق ، وإنّ المظالم الإجتماعية جعلت جماعة في غاية النعمة والرفاهية ، بينما قذفت بجماعات أخر في لهوات البؤس والتعاسة والشقاء والجوع ، وهذه المظالم قد سلبت قوة المقاومة والتحمل في الرجال ، فما يحملونه من عُقد الفقر في المجتمع وأحوال معيشتهم يفجّرونها برؤوس أزواجهم وأولادهم فيصبّون جام غضبهم وعنادهم في محيط الأسرة .

والمسكينة المرأة في هذا الوضع لا تقدر على أن تفيد من حقوقها فتحدّ دون تجاوز الرجل وعدوانه ، فهي تخشى أن ينتهي أمرها إلى الإنفصام والطلاق ، ثم لا يقدر أقرباؤها أن يجعلوها تحت حمايتهم وفي كفالتهم .

ولا ريب في أن الفضائل الأخلاقية لا يمكن أن تُراعى في مجتمع الفقراء والمحرومين ، فالعواطف الإنسانية السامية تنعدم فيه ، وتحتل القوة والجور كل مكان للملكات والفضائل الأخلاقية .

وعليه فانّ أول عامل جعل النساء في الشرق في هذا الوضع المأساوي هي مشكلة الفقر .

وليس محلّ أي تردّد في أنه ليس النظام الإجتماعي الإسلامي هو الذي أحدث كل هذا الإضطراب واليوم الأسود للمرأة لم يحدث من ناحية أحكام الإسلام .

إذ الإسلام هو النظام الذي يكافح الفقر والجور ، ويوزع الثروات العامة بين طبقات الناس على أساس العدل ، ويحرّم الإسراف والتبذير ، وينفي المظالم الإجتماعية والفواصل الطبقية ، ولا يدع الجور في المجتمع ويجعل الرجل تحت التعذيب بسياط الحرمان ، حتى يهجم بالجور على زوجته وأولاده

نتيجةً للعُقد الكامنة في نفسه ، والمرأة تنصرف عن المطالبة بحقوقها خوفاً من السقوط في لهوات الفقر والحرمان .

أفهل لعاقل منصف أن يدّعي أن هذه العُقد المتراكمة في أعماق قلوب الفقراء من الرجال والتي تسبّب في أن يجعلوا أزواجهم وأولادهم وأعضاء عوائلهم تحت ضغط الحرمان . . . يدّعي أن هذه من الإسلام في شيء ؟!

أفلا تبتنى أحكام الإسلام على أساس تهذيب النفس ورعاية العدالة والإكرام والمحبة بكل الناس ولا سيّما أعضاء الأسرة الواحدة ؟!

كان هذا هو الإسلام الذي أنقذ النسوان عن الوضع المؤسف والمنحط الذي كنّ فيه ، وبذلك أحرزن في ظل نظامه مكانتهنّ ومقامهن اللائق بهنّ .

والآن لنلاحظ ما للمرأة من القيمة والمكانة في العالم المتحضّر اليوم ؟

لم ترتفع موقعيةَ المرأة ومكانتها في عصر حضارة البشر ، بل انحطّت أكثر ، إذ تُعدّ المرأة في العالم المعاصر لاطفاء الشهوات الحيوانية للرجال ، ويستفاد منها للدعايات المختلفة وكوسيلة للتسلية من قبل السينما والتلفزيون ولبيع البضائع .

فليس اليوم مقياس شخصية المرأة وشهرتها الفضائل الأخلاقية والمعلومات الكافية ، والمتّقيات منهنّ مجهولات ، والكرامة والشهرة والربح الفائض لنساء يسمين أنفسهن « بالفنانات » وهنّ لا يؤدّين أيّ عمل إيجابيّ في المجتمع ، ولسن مصادر خير للناس بل يرتكبن باسم الفن آلاف المفاسد ومنافيات الفضيلة والتقوى والشرف .

وإليك بيان عالم أمريكي يشكو من ابتذال مجتمعه وتبعيته للأهواء والإنحرافات الفكرية قائلاً : « إنّ المرأة التي تبدي صدرها المكشوف للناس تكتسب يومياً مليون دولاراً ، والرجل الذي يقدر أن يقتل آخر بضربة واحدة يأخذ أجرة على قتله تعادل نصف مليون دولاراً . . . بينما الشيخ الذي شاب رأسه لإنقاذ الناس ترى وارده لمعيشته قليلاً لا يكفيه » .

وكتب أُستاذ علم النفس البروفسور « البرت كانلي » ضمن مقالة علمية

يقول فيها : « حينما كان النساء الإنجليزيات في سنة ١٩١٩م يناضلن للحصول على حقّ الدخول في البرلمان ولا يخشين السجون والموت ، لم يكن يومئذٍ من يظنّ أن الحرية التي كنّ يطالبن بها ستتبدّل بعد نصف قرن بحيث تكون سبباً في الحطّ من المكانة الإجتماعية للمرأة بصورة كلية .

والآن لو كنّ أولئك النسوة أحياء كان عليهن أن ينادين ويتظاهرن لاسترجاع هذه الحرية وحرمان النسوان منها ، فقد أثبتت التجربة في الخمسين سنة الأخيرة أن النساء لم يحصلن بحرّيتهن على شيء ، بل إنهنّ ضحّين بكرامتهنّ ومكانتهنّ التي كانت لهن قبل ذلك »(٣٠) .

---

(٣٠) بالفارسية : روشن فكر ، العدد : ٨٢٩ .

الطلاقُ في الإسلامْ

يجب أن نعلم قبل كل شيء أن الطلاق وانقطاع العلاقة الزوجية أمر غير طبيعي . وإذا توسع وانتشر الطلاق في مجتمع ما وكثر انحلال الأسر والعوائل وانفصال الزوجين أحدهما عن الآخر ، فذلك يعني أن ذلك المجتمع قد انحرف في مسيرته عن مسيرة القوانين الطبيعية للحياة الإنسانية .

بما هناك من علاقة وارتباط بين قطع أواصر الزوجية وبين الشخصية الحقوقية والأخلاقية للزوجية فقد أولى علماء الحقوق والإجتماع والنفس هذا الموضوع عناية خاصّة وأبدوا بشأنه آراءً ونظريات مختلفة . وبما أن ترك الزوجين أحدهما للآخر من خلال الطلاق يسدّد ضربة قاصمة لكانون الأسرة فيبدّل حرارة ذلك المحيط العاطفيّ إلى فتور وبرود ، وسيتعرّض الأولاد بصفتهم ثمار تلك الزيجات المتفكّكة لأنواع المفاسد والإنحرافات الروحية والفكرية . . . لذلك يرى كثير من علماء الإجتماع والنفس أنه يجب أن لا نسمح بالطلاق إلاّ في الموارد الضرورية فقط ، أو أن نضايق وقوعه حتى لا يتمكن الناس من أن يقدموا على الطلاق في أيّ وقت شاؤوا .

وصحيح أن الطلاق بلحاظ النظرة الأخلاقية والنفسية أمر غير محمود بل مستنكر ومذموم ولكن قد تستوجب الشرائط والأوضاع في بعض الموارد قطع العلاقة الزوجية حتماً .

فمثلاً لو لم يمكن استمرار الحياة الزوجية والتعايش بين الزوجين لأسباب وعلل خاصة فما هو التكليف ؟ فهل يجب أن تحترق هذه الأسرة بحريق البؤس والتعاسة والشقاء والآلام الروحية حتى آخر أعمارها ؟ أم أن نسمح لهم أن يقطعوا الرابطة الزوجية مع هكذا شروط ليخلّصوا أنفسهم من النزاعات الداخلية والآلام الروحية ؟ أيّ هذين الطريقين يؤدّي بهما إلى الخلاص من جحيم الخلافات والنجاة فهو معقول لذلك ؟

في هكذا موارد استثنائية شرع الإسلام قانون الطلاق ورآه جائزاً بشروط معيّنة ، خلافاً للمسيحية التي منعته منعاً باتاً مطلقاً . فأعدّ الإسلام لحلّ هذا الإرتباط اللاّمبارك طريق الطلاق كي يمكن به قطع علاقة أصبحت غير محمودة ، وبذلك فقد أقدم الإسلام على تجويز انحلال هكذا أُسرة لا خير فيها ؛ وذلك لان استمرار هذه الحالة بين الزوجين فشل واضح والضغط عليهما بالبقاء حينئذٍ على تلك الحالة إنما يزيد في الفشل فقط ، فان الحياة الزوجية لا تستقر في هذه الحالة ولا تستقيم ، ولذلك فعلينا حينئذٍ أن نستسلم للواقعية فنخضع لهذا الأمر المُرّ أعني « أبغض الحلال إلى الله الطلاق »[1] .

ولعلّ هذا الفصل يوقظ في ضمير الزوجين ميلاً ورغبة إلى حياة جديدة ، تؤوب فيها المودة والمحبة إلى الرجل وتلتئم عنده أحاسيسه وشعوره المجروح ، فيعود ليبدأ الحياة الزوجية من جديد ما دامت فرصة « العدة » باقية .

ومن ناحية أُخرى حيث أن للإسلام عناية خاصة ببقاء الزوجية وتوثيق روابط الأسرة لذلك فقد حدّد بعض أطراف حرية المرأة لغاية الحفاظ على نظام الأسرة وبالتالي المجتمع ، فهو بتحديده لخيار المرأة في طلاقها ونفيه لحريتها المطلقة في ذلك أراد في الحقيقة أن لا تقع مصالحها أُلعوبة بيد أهوائها الوقتية . وبديهيٌ أنّ اختيار الطلاق لو كان بيد الزوجين زاد احتمال وقوعه ضعفين ، والزواج فيما لو كان من الممكن انقطاعه من الطرفين تزلزل بنفس النسبة الإعتماد من الطرفين . فالأفضل أن يُودع هذا الحقّ أحدهما الذي يتمتع بقوة فكرية وتحمّل للشدائد أكثر ، والذي سيتحمل من الطلاق خسارة أكثر من

---

(١) حديث نبوي شريف .

دفع المهر والقيمومة على الأطفال دون أمهم .

إنّ اختلاف النظام الوجودي للمرأة عن الرجل يفصل أحدهما عن الآخر في روحياتهما وأخلاقهما بصورة بارزة ، ومن بين الإمتيازات والخصائص الفطرية المختلفة للذكر والأنثى تتجلّى القوة الفكرية الأكثر في الذكر وسيطرة العواطف والأحاسيس في المرأة .

وقد كتب العالم الإجتماعي الشهير الدكتور « الكسيس كاريل » يقول :

إن كل واحدة من الخلايا الجسدية في الذكر والأنثى وكذلك مختلف الأجهزة الجسدية لهما ولا سيّما الشبكة العصبية فيهما تحمل العلائم الخاصة الجنسية لهما . فعلى الإخصّائيين في التربية والتعليم أن يلاحظوا الإختلاف العضويّ والنفسي في جنسي الذكر والأنثى ووظائفهما الطبيعية ، وإنّ للالتفات إلى هذه النقطة الأساسية أهمية تامّة في بناء مستقبل حضارتنا ولكنّ المدافعين عن حقوق المرأة بعدم التفاتهم إلى هذه النقطة المهمة والأساليب يفكرون بل يزعمون أنّ بامكان كلا الجنسين أن يتلقّوا تربية وتعليماً واحداً ، وأن يتقلدوا مسؤوليات واختيارات متساوية »[٢] .

إنّ الإلتفات إلى هذه الحقيقة يفسّر كثيراً من موارد الخلاف بين الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة في الإسلام ، وعلى أساس هذه الحسابات الدقيقة يحكم الإسلام بأنّ « الطلاق بيد من أخذ بالساق »[٣] .

إذ بالنظر إلى روحية المرأة الخاصّة وظرفيّتها العاطفية والمتهيّجة ، لا يمكن الإعتماد ـ فيما لو كان لها هذا الحق ـ أن لا تفيد منه إلاّ في موارد الضرورة وعدم إمكان استمرار الحياة المشتركة ، بل يكفي لها أصغر حجّة أو ذريعة لتحطّم أساس الأسرة وتنهي الحياة المشتركة .

كما قد أعدّ الإسلام عند تشكيل الأسرة أنواع التسهيلات ورفع بل دفع المشكلات عن سبيل انعقادها ، بنفس النسبة أشكل كثيراً على انحلال عقد

(٢) الترجمة الفارسية : إنسان موجود ناشناخته : ٨٤ ـ ٨٧ : الإنسان ذلك المجهول .
(٣) حديث نبوي شريف .

الزوجية وتحقق الطلاق بتشديد كثير ، فالإسلام لا يرضى بالتفرقة بين أعضاء كانون الأسرة وفيما بين الزوجين ، بل يهدف إلى أن تأمن الأسر وتطمئن القلوب وتبقى الضمائر سليمة والزوجان منسجمين .

ولهذا فهو يسعى منذ البداية بكل جهده إلى أن يجعل عقد الزوجية أقوى وأمتن ، وأن يستمر ويدوم كذلك ، إلّا أن ييأس من اصلاحه عند الفساد . فيخاطب الرجال بقوله سبحانه : **﴿وعاشروهنّ بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾**(٤) .

يدعو الله سبحانه الرجال في هذه الآية إلى الصبر والاناة أمام هذا المكروه ليطفىء بذلك فيهم نيران الكراهية والنفرة ، وليوقظ بذلك ضميرهم ويذهب آلامهم ويقول لهم في الحقيقة : أن ليس من الصالح أن تتركوا كل امرأة لا ترضونها أو تكرهونها ، فمن الممكن أن يكون فيها خير وبركة وأنتم عنها غافلون . وبهذا يفتح لهم نافذة مجهولة من الخير فيما هم يكرهون . ولكنّه من ناحية أخرى يوصي النساء بقوله سبحانه :

﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جُناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير واحضرت الأنفس الشحّ﴾(٥) أي فلا جناح على الزوجين أن يصلحا بينهما بصفح المرأة عن بعض حقوقها ، والصلح بالصفح عن بعض الحقوق خيرٌ من التفرقة والطلاق .

هذا وقد عدّ أئمة الإسلام الطلاق من أكره الأمور وذمّوه ببيانات مختلفة :

ففي « عوالي اللئالي » يرفعه عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال :

« أيّما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة »(٦) .

---

(٤) سورة النساء ، الآية : ١٢٨ .

(٥) سورة النساء ، الآية : ٣٥ .

(٦) مستدرك الوسائل ١٥ : ٢٨٠ط . أهل البيت

وفي « مكارم الأخلاق » عنه عليه السلام قال : « تزوّجوا ولا تطلّقوا ، فان الطلاق يهتزّ منه العرش »[٧] .

إنّ في الإسلام أحكاماً تمنع الرجل عن سوء التصرف والإفادة من الإختيار المتروك له في الطلاق وتجعل ذلك في حدود وموازين خاصة : فالرجل لا يجوز له أن يطلّق المرأة قصداً إلى ظلمها وإيذائها والإضرار بها ، وكذلك فيما لو كان من الآثار القطعية للطلاق انحرافها وتلوثها أو سائر المفاسد اللاّمشروعة .

إن الإسلام بتشريعه لشروط الطلاق قد أوجد قيوداً وموانع في طريق الطلاق ، فهي من العوامل الكبرى للمنع عن وقوعه أو لتقليله .

فالمحكمة العائلية ـ مثلاً ـ من أفضل السبل المنظورة لرفع الخلاف بين الزوجين قبل أن يقدم أيّ واحد منهما على أي عملٍ مفرّق ، هي من مبتكرات الإسلام لرفع الإضطرابات العائلية . ولم يظفر الغربيون لحدّ الآن على وسيلة كهذه لغاية إيجاد التفاهم وحلّ الخلاف بين الزوجين وهما على أعتاب الطلاق والفراق ويختار لهذه المحكمة شخصان من الأقرباء الخيّرين والمصلحين للزوجين ، لائقان مناسبان لان يكونا حكمين من قبلهما ، لكي يدرسا ويبحثا ويحققا في علل حدوث الخلاف والتشويش بين الزوجين ، ثم يحاولا حل الخلاف والإصلاح والتوفيق فيما بينهما .

في هذه المحكمة يدرس الحكمان عوامل الخلاف والنزاع بين الزوجين بصورة خاصة ، وبما أنهما من أقربائهما فلهما أن يبحثا عن الأمور الشخصية والخاصة والسريّة ، ولا يشعر الطرفان بألم أو خجل من إفشاء أسرارهما لديهما .

وبعد اطّلاعهما على عوامل ظهور الخلاف سيسعيان بكل اخلاص ومحبّة في إخماد الخلاف الحادث ، ويوصيان الطرفين بالعفو والاغماض والتحمّل والصبر الأكثر مهما أمكن .

---

(٧) وسائل الشيعة ١٥ : ٢٦٨ عن مكارم الأخلاق : ١٠٠ وفي مجمع البيان ١٠ : ٣٠٤ عن علي عليه السلام .

وبما أنهما محترمان لدى الزوجين ولهما عليهما الإعتماد والإطمئنان بهما وباخلاصهما ، فهما سيقبلان في كثير من الموارد باقتراحهما ونظرياتهما الإصلاحية ، وستؤدّي مساعيهما الخيّرة في أكثر الموارد إلى الإصلاح ورفع الخلاف إن شاء الله تعالى :

﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يُوفّقِ الله بينهما . إن الله كان عليماً خبيراً﴾(٨) .

اما إذا كانت دوافع تقارب الزوجين إلى الطلاق قوية وعميقة ومتجذّرة ، وكانت مساعي الحكمين للإصلاح ولبدئهما بالحياة الزوجية من جديد ، لا تفيد شيئاً ، فهناك يسلك الزوجان طريقهما إلى الطلاق .

وقد أثبتت التجارب أن المحاكم العامّة تزيد في أكثر الأحيان في اضطراب المناسبات وتوتر العلاقات بين الزوجين وتقرّبهما إلى هوّة المتاركة أكثر من ذي قبل ؛ إذ أن تكليف المحاكم العامّة إنّما هو أن يصغي القاضي فيها إلى دلائل أقوى . ولا يسعى القاضي فيها أبداً إلى إخماد نار الخلاف ونفي عوامل النزاع بين الزوجين .

ومن جانب آخر فإن في إفشاء أسرار الأسرة لإثبات الدعوى في المحاكم العامّة وبمحضر من الأجانب ، ما يوجب شرخاً في أحاسيس الزوجين ويصدمهما في شؤونهما وشخصيتهما ، وبذلك يتعمّق الشقاق فيما بينهما ويؤدّي إلى المتاركة والطلاق .

وإن حضور شاهدين عادلين في حين اجراء صيغة الطلاق من الشرائط المشددة أيضاً :

﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾(٩) فلو وقع الطلاق بلا إشهاد بطل .

ومن منافع وجوب إشهاد العدول هو أنهما قبل وقوع الطلاق سيعطفان للإصلاح بين الزوجين وهما على أعتاب الطلاق ويسعيان ويحاولان ، وإنّ

---

(٨) سورة النساء ، الآية : ٣٥ .

(٩) سورة الطلاق ، الآية : ٢ .

نصحهما ووعظهما للإصلاح بينهما واجتذاب توافقهما لاستمرار زوجيّتهما ورفع ما وقع من الإضطراب بينهما لعوامل معيّنة ، لمن أفضل الوسائل لمنعهما وردعهما عن الطلاق ، وسينتج ذلك ويثمر خيراً في بعض الموارد على الأقل إن لم يكن الأكثر .

بينما لم يجعل الإسلام أيّ قيد أو شرط دون رجوع الزوج إلى زوجته ، فالأمر هناك على العكس من الطلاق تماماً ، ذلك أن الإسلام يهدف إلى أن لا يجعل أيّ مانع أو رادع أو مؤخّر عن استقرار أو استمرار العلاقة الزوجية ، بل أعد أنواع التسهيلات لتحقيق التأليف بينهما ومنعهما عن التفرقة والمتاركة فيما بينهما .

أضف إلى ذلك أن تحقق شرط الإشهاد قد يتعذّر في كثير من الأحيان ، وعدم تحقّقه دائماً سيسبّب في تقليل وقوع الطلاق بنفس النسبة ما أمكن .

وإن طهارة المرأة من « الحيض » و « النفاس » شرط آخر لتحقق وقوع الطلاق ، ففي كثير من الموارد عندما يصمّم الرجل على الطلاق من الممكن أن يكون حصول الطهارة عند المرأة يحتاج إلى مرور زمن ، ولمرور الزمن اثر لا ينكر في تقليل ثورة العواطف والأحاسيس عند الرجل وتعلقه وتفكيره الأكثر في التصميم على هذا الخطر !

وحينما تصعب الحياة المشتركة للرجل حتى يتبرأ منها مع زوجته الحاضرة فيصمّم على إجراء الطلاق منها ، فان العلاقة الزوجية سوف لا تنقطع بهذا الطلاق رأساً ، ولا ينفصل الزوجان به أبداً ، فللزوج قبل إنقضاء « العدّة الرجعية » أن يستأنف حياته الزوجية معها إذا شاء .

وإنّ آخر ما فعله الإسلام من أجل استمرار أو استئناف العلاقة الزوجية هو أنه كلّف الزوج بعد اجرائه لطلاق زوجته أن لا يخرجها من مسكنها ومنزلها حتى آخر العدة الرجعية (ثلاثة أشهر تقريباً) وهي أيضاً لا يحقّ لها أن تخرج إلاّ في موارد الضرورة :

﴿يا أيها النبيّ إذا طلّقتم النساء فطلّقوهنّ لعدّتهنّ وأحصوا العدّة واتّقوا الله ربّكم لا تُخرجوهنّ من بيوتهنّ ولا يخرجن إلاّ أن يأتين بفاحشة مبيّنة وتلك

حدود الله ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً﴾[١٠] .

أضف إلى ذلك أن لا حاجة في إعادة العلاقة الزوجية في العدة إلى مراسيم خاصة ، بل يكفي قليل من إبداء الميل من جانب الزوج لاستئناف العلاقة معها في تحقق الرجوع .

وهذا التساهل في استئناف الزوجية بينهما لمن الأدلة على عناية الإسلام باستقرار واستمرار العلاقة الزوجية ، وكراهيته لإنحلال كانون الأسرة .

كذلك فيما لو كرهت الزوجة زوجها وبذلت له مهرها أو مالاً آخر ليطلّقها ، يحقّ للزوج ارجاعها إلى بيته فيما إذا ندمت المرأة ورجعت فيما بذلته له .

إن الإسلام بوضعه لهذه الأحكام عمل بدقة وعناية تفوق التصور لكي يحافظ على العلاقة الزوجية وبذلك يمنع من إنحلال بناء الأسرة بيُسر وسهولة ، ومن أن تصبح الحياة المشتركة ألعوبة بيد الأهواء والميول والأحاسيس المختلفة الفانية . كثيراً ما يتّفق أن يتّخذ الإنسان قرارات مستعجلة من دون دراسة ودقّة في جوانب الأمر وعلى أثر عوامل مختلفة . لذلك فان هذه القيود والموانع في سبيل إنحلال العلاقة الزوجية ووقوع الطلاق تسبّب أن يفكّر المرء في عاقبة أمره بأناة ومتانة ، فتسبّب هذه الشروط والقيود تحديداً للطلاق بالتالي .

وعلى هذا فقد اتّضح لكل منصف غير متعصّب أن الإسلام قد بذل اهتمامه للحفاظ على العلاقة الزوجية أكثر من أي دين أو نظام آخر ، ولم يدع مجالاً لمن يدّعي الإصلاح من دون الإسلام .

إنّ الإسلام قد أدخل المرأة في موارد الخطر على حقوقها تحت حمايته القانونية ، وقد أعدّ لاستخلاصها حينئذٍ لتستطيع المرأة أن تحرّر نفسها عن الحياة في جوّ لا يُساعد على سلامتها :

---

(١٠) سورة الطلاق ، الآية : ١ .

١ ـ في حين عقد النكاح تستطيع المرأة أن تشترط على زوجها أن تكون وكيلة عنه فيما إذا أساء معاشرتها والسلوك معها أو امتنع عن نفقتها ،و سافر طويلاً أو تزوّج عليها ، لتطلق نفسها أو توكل عنه من يطلّقها .

٢ ـ إذا عجز الزوج عن تأمين نفقتها أو امتنع عن ذلك أو عن سائر حقوقها الواجبة تراجع الزوجة الحاكم الشرعي ، وإذا ثبت دعواها عنده يجبر القاضي زوجها على رعاية العدل وحسن السلوك وأداء حقوقها ، فإذا تمرّد الزوج أو تخلّف عن العمل بأحكام القاضي ألزمه بالطلاق .

٣ ـ فيما إذا اتّهم الزوج زوجته بخلاف العفاف أو أنكر ولده منها واتهمها بغيره ، يحق للمرأة أن تشتكي منه إلى المحكمة الشرعية ، فإذا لم يستطع الزوج إثبات دعواه فصل القاضي بينهما وفق أحكام معيّنة .

٤ ـ إذا غاب الزوج غيبة طويلة وأصبح « مفقود الأثر » بلا خبر عنه ، ووقعت المرأة لذلك أو لنفقتها في عسر وحرج ، كان لها أن تراجع المحكمة الشرعية فتطالب بالطلاق والقاضي بعد رعاية المراسيم الشرعية يحلّ عقدها ويطلّقها .

٥ ـ فيما إذا تنافر الزوجان كان بإمكانهما أن ينفصلا بصورة بسيطة هي : أن تعفي المرأة زوجها عن مهرها ونفقتها في أيام عدتها ، فيقع عندئذ طلاق الخلع .

فكما راعى الإسلام كراهية الزوج لزوجته ، كذلك لم يبعد النظر عن كراهية الزوجة لزوجها ، فلو أحسّت المرأة في نفسها كراهية لزوجها بحيث أصبحت لا تتحمل الحياة المشتركة كان بإمكانها أن تطلب رضاه بطلاقها ببذلها مهرها أو أكثر منه :

﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئاً إلاّ أن يخافا أن لا يقيما حدود الله فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾[11]

---

(١١) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٩ .

إذن فالإسلام بذل عناية خاصة لأحاسيس المرأة وميولها أيضاً ، وفتح لها السبيل في هكذا موارد إلى انطلاقها ونجاتها من حياة أليمة ، كما اتّفق ذلك على عهد رسول الله :

كان ثابت بن قيس قد تزوّج جميلة بنت عبدالله بن أُبيّ بن أبي سلول ، وكان يحبها وهي تبغضه ، فتحاكما إلى رسول الله فقال لها : أتردّين عليه حديقته ؟ قالت : نعم وأزيده . قال : لا ، حديقته فقط . ثم قال لثابت بن قيس : يا ثابت خذ منها ما أعطيتها وخلّ سبيلها . ففعل . فكان أول خُلع في الإسلام[١٢] .

وفي بعض الموارد لا حاجة إلى تطليق الرجل لزوجة ، بل يحقّ للزوجة أن تطلق نفسها أو تبطل العقد ، مع مراجعة المحكمة الشرعية في بعض الموارد وفي بعضها من دون ذلك ، فمثلاً إذا أُصيب أي واحد من الزوجين بالجنون استحق الآخر فسخ العقد وإبطاله[١٣] .

وكذلك من موجبات حقّ خيار الفسخ للزوجة أن يكون الزوج أو يصبح خُصيّاً أو عنيناً . بالإضافة إلى موارد أُخرى عدّها الفقهاء من موجبات حقّ خيار الفسخ لأحدهما .

لا ريب أن من الأدواء الكبرى اليوم في المجتمعات الغربية تفكك أركان الأسر ، وهذه الحرية المفرطة في أمر الطلاق في عالم الغرب لا ريب أنه نتيجة رد فعل طبيعي لضغط الكنيسة التي كانت ترى حرمة الطلاق في المسيحية ، وهذا التشديد الكنائسيّ جعل الدُول تضطرّ إلى أن تعترف بشرعية الطلاق كضرورة .

---

(١٢) مجمع البيان ١ : ٥٧٧ط . بيروت .

(١٣) في بعض الدول الأوروبية كألمانيا وسويسرا يرون الجنون من موارد حقّ الطّلاق للزوجين ، ولكنهم في البعض الآخر كفرنسا لا يرون الجنون موجباً لحقّ الطلاق للثاني من الزوجين ، بل هو ملزم بأن يباري ويمرّض زوجته أو زوجها ! وهذا حكم قد يؤدّي إلى ما لا يطاق تحمّله . ولكن الإسلام خيّر الزوجين في هذا الحال بين البقاء وتمريض المجنون ورعايته وبين فسخ العقد والطلاق منه .

فمثلاً في فرنسا كان الطلاق فيها على دين النصارى ممنوعا حتى ما قبل ثورة أكتوبر سنة ١٧٨٩م وعند تنظيم قانون الحقوق المدنية سنة ١٨٠٤ أعلن عن اعتراف القانون به على أثر ضغط الناس ، ولكن أرقام الطلاق ازدادت بكثرة في فترتها القانونية التي دامت ستّ عشرة سنة ، وفي سنة ١٨١٦ ألغي قانون الطلاق بضغط الكنيسة وأقر بدله قانون « التفريق الجسدي » وفي سنة ١٨٨٤م اضطرت الدولة بفعل ضغط الناس أن تقرّ قانون الطلاق مرة أخرى ولكن بحدود وقيود :

وفقاً لهذا القانون يحق للزوجين الطلاق في الموارد التالية :

١ ـ فيما لو ارتكب أحدهما جريمة حُكم عليه بموجب القانون بأحد الأحكام التالية : الإعدام ، السجن المؤبّد ، نفي البلد ، الحرمان عن الحقوق الإجتماعية ، والسجن المحدود ولكن مع الأعمال الشاقة .

٢ ـ فيما لو ارتكب أحدهما الخيانة « الزنا » ولكن إنما يحق لهما ذلك لو ثبت ذلك بمشاهدة البوليس في منزلهما .

فلو أراد أن ينفصل أحدهما عن الآخر ، كان عليه أن يتّفقا على الشخص الثالث ، يدعو إلى دارهما ، وعند مضاجعة أحدهما مع الشخص الثالث يأتي الآخر بالبوليس إلى البيت ويُثبت لهم خيانة الزوج أو الزوجة مع الشخص الآخر ، وعندما يأتي البوليس مع الشاكي منهما إلى الموعد المعين ويرى الآخر منهما في المضجع مع الشخص الثالث تثبت الخيانة ويحق للآخر منهما أن يطلّق »(١٤) .

أنظروا كيف أن فتح هذا الحقّ بخيار الطلاق أصبح هو عاملاً من عوامل نشر الفساد والرذيلة وما ينافي العفّة . أجل هذا هو العالَم المتحضّر الذي يمنح المرأة من ناحية حقّ التدخل في الأمور الإجتماعية والسياسية ، ومن ناحية أخرى يجعل شرفها وشؤونها ألعوبة وأضحوكة ويمرّغ بعفافها في وحل الفضيحة هكذا !!

---

(١٤) بالفارسية : طلاق وتجدد : ٩٩ .

٣ ـ فيما لو كان أحدهما يؤذي الآخر أو يهينه ويشتمه ويسبّه . . . وموارد أُخرى والذي يُعمل به حالياً في إيطاليا وفرنسا والبرتغال هو قانون « التفريق الجسديّ » وهو عبارة عن أنّ الزوجين المريدين للطلاق عليهما أن يعيش كل واحد منهما مجرّداً لوحده لفترة أكثرها ثلاث سنين ، وفي هذه المدة وان كان الزوج معفوّاً عن النفقة والزوجة عن التمكين في الفراش والمضاجعة ولكنّ سائر آثار الزوجية باقية ، وبعد انتهاء هذه المدة إن لم يستعد الزوجان لاستئناف الحياة المشتركة تحقق الطلاق !

وقد منحت أمريكا حرية أكثر في أمر الطلاق للنساء والرجال على السواء ، ولذلك فان أرقام الطلاق في أمريكا أكثر من أيّ مكان آخر .

إن هذه الحرية غير المحسوبة بشأن إنحلال العلاقة الزوجية ، ومنح حقّ الطلاق للرجال والنساء على السّواء سبّب في تفكّك أركان الأسرة وأثمر ثماراً مرة حتى اليوم ، فالنساء متى ما اشتهين يخرجن عن ظل أزواجهنّ بذرائع واهية وبخلافات على أشياء سخيفة لا قيمة لها . وفي الواقع والحقيقة فان عالم الغرب بدل أن يخدم بذلك الأسرة قد خانها أو جنى عليها! ، إذ بملاحظة إجمالية لأرقام الطلاق في الدول التي يحق للنساء فيها الطلاق كالرجال ، يبقى كل إنسان عاقل متعجباً متحيّراً من كثرة الطلاق ، وهي مظهر للظلم المتزايد الذي تفعله القوانين السائدة بالأطفال والنساء والمجتمع والأسرة . إنّ ازدياد الطلاق في الدول المتحضرة والذي يقع بطلب النساء غالباً والحجج التي يتذرّعن بها لذلك ، كلّ ذلك يبيّن لنا عمق نظرية الإسلام أوضح من الشمس .

وهذا نموذج واحد من علل وقوع الطلاق في الدول المتحضرة :

كتبت إحدى الصحف الأسبوعية الشهيرة تقول :

« قام رئيس المجلس البلدي في المؤتمر العام للمجالس البلدية الذي انعقد قبل مدة في مدينة استراسبورك ، وأطلع المؤتمر على احصائية قام بإعدادها أعضاء المجالس البلدية في مختلف المدن والبلدان فقال :

بناءً على هذه الإحصائية فإنّ ما يعادل سبعاً وعشرين بالمئة من التطليقات

التي وقعت في العام الماضي بين الأزواج كان من نتائج إفراط المرأة في التقيّد بالموديلات ! وهذا الرقم في ألمانيا يعادل ثلاثاً وثلاثين بالمئة ، وفي هولندا ستاً وثلاثين بالمئة ، وفي السويد ثمانية عشر بالمئة .

إن المرأة الباريسية التي تتابع الموديلات حتى ولو لم تكن إفراطية في تقيّدها بالموديلات فهي تصرف في السنة بصورة متوسطة مبلغاً يعادل ثلاثمائة وخمسين دولاراً على ما لا فائدة فيه سوى أنه يحمل اسم الموديل ! وهذه المصارف الباهظة لا تزيدها جمالاً ولا شخصية ومكانة ، ولا تفيدها في تحسين أوضاع معيشتها هي والأسرة شيئاً .

هذا هو المصير الأسود للعوائل والأسر ، فيما إذا أودعوا أمر الطلاق بيد المرأة مباشرة . . . وحينما يقع قسم كبير من التطليقات من أجل موضوع تافه لا قيمة له كالموديلات فللعاقل أن يدرك علل سائر التطليقات إلى حدّ بعيد .

إنّ ما أصاب الأسر الأوروبية من النتائج السيّئة والمؤلمة من حريّة المرأة واختيارها في أمر الطلاق أحدث وحشة كبرى فيما بين المسؤولين وسائر الناس بحيث أصبح المسؤولون يفكّرون في تحديد تلك الحرية وتنظيمها .

ففي العام الماضي وقع في فرنسا ثلاثون ألف طلاق ، وحيث كان هذا بالرقم يتزايد كل سنة طلبت فدرالية العوائل الفرنسية من الدولة أن تُعيد تنفيذ القانون الخاص لسنة ١٩٤١م الذي كان قد أُلغي في السنة ١٩٤٥م ويفيد هذا القانون أن الطلاق يُمنع في الثلاث سنين الأولى من الزواج مطلقاً وبأيّ عنوان كان »[١٥] .

وكتب العالم الأمريكي « لوسون » يقول :

« كلّ من يكون فيه شيء باق من غريزة حبّ النوع يتألم من هذا الوضع الموحش في أرقام الطلاق ، ويفكّر في العلاج والحلّ . والذي يستحق إمعان النظر أكثر أنّ ثمانين بالمئة من هذه التطليقات يقع بطلب من النساء . وعلينا أن

(١٥) بالفارسية : مجلة خواندنيها للسنة ٢٥ العدد : ١٠٣

نبحث عن سرّ ازدياد الطلاق في هذا الأمر (حرية المرأة في الطلاق) ثم نفكّر في تحديده »[١٦] .

ومن المناسب هنا أن نلتفت إلى اعتراف « فولتر = وولتير » في تفضيل قانون الطلاق في الإسلام وشموله :

« إنّ محمداً (ص) كان مشرّعاً عاقلاً يريد أن ينقذ البشرية من الشقاء والجهل والفساد ، كان ينظر إلى مصالح جميع الناس في الأرض من الرجال والنساء والكبار والصغار ، العقلاء والمجانين ، الأبيض والأسود والأصفر والأحمر . وليس هو الذي أشاع تعدد الزوجات ، بل هو الذي حدّد العدد غير المحدود من النساء اللواتي كنّ يرتمين في فراش الملوك وأمراء الدول الاسيوية . . . إلى أربع فقط . إن قوانينه بشأن الزواج والطلاق أفضل بكثير من القوانين المشابهة في دين المسيح ، أما في الطلاق فلعلّه لم يوضع لحد الآن قانون أكمل من قوانين القرآن بشأن الطلاق »[١٧] .

---

(١٦) المرأة المسلمة ، لمحمّد فريد وجدي .

(١٧) بالفارسية : اسلام از نظر وولتير .

الزِواجُ المُوَقَّتْ

لا ريب لنا في أن الإسلام مصدر إلهام لسعادة الإنسان ، ولم يأت ليلقي الناس في البلاء والشقاء ويحيّرهم في منعطفات المشاكل ، لا ضعف فيه في أي شأن من شؤون الحياة ، ولم يُفرّط في شيء يؤثر في سعادة البشر . وهو لهذه المزايا التي لا تحصى أفضل الأديان وأكملها .

وإن سعة وشمول الحقوق الإسلامية المنسجمة مع روح العدالة والمصالح الإجتماعية والتي تتمتّع بعمق وأصالة خاصة ، تصلح لتعطي الإجابة الإيجابية على جميع حوائج العصر الحاضر .

وإن القوانين الإسلامية التي تتعلق بالزواج وتشكيل الأسرة من جملة القوانين التقدمية في الإسلام مما لا نظير له في أي دين أو مبدأ حقوقي آخر في العالم .

أما الكنيسة فقد سلكت سبيلاً متقابلاً للإسلام في الزواج وتشكيل الأسرة ، فبنفس النسبة التي يهتم الإسلام بتشكيل الأسرة تمانع الكنيسة عن ذلك بتشدّد كثير ، كما أن التجرّد والعزوبة كانت عند النصارى القدماء أمراً مرغوباً فيه وكانوا يتلقون الزواج كأمر مكروه ، كذلك يتابع قادة العالم المسيحي اليوم نفس أسلوب القدماء منهم . وقد تباحثوا حول هذا الموضوع في مؤتمر كبير لهم عقد قبل مدة في الفاتيكان ، وبعد مداولات كثيرة قرّروا ما يلي :

« إن الزواج أمر مكروه كما كان ، ولا تستطيع الكنيسة أن تسامح في ذلك » !

وبديهيّ أنه حينما توجد موانع على مسيرة الغريزة الجنسية التي لها أعمق العروق والجذور في الحيوان والإنسان ، ولا تستجاب بإجابة صحيحة ، فإنّها ستظهر في صورة انحرافات جنسية . وهذا الأسلوب من التفكير المسيحي بشأن الزواج أنتج كثيراً من المفاسد وبعث على نشر الفحشاء والمنكرات الجنسية في العالم المسيحي ، إذ أصبح تطبيق المسيحية المثالية على الحياة أمراً صعباً جدّاً ويُحمّل الناس ما لا طاقة لهم به ، ولذا فرّ الناس مما في المسيحية من الرهبنة وقتل الشهوات تماماً كالحيوانات الهائمة من أقفاصها وأقفالها فوقعوا في فوضى شهوية غير معقولة ، ومن أجل أن يكرّسوا حريتهم تماماً سحقوا كلّ شيء .

أما الإسلام الذي يرغّب الناس في الزواج المبكّر بعد بلوغ الرشد ، يُبدي بوضوح كيف أنّ الإسلام أراد أن يفيد من هذه الغريزة الجنسية بصورة صحيحة ولكنّ الإسلام إلى جانب ذلك يدعو الناس إلى أن لا يسلكوا في التمتع بهذه الغريزة سبيل الحيوانات والبهائم ، بل بما يليق بمقام الإنسانية ومرتبتها .

بما أن حبّ الزوج والولد من مُتع الحياة ومما يرغب فيه كلّ البشر ، ووجود الغريزة الجنسية في طبيعة الإنسان واقع لا مفرّ منه ، لذلك يعترف بهما الإسلام كأمر واقع ، ويرى أن الإستجابة لهذه الغرائز بما لها من أصالة أمرٌ جائز مسموح ، فهو يقول :

﴿زُيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين . . . ذلك متاع الحياة الدنيا﴾[1] .

إن الإسلام وفقاً للحاجات والضرورات الإجتماعية ، ومن أجل سدّ الذرائع إلى الفحشاء شرّع منذ أربعة عشر قرناً « الزواج المؤقت » بشروط ساذجة بسيطة ، وبذلك شرّع الخير والصلاح للمجتمع البشريّ ، وبذلك كذلك

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٤ .

كافح الفساد أيضاً .

إن الفحشاء والعلاقات غير المشروعة كانت بين الناس في الجاهلية قبل طلوع الإسلام كسائر الأعمال غير المرضية أمراً اعتيادياً ، وكانت مراكز الفحشاء منتشرة بين الناس . . . وبعد الإسلام أقدم النبيّ على وضع قانون « الزواج المؤقت » بغية اصلاح الأفكار والأخلاق والسلوك بين الناس ، والمنع عن الفوضى الجنسية والعلاقات غير المشروعة ، وفي ظلّ هذا القانون قاد الغريزة الجنسية نحو المسار الصحيح .

روى الشيخ المفيد في رسالة « المتعة » بإسناده عن عبدالله بن مسعود قال :

كنّا نغزو مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ليس معنا نساء ، فقلنا ، يا رسول الله ألا نستحصن هنا بأجر ؟! فأمرنا أن ننكح المرأة بالثوب . وروى بسنده عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال : خرج منادي رسول الله فقال : إن رسول الله قد أذن لكم فتمتّعوا[٢] .

وروى بسنده عن سلمة بن الأكوع قال : قال رسول الله : أيّ رجل تمتّع بامرأة بينهما ثلاثة أيام ، فان أحبّا أن يزدادا ازدادا ، وإن أحبّا أن يتتاركا تتاركا[٣] .

فباستطاعة الرجل والمرأة وفقاً لهذا القانون أن يعقدا عقد الزواج بينهما لمدة محدودة من دون أن يخضعا لزواج دائم وتعهّد خالد ، ثم يرعيان حريم الزوجية بينهما إلى نهاية المدة المعلومة . وفي الزواج المؤقت وإن لم يكن فيه توارث ولا يتعهد الرجل بالمأكل والملبس والمسكن للمرأة ، لكن تُراعى فيه سائر الأحكام كما في الزواج الدائم للحفاظ على نظام النسب الصحيح المشروع . والمرأة المعقودة بهذه الكيفية زوجة الرجل حقيقة وتجري عليها أحكام الزوجية واقعاً ولها آثارها الحقوقية . وفي القرآن الكريم :

(٢) وسائل الشيعة ١٤ : ٤٤ .
(٣) وسائل الشيعة ١٤ : ٤٢١ .

﴿فما استمتعتم به منهنّ فآتوهنّ أجورهُنّ﴾[٤] .

وبكلمة فإن الزواج لو لم يكن محدوداً بحدّ معين من الزمان كان زواجاً دائماً خالداً ، إلاّ أن يتلاشى بالطلاق ونحوه ، أما لو كانت المدة معيّنة محدودة كان الزواج مؤقتاً ، وعليه فبالنظر إلى مفهوم الزوجية لا تفاوت فيما بين الزواجين ، وإنما الفرق هو موضوع « محدودية الزمان » و « عدم محدودية الزمان » في هذين النوعين من الزواج الشرعي .

ولا فرق كذلك أيضاً في أولاد المؤقّت عن أولاد الزواج الدائم ، وهم يتمتّعون من جميع الأحكام القانونية الشرعية لأي مشروع .

إنّ من العلل المهمّة لانتشار الفساد والفحشاء عدم توصل عدد من الناس إلى الزواج الدائم ، فان عدم المكنة المالية وتكاليف المعيشة لا تسمح بتشكيل الأسرة لكل أحد ، وهذه مسألة موجودة دائماً وأبداً لا زالت ولا تزال .

وإن السفر والإبتعاد عن البلاد للقيام بمختلف الأمور من قبيل التجارة والأهداف العسكرية والدفاعية والدراسة وحتى للسياحة وأمثالها ، من ضرورات الحياة ، والزواج الدائم في السفر أو حمل العيال والأطفال في الأسفار مشكل في كثير من الموارد بل من غير الممكن .

وبالنظر إلى حقيقة أن لا بدّ من الإجابة الإيجابية لهذه الغريزة في هذه المواقع الخاصة العارضة أحياناً ، ولا سيما أن أكثر الذين يبادرون إلى الأسفار الطويلة شباب مبتلون بعنفوان الشباب وفي احتدام غرائزهم ، فهل لحلّ هذه المشكلة من سبيل يمكن سلوكه سوى الزواج المؤقت ؟!

ولذلك فلو أنّ هذا القانون الإصلاحي التقدمي كان ينفّذ بضوابط خاصة وبصورة صحيحة ، كان بامكانه أن يكون خير وسيلة لمكافحة الفحشاء والفساد والإنحرافات الإجتماعية الجنسية والشاذة ، وكانت تُسدّ بذلك أبواب بيوت الفساد والجنس الرخيص وتتحسن الأخلاق العامة ، وكن ينجين بذلك النساء

---

(٤) سورة النساء ، الآية : ٢٤

الساقطات في أحضان الرذيلة .

ونحن إذ نقول : لو كان هذا القانون ينفّذ بصورة صحيحة ، ذلك لان بعض الناس الجُهلاء المتحلّلين قد أساؤوا الفهم والعمل به ، فاتّخذ القانون ولا سيّما بدعايات واهية لجماعة من المخالفين وقاصري الفكر وجهة غير صحيحة ، وعُرف على خلاف ما هو عليه في حقيقته .

في حين أنّ الزواج المؤقت نزيه طاهر ، لو يمنع من لا يعبأ بارتكاب الذنوب من سوء العمل بذريعة هذا الزواج ، لكان يتغيّر الوضع كُلياً ، ولأصبح من أنجع الوسائل المؤثرة والحاسمة لمكافحة الفساد والفحشاء .

وليس سوء الفهم والعمل خاصاً بهذا المورد ، فمن الممكن أن أي حقّ من الحقوق يُساء فهمه والعمل به ، وللمنع عن ذلك علينا أن نقوم بتهذيب أخلاق الناس والتصعيد بروحياتهم ومعنوياتهم ، وقد بذل الإسلام منتهى سعيه لتوجيه الناس إلى الفضائل .

ولا بدّ لكل قانون من أن تقف سلطة إلى جانبه لتؤدّب المخلّفين عنه ، وإلاّ فلا فائدة في القانون بلا حماية وصيانة .

ولا شك أن هذا القانون من صالح المجتمع ولمصلحته ، وعليه فلا بدّ من أن تتدخّل القوة لحمايته في موارد التخلّف ولردّ المتمرّدين الطغاة إلى جادّة الحقّ والصواب والإعتدال ، ولتوفيق سلوكهم وفق القواعد والمقررات ، ومن أجل تأمين منافع المجتمع ومصالحه .

روى الكليني في « فروع الكافي » بسنده عن الباقر عليه السلام عن علي عليه السلام قال :

« لولا ما سبقني به ابن الخطاب ما زنا إلاّ شقي »[٥] ورواه المفيد في « المتعة »[٦] .

---

(٥) وسائل الشيعة ١٤ : ٤٣٦ .
(٦) وسائل الشيعة ١٤ : ٤٤٠ .

وروى المفيد في رسالة « المتعة » بسنده عن الصادق عليه السلام قال :

« لولا ما نهى عنها عمر ما زنا إلّا شقي »[٧] .

إذ بملاحظة الكلام المعروف للخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي نقله علماء الفقه والتفسير السنّي والشيعي ، لا يبقى مجال للترديد في أن الزواج المؤقت كان معمولاً ورائجاً على عهد رسول الإسلام صلّى الله عليه وآله وسلّم ، إلّا أن عمر حرّمها في أواخر عهد خلافته خلال كلمته الشهيرة :

« متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا أُحرّمهما وأُعاقب عليهما : متعة النساء ومتعة الحجّ »[٨] .

فهذه حقيقة واضحة أن عمر إنّما حرّمها بنظره الشخصي ، بينما لم يعتن بنهي عمر كثير من أصحاب رسول الله والتابعين لانهم كانوا يعتقدون حلّها في الشريعة .

في المجتمعات الحاضرة التي تهاجم فيها الشباب عوامل الفتنة والتحريك ، والصور المحركة والمهيجة والمنافية للعفّة في المجلات والجرائد والأفلام الشهوانية في دور السينما والبرامج المنحرفة في الراديو والتلفزيون ، والتجميل المهيّج للنساء العاريات أو نصف العاريات تهدّد الشباب كل لحظة بالسقوط الخلقي والفوضوي كل ذلك جعل الشباب في زاوية خطرة لا تخرّج . فأيّ حلّ يراه قاصرو الفكر غير المطّلعين على القوانين الإسلامية الذين يسيئون النظرة إلى قانون الزواج المؤقت والذين يفتعلون الضجيج والضوضاء لذلك ؟!

فهل أن كل الشباب يتمتّعون بالصبر والأناة والسلطة التامة على أنفسهم ؟! ويستطيعون الصبر وتحمّل أنواع المشقّات أمام الأمواج العاتية للغريزة الجنسية التي تصل إلى أوج شدّتها على أثر المناظر المهيّجة والفاضحة وهم في شبابهم ؟!

(٧) وسائل الشيعة ١٤ : ٤٤٠ .

(٨) الغدير ٦ : ٢٠٠ ـ ٢٤٠ .

وعلى افتراض إمكان ذلك وأن يبدي الشباب صبراً وإستقامة خاصة منهم في ذلك ، فانّ ذلك يؤدّي أيضاً إلى إهمال بعض أهداف الخلقة من هذه الغريزة في وجود الإنسان ، ويؤدّي إلى نوع من تحديد النسل وإعدام نطف الحياة في الأصلاب ، وهذا تشديد وضغط لن ينسجم مع روح الإسلام وتعاليمه العمليـة الساذجة والبسيطة ، كما قال تعالى :

﴿يُريد الله بكم اليسر ولا يُريد بكم العسر﴾(٩) و﴿وما جعل عليكم في الدّين من حرج﴾(١٠) .

وإذ أدركنا هذه الحقيقة فهل لنا أن نفتح السبيل أمام الإنحرافات والسيّئات الأخلاقية ؟ ونعلن السماح للفحشاء هذه الظاهرة الإجتماعية التي ملأت مفاسدها والشقاء الناتج عنها جميع العالم بكل ما لها من صور مخزية كي تنجرّ البشرية نحو السقوط في الشهوات وفوضى الحيوانات والغرق في الأهواء والمتاهات ، كما قال الله تعالى :

﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟!﴾(١١) .

أم هل ننقذ بالعمل بقانون الزواج المؤقت ملايين النساء المطلقات والعازبات المجرّدات والأرامل الثيّبات اللواتي هنّ في عسر وحرج لتأمين تكاليف معيشتهنّ ؟!

وعلى افتراض أن هذه النسوة يستطعن تحصيل مصاريفهن باشتغالهنّ ولكن هل أن تحصيلهن لمعاشهنّ يرضي شعورهن وجوانبهن الروحية ؟ وهل لما يحصلن عليه من دخل أن يجيب على نداء أعماقهنّ بعلاقتهن بالرجل بإجابة مقنعة ؟ إنها إن اخمدت فيها شعورها الفطري وغريزتها الجنسية ولم تحصل لميولها على إجابة إيجابية صحيحة ، كان من الممكن أن تظهر فيها هذه العلاقة والميل الشديد بصورة منحرفة فتجرها نحو السقوط والتلوّث والضياع والضلال .

---

(٩) سورة البقرة ، الآية : ١٨٥ .
(١٠) سورة الحج ، الآية : ٧٨ .
(١١) سورة البقرة ، الآية : ٦١ .

إنّ العلاقة غير الشرعية بين النساء والرجال قد احتلت اليوم في الدول الغربية محل الزواج المؤقت ، والمجتمع بذلك يواجه فوضى جنسية . والمفكّرون الغربيون بمشاهدتهم لهذا الوضع من انتشار الفحشاء أخذوا يشعرون بالحاجة لمثل هذا القانون وهم يرون الزواج المؤقت ضرورة حاسمة وإجابة لحاجة بشرية ملحّة .

فقد كتب الفيلسوف الإنجليزي « برتراند راسل » يقول :

« إن الضرورات اليوم والمشاكل الإجتماعية والإقتصادية قد أخّرت زواج الشبان والشابات على خلاف ما نميل إليه ونريده ، إذ الشاب قبل قرن أو قرنين كان يُنهي دراسته فيما قبل العشرين من عمره ، فكان مستعداً للزواج في بدايات ضغوط الغريزة ، وقليلاً جداً كان أولئك الذين كانوا يضطّرون إلى أن يستمرّوا في دراستهم في الفروع العلمية الإختصاصية حتى الثلاثين أو الأربعين من أعمارهم ، فلا يستعدون للزواج قبل إنهائها . . . أما اليوم فان الشباب يدخلون الفروع الإختصاصية لتوهم فيما بعد العشرين ، وبعد فراغهم من الدراسة يقضون فترة يبحثون فيها عن عمل مناسب لهم يؤمّنون به معاشهم ، وبعد الخمسة والثلاثين من أعمارهم غالباً يستعدون للزواج وتأسيس الأسرة ، ولهذا فان على الشباب اليوم أن يقضوا فترة طويلة فيما بين البلوغ والزواج كيفما كان وعلى أي حال ، بينما هي الفترة الحسّاسة وعهد رشد الغريزة الجنسية وطغيانها وصعوبة المقاومة أمامها ومغريات الحياة .

ليس لنا أن نحذف هذا الشطر الحسّاس من حساب العمر أو نظام المجتمع البشري ، ولو أردنا أن لا نفتح حساباً خاصاً لهذه الفترة الطويلة والحسّاسة من العمر ولا نفكّر بهذا الشأن كان نتيجة ذلك شيوع الفساد وإهمال الصحة والنسل والأصول والأخلاق بين مختلف طبقات المجتمع رجالاً ونساءً ، فماذا نعمل ؟!

الرأي الصحيح هو : أن تسمح القوانين المدنية لحلّ هذه المشكلة نوعاً من « الزواج المؤقت » لهذه الفترة الحسّاسة من العمر ، بحيث لا يستوجب تحمّل ثقل مشاكل الحياة العائلية ولا يكون زواجاً دائماً ، في نفس الوقت

يحفظهم عن مختلف المفاسد والأعمال غير المشروعة وتحمل الألم الروحي للذنوب والتخلف عن الأصول والأحكام ، وكذلك عن الأمراض المختلفة » .

وكتب الأستاذ في الجامعات الأمريكية « ديليان وان لوم » يقول :

« إن التجربة والقوانين العلمية النفسية أثبتت أن الرجال بعد انقضاء مدة من زواجهم لا يشعرون بجدّة ذات لذّة من أزواجهم ، ولذلك فهم يميلون إلى الإنحراف الجنسي ، كما تبدي أرقام الإحصائيات الموجودة أن خمساً وستين بالمئة من الرجال المُحصَنين يخونون أزواجهم (في الدول الغربية) .

ومن أجل إنهاء هذه الإنحرافات من جانب ، ومن جانب آخر لتخفيف أعباء الزوجية نرى الدولة مضطرة إلى أن تقبل بقانون « الزواج المؤقت » بحيث يختار الطرفان أحدهما الآخر بحريتهما ويبقيان أوفياء لتواقيعهما على العقد حسب المدة المعيّنة كيفما يشاءان »[١٢] .

---

(١٢) بالفارسية : بهداشت ازدواج از نظر اسلام : ١٧٥ للدكتور صفدر صانعي .

تعدُّدِ الزَوجاتْ

إن القوانين التي توضع لنظام المجتمع إنما تكون نافعة ومتقدمة وكاملة فيما لو كانت تتلاءم وتنسجم مع المطاليب الفطرية للإنسان ومع السنن الطبيعية ، وفيما لو كانت ناظرة برؤية مستقبلية لكل الضرورات البشرية ، ولجميع الحالات والشؤون المختلفة لكل مجتمع ؛ وإلّا فانّها لن تتمتّع بالبقاء والدوام والتقبّل الطبيعي في المجتمع الإنساني .

إن الأنظمة الإسلامية المتينة والقوانين الثابتة فيه لا تخصّ منطقة أو عدة مناطق خاصة من العالَم ، بل انها وضعت وشرّعت لكافة أنحاء العالَم ولجميع الأزمنة وكل الأمكنة ، ومنسجمة مع السنن والنواميس الطبيعية ونظام الخلقة ، وقد دعت كل المجتمعات الإنسانية دائماً وأبداً إلى اتّباع هذه السنن الجامعة والأصول الشاملة ، ولذلك فهي في كل عصر تستجيب لجميع الحاجات لكل المجتمعات البشرية ولم تضمحلّ ولم تنعدم في طول التاريخ ومع كل جزر أو مدّ لمختلف الحوادث ، وانها لن تنعدم أبداً ، بل لن تفقد جدتها وقيمتها ما عاش إنسان على هذه الأرض .

ومن الوسائل والذرائع الدعائية للكنيسة والمبشرين المسيحيّين ضدّ الإسلام طرحهم لمسألة « تعدد الزوجات » في الإسلام ، والذي أخذوا يطرونها في خضم التحوّلات والتطورات العلمية والإجتماعية في العصر الحاضر . إن

الكنيسة من أجل الحفاظ على موقعيّتها الخاوية تلقّن الناس الجهلاء ـ ومع آلاف التهم والإفتراءات ـ بأنّ تعدّد الزوجات قانون ظالم جائر بالنسبة للمرأة ، فان الرجال ـ كما يقول ـ بامكانهم وكلّما شاءت إرادتهم الهوجاء والفوضوية أن يعقدوا دائماً على عدد كثير من النساء من دون أي قيد أو شرط ، ويجعلونهنّ مطيعات لأوامرهم الجائرة ويحمّلوهن ما يشاؤون !

هذه دعوى تختلف مع الحقيقة والواقع يرفعها الذين يخالفون موضوع تعدد الزوجات في الإسلام ، ومن ورائها أحكام جائرة يصدرونها ضدّ هذا القانون . ولكنّهم لو تركوا التعصّب جانباً وأخذوا يفكّرون في تشريع هذا القانون بصورة واقعية وبمنطق وعقل متحرّر ، ومع تأمل في طبيعة المجتمع البشري والحوادث الكثيرة فيه ، ومع ملاحظة مجموعة التحولات والتطورات في شؤون حياة الأمم والشعوب . وأرادوا أن يحكموا فيه بالعدل والإنصاف ، فلا ريب لنا في أنهم سوف يفهمون أن تشريع هذا القانون كان ولا يزال وفق الأصول والمنطق .

إن اتّخاذ الزوجات المتعددة بل الكثيرة كان أمراً متداولاً معمولاً به قبل طلوع الإسلام في مختلف المجتمعات البشرية ، بل كان ذلك يُعدّ ـ ولا يزال ـ بين بعض الشعوب من سمات الشخصيّات والأشراف .

إنّ دراسة تاريخ الأنبياء السابقين وكتبهم توضّح لنا حقيقة تحكي لنا أن تعدد الزوجات كان قبل الإسلام أمراً رسمياً ومرسوماً بين الناس ، ولم يكن أمراً أحدث لأول مرة متزامناً مع ظهور الإسلام ؛ بل :

« كان للرجل في دين اليهود أن يتزوّج مئات النساء ، ووفقاً لقانون « ليكي » في الصين كان يحق لكل رجل أن يتزوّج إلى مائة وثلاثين امرأة »[١] .

وقد كتب المؤرخون عن « أردشير بابكان و « شارلمان » أن كل واحد منهم كان يمتلك في حرمه أربعمائة امرأة !

---

(١) بالفارسية : حقوق زن در اسلام وأوروبا : ٢١٥ .

والإنجيل سكت ولم يصدر حكماً في خصوص هذه المسألة مع أن التوراة كانت قد أباحتها علناً ، ولذلك فقد كان حتى النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي أي على عهد شارلمان ملك فرنسا معمولاً به في أوروبا النصرانية المسيحية ، ولم تكن الكنيسة تخالف ذلك .

وفجأة في عهد هذا الملك نسخت الكنيسة قانون تعدّد الزوجات في جميع أنحاء البلاد النصرانية ، واضطر الرجال الذين كانت لهم نساء متعددات أن يختاروا واحدة منهن كزوجة شرعية ويطلّقوا سائرهن ، وكان من نتيجة هذا المنع والتحريم أن انجرّ أتباع المسيح نحو الفساد والفحشاء بشدة وتصاعدت المنكرات والفسق والفجور بين الرجال ذوي الزوجات المنفردات بصورة تصاعدية .

إن تعدّد الزوجات كان معمولاً به في الجاهلية وبين مختلف القبائل العربية بصورة خشنه غير مستحسنة ، فالرجل من دون أن ينظر إلى وضعه المالي والإقتصادي وعدالته بين نسائه كان يختار ما يشاء من النساء كلما دفعته أهواؤه الفوضوية . فكانت قيمة المرأة ـ والحال هذه ـ مستهانة ، وكان التعدي عليهن وظلمهن في الحقوق المشروعة لهنّ كأنه أمر اعتيادي ، وكانت الإرادة المطلقة للرجال قد ضيّق مجال الحياة على المجتمع النسوي فيما بينهم .

وجاء الإسلام فمنع عن هذا الإفراط في الشهوة والتفريط في حقوق المرأة ، وأنهى هذه الفوضى في حقوق النساء ، ولكنّه قبل بتعدد الزوجات وفق شروط خاصة معيّنة ، وحدّد عددهن في أربعة حسب مقتضى الحاجات الطبيعية في المجتمع وبالنظر إلى مصالح النساء والرجال جميعاً .

لم يُشرّع الإسلام هذا القانون للشهوة غير المشروطة ولا المحدودة للرجال ، بل لا بدّ في تحققه من شروط مشروطة . وعلينا أن نعلم أن الأصل في الزواج في الإسلام ليس التعدد ، بل إن هذا القانون كأنه قانون وقائي إجتماعي ترفع به مخاطر عديدة ، فقد يحدث ما يوجب أن ندفع ضرراً بتحمّل ضرر آخر ، فماذا نفعل عندئذٍ .

وليس ذلك على كل رجل مسلم كأمر ضروري لازم وواجب ، حتى إذا سمحت له شروطه الخاصة وخصوصيات حياته العائلية أن يتزوّج بأكثر من واحدة ، وكان بإمكانه أن يراعي العدالة في الإحتفاظ بهن ، ولكنه امتنع عن ذلك كان كأنه ارتكب حراماً .

وفي نفس الوقت جعل النساء في حرية تامّة في الإرادة والعمل حتى إذا رضين بمثل هذا الزواج وتمايلن إليه أقدمن عليه ، ولم يوجب على أي امرأة أن تستجيب لذلك .

والإسلام بتجويزه لتعدد الزوجات لم يرتكب إهانة إلى شخصية المرأة ، بل للمرأة أن تستجيب لذلك في المواقع والحالات الضرورية لها ، نعم لا يجبرها على تحمّل الوحدة والتجرّد والضغوط النفسية من جرّاء ذلك ، بل لها أن تنظّم بذلك وضعها وحياتها ومعيشتها .

لو كان عدد النساء والرجال البالغين متساوياً ومتوازياً عندئذ لم يكن لأي رجل سوى امرأة واحدة وكانت المسألة محلولة حلاً طبيعياً ولم تكن تبقى كمشكلة . والخلاصة أن هذا الزواج لا يقع إلاّ عند وجود الحاجة الإجتماعية وعندما تسمح به الحاجات الإجتماعية ، فلو اختلّ لأمر ما هذا التوازن الإجتماعي وقلّ عدد الرجال البالغين عن عدد النساء فما هو تكليف النساء الأكثر من الرجال ؟

ففضلاً عن أن الرجال أقل مقاومة من النساء في الأمراض والحوادث ، هناك علل أُخرى مختلفة كالحروب والأعمال الثقيلة والعمل في المعادن مما يؤدّي إلى خسائر في الأرواح كثيرة تسبّب في زيادة عدد النساء عن الرجال وتخرم ما بينهما من توازن . وهنا نستمدّ العون من الأرقام والإحصائيات ، فهي الحَكَم ولها الحُكم هنا :

وفقاً للإحصائيات الموجودة النساء في العالَم أكثر من الرجال قطعاً ، وهذه الزيادة مسبّبة عن علل مختلفة من الحوادث الإجتماعية وغيرها مما هي موجودة في جميع أدوار حياة البشر كانت ولا تزال . وهذه حقيقة لا مفرّ منها ، ولا يبقى معها أي مجال للقول الجُزاف .

« وفقاً للإحصائيات يولد في فرنسا مائة وخمسة من البنين بازاء كل مائة من البنات ، ومع ذلك فإن النساء في فرنسا أكثر من الرجال بأكثر من مليون وسبعمائة وخمس وستون ألفاً ، ومع أن جمعية فرنسا كلّها لا تتعدى أربعين مليوناً . والسبب في ذلك أن البنين أقل مقاومة في الأمراض من البنات ، ولذلك فإن خمساً بالمئة منهم يموتون قبل سن العشرين ثم ينقصون ولا سيّما بعد سن الخمس والعشرين سنة ، حتى لا يبقى في سن الخمس وستين سنة منهما (الذكر والأنثى) إلاّ سبعمائة وخمسين رجلاً بازاء مليون ونصف المليون امرأة »[2] .

وكتب البروفسور « بيتر ملاوار » أستاذ التشريح بجامعة لندن ، يقول : « لذلك ولأمور أخرى نرى أن الرجال في العالم يقلّون عن النساء في العدد بصورة مستمرة »[3] .

« وفي أمريكا اليوم أكثر من عشرين مليون باكرة لم تتزوج ولذلك فقد تلوّثن بالمخدّرات »[4] .

كما أن المرأة تشعر بالحاجة بالنسبة إلى الأمور الضرورية المعاشية كذلك تجد في نفسها حاجة عميقة عريقة متجذّرة باطنية بالنسبة إلى البعل والنسل وتربية الأولاد ، ولا تقضي هذه الحاجة في نفسها إلاّ بالزواج الصحيح القانوني وتشكيل الأسرة ، وإنّ تأمين وسائل الحياة المادّية وحدها لا تقدر على رفع الإلتهاب الباطنيّ لها وإسعادها نفسيّاً . وكذلك شعور الرجل . وبصورة عامّة فان الصفاء المعنوي والعواطف المتبادلة بين الرجل والمرأة مما لا يمكن التنكّر له .

ووكالات الأنباء أحياناً تشرح العلل لزيادة النساء في العالم ، فتذكر :

« لماذا يزداد عدد النساء يوماً فيوم ؟ السبب في ذلك هو طول العمر

---

(٢) عن الجريدة الإيرانية : اطّلاعات بتاريخ ١٣٣٥/٩/١١هـ . ش .
(٣) عن المجلة الإيرانية : خواندنيها للسنة ١٤ العدد : ٧١ .
(٤) عن الجريدة الإيرانية : كيهان بتاريخ ١٣٣٨/١٢/٣هـ . ش .

النسبيّ للإناث على الذكور ، فلا شك أن الذكور يعمّرون أقل من الإناث ، ووفقاً للإحصائيات وجد بازاء كل رجل مجرّد عشرون أرملة ، وعدد النساء المجرّدات غير المتزوّجات كثير أيضاً أي اللواتي بقين بلا أزواج لزيادة عددهن على الحاجة . أضف إليهن المطلقات أيضاً .

إنّ عيشة المرأة لوحدها أمر صعب ومُملّ ؛ إذ النساء في ترتيب عيشة مجرّدة أقلّ دلالة ومهارة من الرجال . إنّ النساء العزبات غير المتزوّجات دائماً ينتظرن شريكاً لحياتهنّ وهنّ يعشن دائماً في غرفة الإنتظار لذلك .

أترى لماذا يحرمن النساء المجرّدات المفردات أنفسهنّ حتى عن الطعام الشهي المُعدّ بدقة كافية ؟ ذلك أنهنّ يفكّرون أنّ العمل لأنفسهنّ وحدهنّ أمر عبث ، في حين أنهنّ يسعين نفس السعي لأزواجهنّ أو لأولادهنّ بكل شوق ورغبة . حتى أن تسعاً من عشرة من النساء المفردات غير المتزوّجات أو الأرامل إنّما يأكلن كما يقول المثل : مرحباً بكلّ ما يحصل ! وأكثرهن يبدأن أيامهن بلا هدف ، وحتى حضورهنّ عند الأحبة والأقرباء بما يرين فيهنّ من النساء ذوات الأسر التي تعيش بحرارة المحبة ، يشكّل لهنّ عذاباً مؤلماً »(٥) .

والطريق الوحيد الذي أعدّه الإسلام لهذه النسوة اللواتي يزداد عددهنّ على الرجال هو تعدّد الزوجات ، بأن يحق للنساء الزواج وتشكيل الأسرة مع رجال لهم أزواج أخرى ، وبذلك يتمكّن من أن ينقذن أنفسهنّ من آلام الوحدة ومختلف أنواع الحرمان .

إن خاصة الغريزة الجنسية وتوليد النسل في الرجال أمر دائم بدوام أعمارهم ، بينما النساء يفتقدن قابلية الحمل والولادة في سنّ الخمسين سنة ، وعليه فحينما تفتقد المرأة هذا الإستعداد والإمكانية لا تزال القوة الجنسية في الرجال على يقظتها وقوّتها ، فلو كان الزواج الثاني للرجال خلافاً للقانون كان لازم ذلك أن يحرم الرجل عن الإفادة من خاصته هذه في المدة الباقية من أعمارهم أكثر من عمر الإخصاب في المرأة .

---

(٥) وكالة الأنباء الفرنسية عن الجريدة الإيرانية : إطّلاعات ، العدد : ١٢٢٣٩ .

وكثيـرات تلك النسوة العقيمـات اللواتي لا يـرضين مـع ذلـك بمفـارقـة أزواجهنّ لمـا بينهما من المـودّة والرحمـة ، ومن ناحيـة أخرى فـان الميل إلى الأولاد وبقاء النسل حاجة طبيعية ، وعليه فلمـاذا يبقى الرجـل إلى آخر عمـره يحترق في نار الحسـرة على افتقاد الأولاد ولا يصل إلى بغيته هذه ؟!

كتبت جـريدة « إطـلاعات » بعنـوان : « ثلاثـة زوجـات دائمـات وافقن لزوجهنّ على زواجه الرابع » تقول :

« بعد الزوال من يوم أمس راجع رجل مع ثـلاثة زوجـات له دائمـات ، محكمة الأسرة في مـدينة « رشت » وطلب من قضـاة المحكمة أن يصـدّروا له جوازاً بناءً على موافقة زوجاته الثلاثة الحاليات بأن يتزوّج بامرأة أخرى رابعة قد رضى بها وأرادها ، والطريف أن زوجاتـه الثلاثـة أعلنّ عن رضاهنّ بـذلك في محضر القضاء . أما الرجل فقد وضّح وضعه للمحكمة وقال : هؤلاء عقيمات ، ولكنّهن يساعدنني في أمور الزراعة ولذلك لا أريد أن أطلّقهنّ ، ولكنّي أريد مع الإحتفاظ بهنّ أتزوج بامرأة أخرى لعلّها تلد لي ولداً .

وكانت الزوجة الجديدة بنتاً باكراً وقالت هي بدورها لمندوبنـا في مدينـة « رشت » :

إنّ زوجي هذا من الرجال الصالحين في قريتنا « سفيـد كُپل تپّـه » وفيها ألفان امرأة وأربعمائة رجل فقط ، بل مائتا رجل ومائتان من البنين غير البالغين السادسة عشرة من أعمارهم ، وعليه فلأن يكون سهم كل امـرأة في قريتنـا من الرجال سوى خُمس رجل لكل امرأة ! إذن فلا عجب أن أرضى بزواجي بهـذا الرجل »(٦) .

فهل أن القانون الذي يحاول أن يمنع الرجل عن بلوغه إلى غايته أي أن يحصل على ابن له أو ولد ، ليس قانوناً ظالماً بشأن أولئك الرجال ؟!

وفي هذه الأوضاع الإجتماعية كيف يواجه القانون الذي يراد له أن يكون مراعياً لمصالح الرجل والمرأة هذه الحالة الإجتماعية غير المتوازنة بالنسبة إلى

---

(٦) عن الجريدة الإيرانية : إطّلاعات ، العدد : ١٣١٦ بتاريخ ٢٠/١١/١٣٤٨هـ . ش .

النساء الإضافيات ؟ وأي حل عادل بامكانه أن يقدّم لذلك سوى تعدّد الزوجات ، ليسدّ ذلك الخلل من خلاله ، ويقرّر التوازن بين الجنسين .

هذه ضرورة حياتية روحية وإجتماعية ، وعلينا أن نواجهها في حدود الحقيقة والواقع لا التصورات الواهية والخيالات والقصص .

ومن الممكن أن تُصاب المرأة بأمراض مزمنة وغير ممكنة العلاج بحيث يكون الجماع معها مضراً بالرجل ، بينما القوة الجنسية لا تزال في الرجل يقظة ، ومن جانب آخر قد أعلن الإسلام أن الغريزة الجنسية لا يجوز إشباعها إلاّ من طريق الزواج الشرعي . فأيّ طريق أفضل وأنسب من قانون تعدّد الزوجات لإرضاء الغريزة الجنسية لهؤلاء الرجال ؟!

(طبيعيّ أن المرأة أيضاً فيما إذا ابتلي زوجها بأحد الأمراض المُعدية التي لا تعالَج ، بحيث يكون الجماع معه مُضراً بالمرأة ويخاف أن تصاب هي أيضاً بذلك الداء ، كان لها أن تراجع الحاكم الشرعي فيلزم القاضي الشرعي زوجها بطلاقها ، فإذا لم يطلقها الرجل كان للقاضي الشرعي أن يحلّ عقد زواجها بالطلاق وفق الصلاحيات التي فوضّها إليه الإسلام) .

أفليس الإحتفاظ بالمرأة المريضة في كفالته وقيمومته والزواج بأُخرى أفضل من طلاقها وأن يضيفها بإهمالها على أمثالها ؟ أفهل يقضي الضمير والإنصاف بأن يتقبّل الرجل المرأة في أيام سلامتها بصفتها شريكة حياة ، ثم يطردها عن نفسه ويتركها على أثر عارض من مرض لا يزال الإنسان في معرض ذلك دائماً ، وهي قد قضت شطراً من عمرها في دار زوجها وكانت شريكة أفراحه وأتراحه ، وهي اليوم مريضة ، فهي بأمسّ الحاجة إلى القيمومة والكفالة والمحبّة والعطف أكثر من أي شيء آخر ، فما هو حكم العقل والإنسانية هنا ؟

ولو كان جماعة من المجتمع مصابين بالفقر لعلل مختلفة ، وكان بينهم وبين سائر الطبقات فواصل مالية عائقة ، فالذين لا يملكون إمكانية مالية لا يستطيعون الزواج ولا يقدرون على تشكيل الأسرة ، وبالتالي فان التوازن بين النساء والرجال البالغين سيختلّ طبعاً . فلماذا لا يحق لمن لهم إمكانية مالية من الرجال أن يتزوّجوا زوجات عديدات يكفلونهنّ وبذلك ينقذوهنّ مما هنّ فيه من

الفقر والفاقة والحاجة ؟

إن من الأساليب المؤثرة التي اتّخذها الإسلام لمكافحة الفحشاء والحفاظ على العفاف العام هو قانون تعدّد الزوجات ، الذي يفتح السبيل لإنقاذ ملايين النساء عن السقوط الخلقي والإنحراف ولإيصالهن إلى حاجاتهن المشروعة أي الزوج والولد .

في الحرب العالمية الثانية إذ ذهب ملايين من الرجال ضحيّة الموت والفناء والدّمار ، وأرمل جمع كثير من النساء وأصبحن بلا أزواج ولا قيّم ولا كفيل ، تشكلت جمعية منهنّ وطلبن من حكومة ألمانيا بعد الحرب أن تعلن عن السماح بتعدد الزوجات . ولكن الكنيسة خالفت في ذلك . وحيث لم تقدر أن تقدّم المسيحية طريقة منطقية لحلّ هذه المشكلة ، تلوّث المجتمع بأنواع من المفاسد الأخلاقية والإنحرافات الجنسية ، وزيادة الفحشاء والعلاقات غير الشرعية سبّبت في ازدياد الأولاد غير الشرعيين . وكتبت الجرائد تقول :

« بعد الحرب العالمية الثانية طلبت جمعية النساء غير المتزوّجات من حكومة ألمانيا أن تعلن عن السماح بتعدّد الزوجات ، وبذلك تساعد النساء لوصولهن إلى حاجاتهن الطبيعية الشرعية أي الزوج والولد القانونيّين . وخالفت الكنيسة في ذلك ، وكلنا يعلم أن مخالفة الكنيسة أصبح يساوي إصابة كل أوروبا بكل ما ينافي العفّة العامّة »(٧) .

« إن الاستيحاش من الإنفراد والبقاء منفرداً في العيش شائع حتى بين الفتيات ذوات العشرين عاماً فضلاً عن النساء في الثلاثين والأربعين من أعمارهن . وإن حرية الرجال والنساء اليوم لم تستطع أن تذهب بحلم الزواج من أعماق وجود المرأة في العالَم ، فانّ عيون « حوّاء » تتوجّه دائماً إلى « آدم » ومع كل الإمكانيات المعدّة للعمل والتقدم للنساء في ألمانيا الفدرالية لا زلن بنات حوّاء يبحثن عن الأمن في أحضان الأزواج .

ولعلّ الفتيات ذوات العشرين حتى الخامسة والعشرين من أعمارهن لا

---

(٧) عن الجريدة الإيرانية : إطّلاعات ، بتاريخ ٢٩/٨/١٣٤٠هـ . ش .

يواجهن المشكلة إلاّ قليلاً ولكن النساء ذوات الثلاثين حتى الأربعين يعانين أكثر من المشكلة ، أما من الخمسين فصاعداً فهن يائسات أو آيسات . ووفقاً لاحصاء رسمي عُلم أن خمسين بالمئة من النساء في حدود الثلاثين وعشرين بالمئة من النساء في حدود الأربعين يحضين بالزواج فقط ، أما من ذوات الخمسين فإن خمسة بالمئة منهن فقط يمكنهنّ أن يحتفظن بهذا الأمل في نفوسهنّ !

وعلى أثر هذا الوضع نرى ستة ملايين من النساء في سنّ الأربعين فصاعداً بلا أزواج في ألمانيا ، وبازاء هذه الستة ملايين من النساء بلا أزواج إنّما نجد ثلثا من المليون من الرجال بلا زوجات فقط ، أي لكل أربع نسوة رجل واحد فقط !

وحيث أن ثلاثة عشر بالمئة من الرجال المذكورين من المتقاعدين المجرّدين ، وبازائهم سبع وتسعون من النساء بلا أزواج لا زلن يأملن في ذلك ، فقد أصبح التوازن والتناسب بين المؤهلين للزواج وطالبات الأزواج كأنّها مسألة عويصة على الحلّ .

وحيث أنّ الإمكانيات للزواج بالفتيات محدودة ، ولا يمكن أن تُحلّ مشكلة الستة ملايين من النساء الألمانيات غير المتزوّجات بما يقع من الزواج ، فإنّ عدداً كثيراً من النساء قد أقبلن على السفر إلى خارج ألمانيا ، حتى أن ما يقرب من خمسين بالمئة من الألمانيات المهاجرات هنّ نساء يطلبن الزواج »(٨) .

إنّ قانون « تعدد الزوجات » هو القانون الوحيد الذي بإمكانه أن يُجعل مورد التنفيذ في ألمانيا كأصل للحلّ غير منكور الأثر لحلّ مشكلة كثرة النساء في ألمانيا الغربية ، ولكي يُنهي هذه الفوضى النسوية هناك ، ويمنع عن إنحراف الرجال والنساء بطغيان الغريزة فيهن .

إنّ الغرب يدعي أنّه عمل بالرأفة بالنسبة إلى النساء وأعطاهن حرية تامّة

---

(٨) عن الجريدة الإيرانية : إطّلاعات ، بتاريخ ١٣٤٩/٣/٣هـ . ش .

كاملة ، فلماذا أحدث سدّاً أمام طلباتهن الشرعية وانتظام حياتهنّ العائلية ؟ وهو يُعطّلهنّ عن وظائفهنّ الأصلية في التوليد والتربية ؟ لماذا لا يدع المرأة والرجل ـ وهما متوافقان وسراضيان ومتعاطفان يريدان العيش المشترك وتشكيل الأسرة ـ ليصلا إلى ما يريدان من هدف مشروع ؟ ولينتهين عن هذه الحالة بلا كفالة ولا قيمومة . وماذا يقول الغرب في مصير هذه النسوة غير المتزوّجات ؟ أفهل لنا أن نحرمهنّ للأبد عن تشكيل الأسرة وعن الأولاد وعن إرضائهن لغريزتهنّ ؟ هل أن تعدد الزوجات الذي شُرّع في الإسلام للإستجابة للحاجة الطبيعية في المجتمع . . . هل هو بضرر النساء أو بنفعهنّ ؟ وهل أنّ هذا القانون أعطى المرأة حرية أكثر أم حدّد حرّيتها وحاجاتها الطبيعية ؟ نحن نترك الإجابة على هذه الأسئلة إلى ضمير القرّاء الكرام .

إنّ قبول عيشة مشتركة مع نساء أُخريات على رجل واحد من قبل امرأة واشتراكها مع امرأة أو نساء أُخريات في بيت رجل واحد ، لخير دليل على أنها ترى هذا الوضع أفضل من العدم والإنفراد والتجرّد والعزوبة والوحدة ، والرجل باختياره لزوجات متعددات يتعهد بمسؤولية أكثر وهو الذي عليه أن يتحمّل ما في ذلك من ألم ومشقّة وتعب .

لسيّدة مثقّفة هي دكتورة في فرع الحقوق ، اعتراف منصف وصريح بهذا الخصوص ، إنها كتبت تقول : « إن أي امرأة ، سواء الزوجة الأولى أو الثانية لا تتضرر من عمل زوجها بقانون تعدد الزوجات ، بل من المسّلم به أن المتضرّر بما في تعدّد الزوجات من القرارات إنما هم الرجال ، فهم الذين يثقل حملهم وعبؤهم وتكاليفهم ، ذلك أن الرجل إذ يتزوّج امرأة فإنّه سيكون موظفاً مسؤولاً عنها قانوناً وأخلاقاً وشرعاً وعرفاً ، وعليه أن يُعدّ لها ما يلزم لها من وسائل المعيشة حتى آخر عمرها مما يناسب شأنها وشخصيّتها في أسرتها ، وأن يضمن علاجها فيما إذا عرض لها عارض من مرض أو حرج ، وأن يدافع عنها أمام المخاطر ويحميها أبداً .

وإذا ما قصّر الزوج في ذلك فإن القوانين والأعراف تقوم بعقوبته وتجبره على قيامه بتكاليفه ، أضف ذلك إلى أنه مسؤول أمام دينه وربّه وسيؤاخذه على

ذلك يوم الحساب . وتعتقد الكاتبة أن كل الإعتراضات والإنتقادات التي تطلق على لسان النساء في مورد « تعدّد الزوجات » إنما هي تخرج من حلقوم الرجال وإنما هي من فكر الرجال يُلقى إلى النساء ويلقّنّ به والنساء يحكينه تماماً كالببغاء ! فالرجال هم الذين يحولون دون أنفسهم والزواج الشرعي القانوني بإلقاء هذه الشبهات ويفتحون على أنفسهم إمكانية العلاقة غير الشرعية !

ولو كان للرجل زوجتان فلا ضرر في ذلك على المرأة بالنظر إلى العلاقة الجنسية أيضاً ، وإنّما يمكن أن تشعر المرأة بالضرر الروحي والمعنوي حيث تفكّر في أن لزوجها زوجة أخرى غيرها فتتألم روحيّاً ، ولكنه ليس أمراً واقعياً وإنّما هو أيضاً من إلقاء الرجال وتلقينهم ذلك إلى النساء ، فتعدد الزوجات كان موجوداً ولا يزال تعيش الزوجتان وحتى الثلاث معاً في بيت أو دار واحدة وفق الأحكام الشرعية ولا تتألم أيّة واحدة منهن ولا تشعر بعدم الرضا ، ولكنّ اليوم أصبح حتى تصوره مؤلماً بفعل إلقاء الرجال وتلقينهم للنساء ، بينما لو كان هذا التألم طبيعياً وواقعياً للزم أن لا يتحقق العمل به في القديم كثيراً »[٩] .

أجل ، إن الغرب قد سمح بالحرية والإباحية والتحلّليّة والفوضوية بينما منع عن هذه الحاجة الطبيعية والشرعية . والإسلام أعطى للناس حريتهم المعقولة ولا يقبل بهذه الحرية المضرّة والتي هي على خلاف مصلحة الفرد والمجتمع .

وحيث أن العدالة ضمان لسعادة الفرد والمجتمع وهي مورد عناية خاصة من الإسلام ، لذلك كان تعدد الزوجات في الإسلام مشروطاً بالعدالة ، وقد تقرّر في الفقه الإسلامي أحكام كثيرة مبنيّة على بيان كيفية رعاية العدالة بين الزوجات في مختلف الأمور ، وقد تأمّن بذلك استقلال النساء وكيانهنّ وتساويهن في حقوق الزوجية على أحسن الوجوه .

هناك كثير من النساء يرخّصن لأزواجهنّ في اختيار زوجة أخرى بكل رغبة ، ومن هنا يبدو أن قانون تعدّد الزوجات منسجم مع فطرة الإنسان ، ولو

(٩) بالفارسية : ازدواج در اسلام : ١٥٠ ـ ١٥٢ .

كان ذلك يخالف فطرتها لما كانت تستعدّ برضايتهـا أن تتزوّج بـرجلٍ لـه زوجة قبلها . وإن أكثر النساء اللواتي لا يرضين أن يختار أزواجهنّ زوجات أخرى إنّما العلّة في ذلك أنهنّ يخشين أن لا يراعي زوجهنّ الأصـول والأحكام الـزوجية بصورة صحيحة وكاملة بالنسبة إلى زوجاتـه جميعاً فيُنقص من حقـوقهنّ شيء ويُنقض .

وما يظهر في كثير من الأسر والعوائـل من الإختلافـات إنما هـو على أثر وجود التمييز غير الشرعي والإعتداء على حقوق بعض النساء ، وبكلمة : لعدم رعاية العدالة بينهنّ . وقد قال الله :

﴿فـانكحوا مـا طاب لكم من النسـاء مثنى وثلاث وربـاع فـإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة﴾[١٠] .

والخلاصة : أن الأعمال غير الصحيحة والسلوك الخشن لبعض الرجـال ينتج ظهور كثير من هذه الإختلافات في العـوائل والأسـر ، وإنّ انحرافهم عن العدالة وعن العمل بالتكاليف الشرعية والأخلاقية بالنسبة إلى الزوجـات يُبدّل كـانون الأسـرة إلى جهنّم وحريق بينمـا المفروض أن تفيض بـالمودة والمحبّـة والصفـاء والإخلاص . وعلينـا أن ندرس الأفكـار الإسلاميـة الساميـة وقوانينـه الرصينة وأحكـامه الأصيلة والعميقـة غوراً من دون النـظر إلى هؤلاء الأفراد من المسلمين ، حتى نشاهد الصورة الواقعية والأصيلة للإسلام في قيادته للمجتمع السليم بعيداً عن أي انحراف أو فساد .

وفي الإسلام أحكام تُلزم الزوج برعاية شـروط العدالـة بين الزوجـات ، بالإمكان أن نحول بالعمل بتلك الأحكام دون ظهور تلك المشاكل .

فلو امتنع الزوج عن دفع النفقة المناسبة لشوون الزوجة ولم يراع العدالة في العلاقة الزوجية وتخلّى عن عبء المسؤوليـات والتكاليف الثقيلة عليـه فان الشرع سيؤاخذه وتعاقبه القوانين المقرّرة .

ولكن علينـا أن نفهم أن المـودة والعـلاقـة القلبيـة خـارجـة عن حـدود

(١٠) سورة النساء ، الآية : ٣ .

الإنسان ، فمن الممكن أن تكون لزوجة من المزايا والإمتيازات ما تفتقدها سائر الزوجات ، ولذلك فانّ أحكام الإسلام إنّما هي بشأن تنفيذ العدالة في حقوق الزوجية كالنفقة والمسكن والمضاجعة وتأمين كافة الحاجات المالية والبدنية والروحية ، وبكلمة فيما ليس خارجاً عن حدود اختيار الإنسان ، ولا يسمح في ذلك بأي انحراف من تمييز ظالم . وها هو الإسلام قد ضمن هذه الحقوق التي لها أهمية كبرى في الحياة الزوجية .

وهناك حقيقة واضحة تقول : إن حقوق المرأة إنّما تنتقص فيما لو كان الزوج يرتّب على علاقته القلبية أثراً عملياً ، أما فيما لو لم تؤثّر علاقته القلبية في العلاقة الزوجية وبالنظر إلى الملبس والمطعم والمسكن وسائر لوازم المعيشة فلا أهمية لذلك في ميزان العدل في الفقه . نعم لا ينبغي أن تظهر آثار عدم الرغبة في كانون الحياة الزوجية ، كما يقول القرآن الكريم :

﴿فلا تميلوا كلّ الميل فتذروها كالمعلّقة﴾[11] .

فلا يحقّ لأي رجل أن يتعامل مع بعض زوجاته مُبدياً لها عدم اعتنائه بها وعدم رغبته فيها وميله إليها ، فيتركها بذلك كالموجودات المعلّقة ، إذ لا تتمتّع حينئذٍ لا بحقوق الزوجية ولا من مزايا العزوبة والتجرّد .

ومع تشريع هذا الحكم على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله أُلزم من كانت له أربع زوجات فيما لو لم يكن قادراً على تنفيذ العدالة وتطبيقها بينهنّ أن يكتفي بزوجة واحدة ، وفيما لو كان ينفّذ العدل أيضاً لا يحق له أن يحتفظ بأكثر من أربعة منهنّ . . . وهكذا منع الإسلام تعدد الزوجات بصورة غير عادلة ، ومنع عن عدم الإعتداد والإعتناء بحقوق النساء ، ومنع عن الإباحية والتحلّليّة والحرية المطلقة في ذلك ، وأذهب بكل ظلم وجور كان يجري عليهنّ من قبل .

ونجد بين المسلمين الملتزمين بالقوانين الدينية نماذج كانوا يراعون العدالة بين الزوجات حتى بعد وفاتهنّ :

---

(١١) سورة النساء ، الآية : ١٢٩ .

فقد روى : أن مُعاذ بن جبل كانت له امرأتان ماتتا في الطاعون ، فأقرع بينهما أيّهما تُدفن قبل الأخرى[١٢] .

ويوجد بين علماء الغرب من يدرس مسألة تعدّد الزوجات برؤية منصفة وواقعية وبدقة وقد خرجوا من ذلك بأنه ضرورة إجتماعية :

فقد كتب الفيلسوف الألمانيّ الشهير « شوبنهاور » يقول :

« حينما يكون تعدّد الزوجات في مجتمع ما قانونياً مسموحاً بـه ، فمن الممكن القريب من الواقع أن الأكثرية الساحقة من النساء يكون لهن أزواج وأولاد ، وذلك يعني أنهنّ مقضيّات الحاجات الروحية والغريزية ، ولكن في أوروبا حيث لا تسمح لنا الكنيسة بهذا العمل فسوف تبقى النساء بلا أزواج أكثر بكثير من النساء المتزوّجات جداً ، وما أكثر النساء والبنات اللواتي يحترقن لسنين وأعوام من أعمارهن في حسرة الأزواج والأولاد بل حتى اختفين ونمن في بطن الأرض من دون أن تقضى لهنّ هذه الحاجة الملحّة والطبيعية ، وما أكثر النساء والبنات اللواتي خسرن ما لديهنّ من عفافهنّ بإجبار الغريزة الجنسية ثم قضين أعمارهنّ وهنّ منكّسات الرؤوس ومع وخز ضمائرهنّ ووجدانهنّ الأخلاقي ، وهنّ لم يبلغن بذلك إلى الزوج والولد وهما من الحاجات المشروعة والمصيرية لكل امرأة .

أنا كلّما أفكّر وأفتّش وابحث فاني لا أتمكّن من أن اجد دليلاً مقنعاً على أن الرجل لو أصيبت امرأته بمرض مزمن ، أو كانت عقيمة ، أو عاجزة عن الحبل والولادة لماذا لا يحقّ له أن يختار امرأة أخرى ؟! وعلى الكنيسة أن تجيب ، ولكنها أيضاً غير قادرة .

والقانون الجيّد هو ما يتكفّل العمل به بحياة سعيدة ، لا الذي يحدث العقد والحرمان أو يجعل الأيدي والأرجل في الأغلال والسلاسل ، أو يزيد في الضلال والفساد والضياع والفحشاء وما ينافي عفاف النواميس » .

ويقول قائد الحركة العرفانية « آني بيزانت » الإنجليزي :

---

(١٢) مجمع البيان ٣ : ١٨٥ ، ط . بيروت .

« إنّ الغرب يدّعي أنه لم يقبل قانون تعدّد الزوجات ، وحقيقة الأمر هي أنّ تعدّد الزوجات موجـود في الغرب ولكن بـدون مسؤولية بمعنى أن الـرجل حينما يحصل على شهوته من رفيقته فانّه سوف يطردها عن نفسه ، وبالتـدريج تصبح امرأة متروكة في الشوارع والأزقّة متحيّرة لا تدري إلى أين تأوي ، ذلك أنه لا مسؤولية على عُهدة صاحبها عنها . وإنّ حالة هذه (الخالة الضائعـة) ! أسوأ مائة مرّة من المرأة التي قد أصبحت زوجة قانونية ثم أماً بل جدّة ، تعيش في الأسرة تحت حماية الزوج والولد .

نحن حينما نرى ألوفاً من النساء البائسات قد تجمّعنّ في شـوارع المدن الغربية طوال الليل وهنّ تائهات ضائعات لا يدرين إلى أين يذهبن ، نطمئن إلى أنّ على الغربيّين أن يسدّوا أفواههم عن لوم الإسلام بشأن تعدّد الزوجات ! إن المـرأة حتى في حالـة تعدّد الـزوّجات إذ هي مـع زوجها وأولادهـا القـانـونيين وبصورة محترمة في بيتها . . . أفضل بكثير ومن جميع الجوانب وأسعـد وأكثر كـرامة وحـرمة من امـرأة تعيش متحيّـرة متـردّدة في الشـوارع والأزقـة ، والتي أصبحت ضحية شهوات الرجال وهي تحمل طفلاً لا شرعية له ولا قانون يدافع عنها » .

وكتب الدكتور « غوستاف لوبون » الفرنسيّ يقول :

« لم يوصف شيء من تقاليد الشرق أسـوأ مما وصف بـه موضـوع تعدّد الزوجات ، ولم تخطىء أوروبا في شيء كما أخطأت بشـأن هذا المـوضوع . حقاً أنا متحيّر ولا أدري ماذا يختلف تعدّد الزوجات الشرعي في الشرق عن تعدد الزوجات غير القانوني في الغرب ؟ ما الذي يعوزه ؟ ولماذا ؟ بل أنا أعتقـد أن تعدّد الزوجات الشرعي أفضل وأليق من جميع الجوانب »(١٣) .

---

(١٣) عن الترجمة الفارسية : تمدن اسلام وعرب : من ٥٢٦ ـ ٥٢٧ .

الفهرس